

تسبب الشيخ محمد

رحل الدرويش



أبو عبدو البغل



توطئة حلم

لا أدري تماما ما الذي جعلني اكتب هذه الصفحات . ربما هي الوحشة
والرغبة بالقبض على الظلال .. أو الاضطرار بالرتابة لاغير . كان هذا قبل
اكثر من عشر سنوات . وتركتها طوال هذه السنين كلها . فجأة وجدتني مقبلا
على تناولها هذا الصيف . فأخذت اعيد واكتب من حتى انتهيت عند نقطة بدت
لي هي آخر ما ينبغي أن اقف عنده . وكنت اكتب لي .

لم يكن ليهمني أي شكل تأخذه هذه الكتابة . فحيا هي بالرواية أو
القصص . لاشيء من هذا . وما هي ايضا بالمذكرات أو اليوميات . انما هي
محاولة تذكرك . ولم تعد ، على أية حال ، الا حلما قديما .

انني اتذكر الوجوه والشارع والغابة .. بل اتذكر وجه المرأة الجميل ،
وقد مر بي لبرهة واحدة . ولقد التقيت ، بعد سنين ، ببعض هذه الوجوه .
وسرت فوق الارصفة ذاتها .. وحللت في جانب من الامكنة عينها . ولم يكن
هذا كله الا ظلا تائها لاغد له . غير أنني اتساءل ، أحيانا ، اكان ضروريا ان
اكتب هذا ؟ ألم يكن من الافضل ان ادع هذه الحياة الغائبة أطيافا في قصيدة
ما ؟ وهي ستظل غريبة ، ضائعة في الغرف والطرقات ، ستظل اشباحا هائمة
تحت الثلج والمطر ؟ أم هي واجدة خلاصها هنا حروفا فوق الوراق ؟ من
يبدري !

انني أكاد أتحمس دفء الايدي وبرودة الزجاج . واتذكر برقاً في عيني

امراة مرهقة عائدة من عطها . ولا أمسك بشيء . وأعود الى اوراقي العتيقة فأجدها يابسة كاوراق الخريف الميتة . فأ تأملها مكتئبا متذكرا .. وسريعا ماتزدهم من حولي الوجوه ، وتلح علي . غير ان وجهها ما ، وجهها اتذكره جيدا ، يتسم لي ، عن بعد ، معاتبا متسائلا . فلا أملك الا ان أطرق برأسي متفكرا . أهذا كل ماتبقى ؟ اهذه الورقة الهشة البالية هي كل ماامتلك مما كان لي ؟ اهي الذكرى وحدها ؟ لكنني لم أكن لافكر بشيء من هذا حين كتبت هذه الصفحات . كنت أجد كل شيء حيا نابضا .

واسأل نفسي ، احيانا ، في ساعة ضيق وتذكر : أين هي الان هذه الوجوه بقلتها وضحكها ؟ اهي حية .. ميتة ؟ أتذكرني كما اتذكرها ؟ ربما . ألم تهتف بي صديقة ، التقيتها صدفة بعد سبعة عشر عاما في صبيحة احد ، في الشارع وقريبا من المصطبة حيث جلسنا ولما نزل ، آنذاك ، صبية من صبايا الحي المرحات المتزهات :

— آ .. يتهوفن !

وبعد .. هذا كل ما استطيع ان اقوله توطئة لهذه الكتابات . لكن ما يهمني قبل أي شيء آخر هو انني لم أسيء الى أحد ممن تذكرتهم هنا . ولقد كنت ، في كل ما قلته هنا ، احاول أن استرجع الاحداث كما عشتها ساعتها . فإذا ما بدا لاحدهم أنني ارتكبت هذا الخطأ او غيره .. فأنتني لم افعله تعمد .. انما هو المرح والشباب واندفاع الطالب الاجنبي حرا في عاصمة هائلة . ولا أريد أن ابرر او اتهرب . فالخطأ يظل خطأ . ثم انني لا ادري أنثر .. إذا ام اتركه هاجما في غبار اوراقي مثلما ظل مهملأ اكثر من عشر سنين من قبل ؟

حسب الشيخ جعفر

١٧ / ٨ / ١٩٨٥

بغداد

خطوات فوق الثلوج

ها أنا أغادر الطائرة • من حولي يتبرقع العراء الرمادي ببقع بيض • هوذا
الثلج الروسي الشهير • سمعت عنه كثيرا ، وقرأت كثيرا • أنني اتذكر السهل
الثلجي تحت السماء الليلية العاصفة • تقطعه نائاشا المرتعشة كالعشبة
الناحلة • كما يصفها غوركي في الصفحات الاولى من الام • لسوف اتذكرها
مرارا كلما وجدتني في العراء الابيض ، تساقط من فوقي الثلوج ، أو متطلعا
عبر نافذة قطار الى الغابات والسهوب الشتوية • ها أنا في مطار موسكو •
عن قرب تلوح الغابات القائمة في عتمة آخر النهار • وانه لنهار قصير • وكنت
في مهب الرياح الخريفية الباردة • أني لاتلمس قبعتي خوفا من ان تطير بها
الريح • وهي تلذع وجهي لدعا لاعهد لي به • وها هي تنسلل تحت معطفي
الخريفي •

كانت أضواء المطار تتلامع ، والناس يتسارعون متدثرين بمعاطف ثقيلة ،
مغطين رؤوسهم بالشابكا الروسية : من الصوف أو من الفراء واللباد • لأدري
كيف لقيتني اتصافح مع شاب سوفيتي مرح • كان ينتظرني مكلفا من قبل

جامعة موسكو ، ليوصلني الى حيث هيء لي ان اسكن عامي الاول في منزل الكلية التحضيرية .

كان سائق التكسي يدخن لفائف نصفها فارغ من التبغ . هي ذي سجاائر الطلبة كما عرفت فيما بعد .. هكذا تدعى في منازل الطلبة الجماعية لخصها . وفي الطريق الطويل كنت احدث بالعملة الرمادية المبكرة . وعن جانبي الطريق اتبين احرش التوب الخضراء الداكنة . وكانت الشاحنات تتوالى بسرعة ، يقودها رجال أو نساء حمر الوجوه ملفعات بأغطية الرأس الشهباء والمعاطف المقلدة . كانت حركة البناء في أوجها آنذاك . وتراءت أبراج المصانع العالية أولا . ثم اقتربنا من المنازل الحمراء القائمة الهائلة . وكانت متشابهة تقريبا . وابصرت بخنادق السكك والاتفاق .. والقناطر الحجرية . كنت في موسكو . توقفت السيارة عند مبنى قريميدي . كان أحمر قاتما . وكان الشجر عاريا نحىلا على جانبي الطريق .. والثلج يتساقط خفيفا . وكان أول ثلج . بعد دقائق كنت في غرفتي محملا بالاعطية والشراشف والمنشفة .. وبحقيتي السفرية الكبيرة . لا اذكر كيف وصلت غرفتي بهذا الحمل كله . كنت ذاها لا فيما لا اعرف . كل ما اذكر هو رائحة الدهان الغريبة .. دهان الارضية الخشبية ، أرضية الحجرات والممر تطلّى به في انتظار الشتاء .

كانت الكومندان امرأة ناحلة يابسة . لم اتسلم فراشي منها .. بل تلقفته طائرا . لم اسأل يومذاك عن السر في هذا اللقاء الحافل . انما ادركت بعدئذ انها تشكو من ضيق المنزل بالطلبة ، وهامهم يلقيون على اكتافها بوافد آخر . كنت مفعم النفس برائحة الدهان الغريبة وشعوري اني في موسكو .. ولقد أمسى وجودي فيها ، بعد هرولة شهرين بين دائرتي البعثات والسفر ، حقيقة ألتمسها بيدي أعطية ومنشفة وثلجا ذائبا على المعطف .

وضعت حقيتي تحت السرير ، والقيت بالاعطية فوقه . وجلست دون

ان ازرع معطني •• منكفئا ، مغلقا وجهي بيدي • وكنت في ذهول غريب •
لا اذكر كم مر من الوقت . وأنا لا افكر بأي شيء • كنت ذاهلا عن كل شيء •
كنت بين طلبة عراقيين •• صافحوني وغادروا ، وقد ادرکوا حالتي • ثم جاءني
طالب منهم بقنية بيضاء احمر قائلًا لي •

— هذا أفضل مايمكن أن تفعله الان •

جلست الى المائدة الخشبية العارية الدائرية ، وأخذنا نشرب • بعد ساعة
ارتدیت بيجامتي ، وتدنثرت بالاغطية ، وغرقت في النوم • ولم افق الا فجرا •
تلك كانت أول ليلة في موسكو •

الصباح كان شيئًا آخر • بي لهفة لان أرى كل شيء • غير انني لم أكن
حرا • علي اولا ان التحق بالكلية التحضيرية حيث تدرس اللغة الروسية • وها
أنا بين طلبة عرب وافارقة وصينيين وهنود والبانين ومن اميركا اللاتينية •
فانضمت لمجموعة من الطلبة العراقيين • وكان معنا طالب من اليمن هو
عبد الله • وكان عددنا ستة كما اذكر • وكنا اشبه بعابري طريق يلتقون في
محطة • فمع انتهاء السنة الدراسية ستنفرك في الجامعات والمعاهد •

كان غازي يسبقني بعام • وكان اول المرحبين بي • وكنت اراه لاول
مرة • كان زميلا لآخي صاحب • وكان يكتب القصة • وكنت انشر قصائدي
الاولى في الصحافة العراقية • وكنت اتلقى من أخي صاحب رسالة كل شهر
وحزمة من الجرائد والمجلات • وكنت أزور الجامعة احيانا ، وأمر على غازي
في غرفته في الزونا • وكان عبد الله ساخرا ، بارعا في الجدال •

كنا نهبط ، ساعة الغداء ، الى المطعم •• وكان في الطابق الارضي من
بناية الكلية • كل شيء كان جديدا : الوجوه ، ووقوف في الصف منتظرا دوري
لاحمل طعامي • وكنت اختار وجبتي من بين اطعمة متنوعة • وكان الحساء
أولا •• حساء الخارجو الثقيل الشهي أو السلانكا ، وتعد من السمك أو اللحم

والتوابل • أحيانا كنا نجد الفلفل البلغاري المخلل الاحمر •

كنت قد تسلمت المبلغ المخصص لثياب الشتاء • فتزودت بالمعطف الروسي الثقيل والشابكا • وركبت المترو • ورأيت المحطات اشبه بالمتاحف • • باعمدها المرمرية وجدارياتها ونقوشها • وكان الخط الاول بالنسبة لي متدا بين محطة الجامعة واخوتي رباد القابعة تحت فندق موسكو كما يلوح لي • من هنا كنت آخذ طريقي صوب الكوم : مخزن العاصمة الكبير الاول •

ومرست بعد شهر تقريبا • فدخلت المستشفى • كانت الردهة مزدحمة فنصبوا لي سريرا في ركن من البهو حيث تتناثر موائد الطعام • وكانت الردهة الخاصة بالنساء عند الجانب الاخر من البهو • وكنت اقرأ طوال الوقت وارجع كتاب اللغة الروسية • وذات مساء رأيت وافدة جديدة تدخل • كان شعرها الداكن كثيفا مشوشا تقريبا • وكانت جميلة ، قوية الملامح • وعيناها تسطعان • ورأيتها بتسم لي • وسريعا ما كنا نتحدث • وكانت مختصة باللغة الانكليزية • وكنا معا طوال الوقت تقريبا • وكنت أجد كل يوم شيئا فوق طاولتي : مجلة رياضية ، شوكولا^١ ، برتقالة ، تفاحة • • من ترى يضع هذه الهدايا فوق طاولتي ؟ أهى صاحبتى سوسان ؟ كان هذا اسمها • كانت امها ألمانية وأبوها روسيا • وكانت متزوجة • قالت مازحة مرة :

— أحب أن ارقص معك ؟

— أين ؟

— هذا ماينبغي أن تعرفه انت •

— في غرفة التدخين اذن •

— طيب • انتظري هناك في الثانية عشرة من الليل •

كان هذا اول لقاء في رحلتي • كانت الاريكة القاسية فراشنا • وفي الليلة

الثانية كنا نفرش بطانية احملها معي • وفي المستشفى التقيت بفالا الممرضة

وكانت في التاسعة عشرة من عمرها • وحين خرجت كنت البقي بها مساء كل سبت في محطة الجامعة • وكان علي ان اتعلم الرقص في مدرسة خاصة في الجامعة • فالتحقت بها لاتردد ثلاث مرات كل اسبوع وطوال ستة اشهر • • وكانت امسيات ممتعة • وفي الجامعة ، في القاعة المرمية الضيعة كانت تقام حفلات الرقص •

في البداية يتموج التانغو بطيئا دافئا • ويندور الفالس بانحدار وتماوج • ومع انتصاف الليل ينوح الجاز احيانا • كلما رأيتني في الحشد الهائل متمايلا مع ايقاع الجاز النائح • • اتصورني في جناز تاريخي كبير • جناز جيل يجد نفسه فوق شفا هاوية • وكانت فرقة الجاز من الطلبة الافارقة • وكان التانغو يحملني كامواج البحر المقر تحت ريح رخاء • والفالس يدور باجنحته الذهبية ، وسط غيم وضيء خافت ، الى حدائق القرن التاسع عشر وقصوره • وكنت اصحب فالالا معي احيانا •

اني اتذكرها منتظرة فوق مصطبة المحطة • • وموجات الريح الدافئة المكيفة تتلاعب بخصلات شعرها الاحمر الداكن • كنت اراها في معطفا الازرق ، شادة رأسها بمنديل وردي ، وبسمتها تتلامع فوق شفيتها • • نالنا ماكننا ندخل السينما • وكان مطعم باكو ملتقى اول الشهر • وكنا نقضي ايامنا الاحد في غرفتها • وكانت تريد أن تتزوج • وكنت أؤكد انني لن اتمج غيرها • • انما بعد ستة اعوام ، بعد تخرجي • كنت اعيش حياة حرة لا يعرفها الا طالب اجنبي في عاصمة هائلة •

وكان معي في المنزل الاول عزيز • وموسى • غالبا ماكننا نتجول نحن الثلاثة كلما وجدنا فرصة • وكنا نزور صديقاتنا في شققهن • وكان عبد الله لا يفتأ مجادلا في السياسة والادب • وكثيرا ايفل ملتقا بغطائه ساعات من النهار • وكان يدعو تناومه هذا احتجاجا سلبيا على الحياة • • وكنت اقصى عليه

اخباري مع فاللا • وكان يصغي دوننا ملل • وكان يرى تعلقي بها شيئا لامعني
له • وكنت غارقا آنذاك في لون عينيها العسلي ، وبسمتها الندية الملتعة •
وفي نزهاتنا الليلية فوق الثلوج •

وكانت الثلوج تذوب ، والربيع يلوح هزيلا في البراعم والخضرة الناحلة
الندية • وكان لابد من ان افترق عن فاللا • وقد وجدت بغيتها في طبيب
سيتزوجها قريبا • فافترقنا في زقاق ضيق مبلل بالمطر • ولم يبق في يدي منها
غير بطاقة الباص الوردية ، فعصرتها والقيت بها الى الريح • وفي غرفتي كنت
احتفظ بهديتها لي في ليلة رأس السنة : معجم اللغة الروسية • وعدت وحيدا ،
موحشا اتجول في محطات المترو • وكانت الخضرة تنفجر في كل مكان • وكان
قلبي مقفرا ، مثقلا بالسحب المظلمة •

غير أنه الصيف • والفتيات يملأن الارصفة والحدائق • وقريبا سيقبلنا
القطار جنوبا ، لنقضي العطلة في مخيم الجامعة القائم قريبا من البحر الاسود
في القرم • ولنعمل في قطف الفاكهة • وكان المخيم متجمعا في بقعة خضراء بين
التلال وبساتين الفاكهة • وكنا تنهض مبكرين في الرابعة صباحا • فركب
السيارات صوب المزارع • وطوال الطريق الريفي كان الطلبة ينهون ويمزحون
وكنا نقطف الكرز والخوخ والمشمش • وبعد ان تفرغ تحملنا السيارات
لنستحم في البحر أو في البحيرات المتناثرة بين التلال • واوشكت مرة أن اغرق
في البحيرة • ابتعدت عن الشاطيء لاصل نقطة نائية • وقريبا مني كانت تسبح
مجموعة من الفتيات • وكن من الرياضيات كما لاح علي • فحاولت ان اتبعهن •
وكن قد اوغلن بعيدا • وفجأة احسست بتخشب في ساقي • فلم اعد استطيع
حراكا لها • فانقلبت على ظهري • تلك هي وسيلتي الوحيدة لاستريح • وطاف
بذهني انني سأغرق • وكنت بعيدا بعدا هائلا عن الشاطيء • وما كنت اتبين
منه الا اشباح اشجار • وكنت ادفع بجدي في بطناء باتجاه الشاطيء • وكنت

تقدم ببطء • غير انني استعدت بعض قواي • وانحسر التشنج عن ساقي •
فاقتربت من الشاطئ • وكانوا يلوحون لي ويصفقون •

وفي الليل كنا نرقص • وبعد الحفل تنزه • الطالبات في الطرق الزراعية
اليضاء •• او مع الصبايا القرويات • وغالبا ما نقضي الظهيرة على بلاج
البحر ، تحت الشمس •• فوق الرمال الحمراء •

وها أنا ثانية في موسكو • وكان صيفها الاخضر القصير يوشك أن ينهزم •
وكنت في انتظار عنواني الجديد •• متسكعا مع هذه الفتاة أو تلك من صبايا
الحي •• في الحدائق العامة الهائلة ، وفوق تلال لينين قبالة الملعب • وفي الهواء
الليلي العابق أحس برائحة الخريف • وكانت الاوراق المتساقطة تتكوم تحت
الاشجار • وكانت الخضرة تصطبغ بالصفرة والحمرة • وكان اللون الاحمر
الداكن هو الغالب في الغابات • احيانا كنا تجول في بارك غوركي او
وكولنكي •• أو نأخذ قاربا من المرسى فنقوم بجولة في النهر • وكان الترام
يمر تحت النافذة في منتصف الليل برينه المعدني التحيل • وكانت في وداعي
تونيا • كانت هي الفتاة الوحيدة بين المناوبات • كانت جادة جميلة • طالما
حاول الطلبة اقامة علاقة ما معها • ولم تكن لتتيح مجالا لاي منهم • ثلاث
مرات كل اسبوع كانت تجيء الى المنزل •• لتأخذ مجلسها عند مكتب المناوبة
في المدخل : ترد على التلفون وتشرف على حركة المنزل • اني لا تذكر تونيا
الشاحبة بعينها الزرقاوين وقوامها شبه المتليء وساقها الرائعتين • وبوجهها
الجميل الحازم كانت تصد اية محاولة للتقرب منها • اني لا تذكرها جالسة
عند المكتب ، منصرفه لحياكتها أو قراءتها •• لا تهزها موسيقى الرقص القادمة
من الصالة مساء كل سبت •

كانت تونيا في وداعي • وكنت انتظر التاكسي ليقلني صوب حي آخر ،
حيث هيء لي ان اقطن غرفة في منزل منه • كان حيا بعيدا قريبا من ضواحي
العاصمة •• في اطرافها الجديدة النائية •

ثم اتحلت جنوبا لاقضي شهرا عند البحر الاسود . وحين رجعت كان
هو الفندق خاليا من المتهمى . واعيد فتحه ، ثانية ، في الجانب الاخر من
الفندق . تحت المطعم . وكان جديدا بقيته ونادته . وسألت عن نينا فما
وجدت سيلا يوصلني اليها . وافقدنا البهو ورحابنه .

كنت أمر على الجامعة فالتقي بغازي واصدقائي من اليمن : عمر وعبد الله
وأبي بكر وعبد الكريم . اني لاتذكر عبد الكريم وابتمته الطيبة الابدية .
وكان عمر مبتلى ، آنذاك ، بالحائط الاصم . كلما أقمت علاقة مع فتاة واجهك
الحائط نفسه : أن تتزوجها أو تفرق عنها . وكان على عمر أن يتزوج صديقه
الشقراء السمينة أو يتعد . وكانت تطارده وتنقض عليه أينما ولى وجهه .
كانو جميعا في غرفتي . كان محمد مرحا كعادته ، وعبد الله هازئا بالحياة .
وكان ابو بكر هادئا ، أخذاسة الفلاسفة . وكانت الشقراء العاشقة متورمة
العينين جراء بكائها الطويل . وكنت ارى دموعها تتساقط كقطرات المطر
الكبيرة .

كان عزيز يزورني ، احيانا ، مصطحبا صديقه الطيبة تمارا . وكان موسى
في مدينة اخرى . فلم نعد نلتقي الا في العطلات .

وشربت ، مرة ، اكثر مما اعتدت . وكان في غرفتي اصدقائي من اليمن .
فتركتمهم وخرجت . كنت مسرعا ناحية السينما لالتقي بزميلتي تمارا البلطيقية
وصاحبة لها . وفي الصالة المظلمة أحسست بألم ممزق فأسرعت لاتقيا في
المغاسل . أكانت مغاسل ؟ لادري . اذكر انني سقطت على الارض . لكن
أين ؟ اتذكر : ماء في ثياب بيض كالمرضات أو عاملات البوفيت يحطن بي
ويلغطن . اتذكر ظلمة خافتة وأشباحا . وكنت أحس ببرودة البلاط . أحس
بالارض الرطبة المظلمة . أهوطين ؟ ام هي ارض الطفولة الرطبة ، والطفل عند
حافة المستنقع ؟

أغنية الفتاة الرصينة

كانت اشجار الغبراء حانية على المصاطب • وكانت اوراقها متلامعة
بالرذاذ الناعم • والعناقيد الحمراء كالجمرات الخاية • كانت الاشجار واطئة
آنذاك • كنت اراها لأول مرة ، وقد توقف التاكسي عند منزل بست طوابق ،
حيث قدر لي أن اعيش خمس سنين • منزلنا ٩ ر ١١ على جانب من شارع
دوبرولوبوف المتصالب مع شارع روستافيلي • كان شارعنا اشبه بالحديقة
العامة • كان ملتقى صبايا الحي صيفا • عبر روستافيلي يقع مخزن الحي
الكبير •• وعند انتهائه بعد موقف باص تقوم سينما أريول ومقهى الحي ••
وكان مقفرا طوال الوقت تقريبا ، ربما لانزوائه في الشارع الخلفي • وعلى
جانبى دوبرولوبوف مطعمان : الإحدهما جوار منزلنا ، والاخر عبر الشارع •
كان النهار غائما حينما وصلت • كانت الريح محملة برائحة المطر ، مائلة
بالرذاذ الناعم •• والاشجار رطبة متخافقة • السحب ثقيلة ، ونحن في أخريات
الصيف • كانت الساعة الجادية عشرة تقريبا • وكان يوما ذا نكهة خاصة وطعم

خفي • كان اشبه ، في تشبهه بالذاكرة ، باول يوم وصلت فيه الى هذه المدينة
لاول مرة • كان الرذاذ يصيب وجهي وشعري • وكنا قد اجتزنا مسافة بعيدة
منذ جريو ميشكينسكايا الخامسة حتى دميترسكوي شوسيه •

دفعت بابا خشبيا ثقيلًا ، ودخلت حاملا حوائجي • استقبلتني المناوبة
الكهلة الطيبة : ليدا ايفانوفنا • وقادتني الى مكتب الكومندان نيكولاي
اندربيج • كان رجلا خشنا ، صارما • وكان الطلبة يشيعون عنه انه قد عمل
مشرفا على معسكر اعتقال •• كما سمعت فيما بعد •

أعطيت مفتاحا • ولم يقذف غطائي وشراشفي ، هذه المرة ، في وجهي
كانت المناوبة الطيبة معي ، أخذت بيدي الى غرفتي في الطابق الخامس كان رقم
غرفتي ٢٠٨ • كنت مزودا ببطائنتين زرقاوين وشراشف ناصعة ومنشفة •
كانت النافذة عريضة تطل على فناء رحب وزقاق يتفرع من الشارع • في جانب
من الغرفة سرير مريح تنطرح عنده سجادة صغيرة • وفي الركن منها مقعد
ومكتب ثقيل • وتوسطها مائدة دائرية خشبية وكريسيان • زالى جانبي الباب
خزانتان مثبتتان بالحائط •• كانت الاولى منهما لثيابي • والاخرى لعدة
الطبخ • في قاعها سأخزن البطاطا : وجبة الطلبة الشائعة • وعلى رف منها
وجدت وعاء الشاي الالمنيومي وأنية الطعام والاقداح والقدر • وعلى رفها
العالي سأضع السكر وعلب الشاي الصغيرة والمعلبات • ما أنا ، هنا بزائر أو
سائح • ان اقامتي لطويلة ، والليالي باردة مديدة • وبين حين وآخر ينبغي ان
اتناول طعامي في غرفتي : وجبة لا تكلفني الا قليلا •• مادمت مصرا على ارتياد
السينما والمسرح •• وتضيء الوقت بين فترة واخرى في المقهى أو المطعم
الفاخر • وكنت مصطحبا موقدا كهربائيا صغيرا • فوق هذا الموقد يسكنني تدفئة
الشاي كلما برد • وما اشد احتياجي لقدح مترع بالشاي الحار وأنا اقرأ حتى
ساعة متأخرة من الليل •

في الطابق مطبخان : في كل جناح من المر غرفة مزودة بصفين من طباطات غازية • والتدفئة جيدة في الغرف والمر • وكانت تحلني الى المعهد واسطنا نقل : الحافلة الكهربائية رقم ٣ والباص ١٨ • كان معهد غوركي الادبي ، حيث ادرس ، في مركز المدينة • وكان خاصا بالناشئة من الادباء • وكانت أقرب محطة مترو في طريقنا ، آنذاك ، هي محطة نوفو سلوبو دسكايا • كانت تقع في المنتصف من شارع جيخوف •

كنا ترك الحافلة قرب ساحة بوشكين ، حيث ينتصب تمثال الشاعر الروسي • ونعبر شارع غوركي • نحدرين في الجانب الايمن من بولفار تريفسكوي • وبعد خطوات نمر بسياج المعهد الحديدي ، وحديقته القديمة بأشجارها العالية • كان معهدنا ، يوما ما ، قصرا تمتلكه أسرة الكاتب الثوري كيرتن • • تمثاله ، اليوم ، في القلب من الحديقة العتيقة • وكان الخريف أحمر ذلك العام •

كانت السماء ملتفة بالسحب المتراكمة ، والهواء باردا نديا • وكنت أعود الى مسكني مرهقا بعد يوم دراسي طويل • والنساء في الشوارع والحافلات • والفتيات يضحكن تحت الرذاذ الناعم • وترى امرأة ما متموجة في معطفها الخفيفي ، وترى الامسية غائمة ممطرة • وكنت أذهب الى السينما وحيدا أو مع فتاة من الحي التيقتها صدفة • والليل يهبط مبكرا فوق المدينة الهائلة • ومن بعيد تتراءى النجوم ياقوتية فوق أبراجها السامقة • وطالبات المعهد في غرفهن في الطابق الثالث • فكنت أمر على زميلتي ميرا الشاعرة الشرسية المسلمة • • تتجرع الشاي وتناول وجبة بسيطة : شرائح الخبز مع الزبدة أو الجبن • وفي الصباح كنت انتظر الحافلة •

— ممكن أن اجلس هنا ؟

التفت فرأيتها : تيانا • طالبة من الكورس ، وجدت الكرسي الثاني خاليا

الى جوارى • وكان الاستاذ قد بدأ محاضراته •

عندما انتهت المحاضرة أسرع الطلبة الى الممر يلفطون أو يدخنون • كنت واقفا مع تيانا أتحدث عن جانب من المحاضرة • كان ثوبها الأحمر القاتم يلف قوامها البديع • وكان شعرها مسرحا ، منحدرًا فوق كتفيها • في زرفة عينيها العميقة ظلمة بعيدة : طيف كأبة أو توحيد • لون وجهها أقرب الى السمرة الخفيفة • لكن جيدها الجميل ابيض ناصع ، يوحى بلون جسدها كله • كنا منشغلين في حديثنا • وكنت أريد ان ادخن فخطونا صوب الباب • وها نحن نسمع الجرس يدق • فرجعنا ضاحكين •

كنت أتطلع معجبا باصابعها الشاحبة المعتدلة ، واهدابها الطويلة ، واستدارة وجهها الجميلة • وكان وجهها قد اجتذبنى منذ رأيته لأول مرة • ورأيته تبدأ حوارا معي على قصاصة ورق :

— انت شاعر ؟

— أحاول الشعر • وانت ؟

— احاول القصة •

— من اية مدينة انت ؟

— من خاركوف •

في الساعة الثانية ، في فرصة الغداء كنا نقف معا منتظرين دورنا في بوفيت المعهد • لم تشأ ان تشرب الا قدحا صغيرا من البيرة • وكنت افكر : هل ادعوها اليوم الى السينما ؟ أم اسألها ان تريني بعضا من قصصها أمام كوب شاي في غرفتها ؟

هي ذي جالسة الى جوارى عند منضدة الدرس • ولا اظنها ستغير مكانها هذا غدا أو بعد غد • وكنا في الاربعاء • سأجد فرصة لادعوها ليلة الاحد سنقضي الامسية في مطعم أو مقهى • وتذكرت مقهى أرفا في الزقاق القديم

حيث لما نزل أنفاس القرن التاسع عشر تدد في هذا المسرح او المقهى • انني
لاحب هذه الطرقات المنحدرة عن جانبي شارع غوركي • هنا مقهى المثلين
الصغير الضيق كغرفة ، والكنايس الصغيرة ، والمسارح •

حين أُنْتَهت آخر محاضرة كانت تتيانا بين زميلاتها • كنت أود ان نغادر
معا الى المنزل • وها هي في حديث مع الطالبات • وأنا في الممر • ربما كن
يزمعن الذهاب الى المعرض الفرنسي ، فما زال قائما في بارك سوكولنكي •
فلقد سمعت احداهن تذكره • وهبطت السلم لآخذ معظي من المشجب •
وسمعت ميلا تهتف بي أن انتظر لامضي معهن الى المعرض • ثم توقفنا في
ساحة المعهد • وكن أربع فتيات • وكانت تتيانا في معظفها الخريفي الجلدي
الايض • وكان منفثا عن عراه • وكانت بتسم لي تحت الرذاذ الناعم • قالت
ميرا :

— الا تريد أن تأتي معنا ؟

— بل اريد •

— فلماذا ابتعدت اذن ؟

واضافت ملقية على تتيانا نظرة باسمة :

— أم تريد ان تنفرد بتتيانا وحدك ؟

قالت تتيانا رائية الي بارتياح :

— لعله ذاهب الى مكان آخر ياميرا •

— لست ذاهبا الى أيما مكان • سأمضي معكن •

فانحدرنا صوب شارع غوركي • قاصدين محطة مايكوفسكي • وترجلنا
في آخر محطة مترو ، محطة سوكولنكي • وكنت بين هذا السرب من الطالبات •
وتجولنا طويلا في المعرض • وتوقفنا أمام صور لاراغون والوار ومالرو
مرسومة فوق قبة • ثم خرجنا الى الحديقة العامة الهائلة • وهي جزء من الغابة

نفسها • هنا ، قديما كان يقام سباق الخيل • كنا نمر باحواض الزهور المتنوعة
والماشي بين الاشجار • وحين احسنا بالجوع وقفنا عند بائعة الفطائر
الحارة اللذيذة • كنا في اخريات الصيف ، والخضرة المبتلة أخذة بالتلون
الخريفي • في هذا الوقت من العام تتداخل أذيال الصيف بمقدم الخريف •
الزهور في تفتح • غير أنك تحس في شذاها والوانها بكأبة ما ، كأبة الوداع
ربما • وكانت السماء مدلهمة بالسحب • والمطر يتساقط ناعما بين حين وآخر •
وتحس بلذعة برد في الهواء •

استيقظت • بكرا • لم اشأ ان اركب الحافلة الاولى • وتركت الثانية تمر •
كنت انتظرها • وجاءت تيانا • رأيت معطفها المطري الابيض ، وقد انمطت
الى الشارع العام • كانت وحدها • حيتني بلطف ودفع ، وفي صوتها رنة
سرور • في زرقة عينيها الصباحية الندية ، في تورد وجهها رأيت فرحا لم
تستطع اخفائه • واقتطعت من صندوق الحافلة تذكرتين وتبعتهما لاجلس
بجانبا • طوال الطريق كانت مقبلة نحوي تتحدث ، ملتفتة الي بوجهها النضر ،
في طراوة الصباح الناعمة • احيانا كان شعرها الكثيف المنحدر حول وجهها
يلامس وجهي • وكانت تتقرب مني بوجهها باسمة • وفي عينيها فرح انشوي
عميق • في مثل هذه الرحلة ، في الحافلة ، مع فتاة مثلها لاتحس بالطريق
الطويل •

ونزلنا عند بداية شارع جيخوف • في الجانب الاخر تقوم كنيسة بيضاء
صغيرة ، برجها نازل وسياجها مغلق • هي ذي بقايا دير قديم • كان مبنى
متهدما ، وقد أزيح ، هنا تشيد سينما روسيا • وصعدنا رصيف اذفستيا في
جانب من ساحة بوشكين • واجتزنا شارع غوركي • كان البولفار مجللا
بالاشجار العالية القديمة : اشجار الحور والدلب والبلوط والصنوبر •

ودخلنا المنر الى المعهد غير مسرعين • • فما زال لدينا وقت • كانت اشجار

الحديقة تقطر ماء ، والسماء منذرة بمطر • ودعوتها لتفطر معي في بوفيت
المعهد • فشكرتني قائلة انها تناولت افطارها في المنزل ، لكنها ستشرب معي
فنجان قهوة • وكنت اسألها أي مقهى وجدته اقرب الى نفسها •

— هل تعلم ؟ انني أظن انك تعرف موسكو افضل مني •

— لكنك زرتها من قبل •

— ليس كثيرا • اتعلم ؟ انني لم اركب المترو منذ مجيئي الا ثلاث

مرات • وكانت المرة الاخيرة معكم بالامس •

هل ترددت على المسرح ؟

— مرة واحدة مع ميرا •

قلت متأملا عينيها الجميلتين :

— أكون سعيدا لو ذهبنا معا الى المسرح •

— أنا احب المسرح •

— هل شاهدت عرض « منظر من فوق الجسر » ؟

— هل تعلم ؟ كنت شاهدها مع ميرا • • وهي اول مرة كما قلت • كنت

متشوقة لمشاهدها وأنا في خاركوف •

— والنورس ؟ هناك اخراج جديد لها •

— لكنها لم تبدأ بعد •

— أظن انها ستبدأ قريبا • فأذا كنت راغبة بمشاهدها سأحصل لنا على

تذكرتين • سيكون عرضا شائقا •

— سأكون ممتنة لك •

— حين رأيتك لأول مرة حسبتك من موسكو •

— ولماذا ؟

— لا ادري • مجرد تصور •

— أنا كنت اتصورك من القفاس • ماكنت أظن أن طالبا اجنيا سيدرس هنا •• في معهدنا هذا •

— لكنك مصيبة تقريبا في تصورك • فعددنا ، نحن الاجانب ، في هذه الكورسات الخمسة كلها لايزيد على خمسة •• وثلاثة منا من منغوليا •
كانت تضحك في هدوء • وهي بطبعها ، كما يلوح لي ، جادة وزصينة •
لكنها عذبة • كانت سمة وجهها الخفيفة ، وكأبة عينيها النائية ، وهذا الشحوب في اليدين •• وياض العنق الناصع يوحي بانطوائها على توق رائع أصيل ، ومودة صادقة عميقة •

وكنا معا في عودتنا الى المنزل •• في الحافلة ٣ في زحمة آخر النهار • كنا واقفين في آخر الحافلة • وكنت متملئا فرحا بوجهها وقامتها البديعة • كان شعرها داكنا ضاربا الى الحمرة • كنت اشمه عبقا مندى كلما افتتح الباب ، واندفعت هبة من ريح محملة ببقايا مطر •• فدفعته نحوي • حين جاءنا صوت السائق •• قائلا في مكبره الصغير : زليوني دوم •• أي « البيت الاخضر » دهشنا معا • لم نكن ندرى أننا وصلنا • فما كنا متبهرين الى الطريق •

— تيانا •• ألدبك وقت للذهاب الى السينما الليلة ؟

— الى السينما ؟ ممكن • ولو أنني مرهقة • انما في الدور الاخير من فضلك • هل تعلم ان وجود سينما بهذا القرب من المنزل ميزة عظيمة ؟

قلت محاكيا طريقتها في التساؤل :

— هل تسليمين أن الفلم فرنسي ؟

ضحكت قائلة ، وهي تلفظ الكلمة الاولى ممتدة عميقة :

— من فضلك لا تقلدني •

— أين تودين أن انتظرك ؟ أم امر عليك في غرفتك ؟

— كما تشاء •• لافرق عندي •

- سأمر عليك اذن •
- ستجدني منتظرة •
- لكنني لأعرف رقم غرفتك •
- أنا اسكن في الغرفة ٧٣ •

وتوقف المصعد في الطابق الثالث • وفي الفسحة بين الممرين الطويلين كانت تتيانا تلوح بيدها لي • ولم أصعد الى الطابق الخامس • عدت هابطا الى الطابق الارضي • كنت ناويا شراء تذكرتين • من يدري ؟ فقد لأجد تذاكر بعد ساعتين او ثلاث • وحينما عدت كان الليل يهبط غائما والساء تبتم لي • وفي التاسعة والنصف هبطت لاطرق بابها • • مازال لدينا وقت • وفي السيمما سنشرب زجاجة برجوم • • أو أي ماء معدني آخر • وتتصفح المجلات • • أو نهبط الى القبو حيث الرمي ، لنجرب مهارتنا في صيد أرانب أو ثعالب من الكرتون ببنادق صغيرة •

لم تكن وحدها • كانت تشاركها الغرفة زميلة لها • وفي ليلة الاحد كنا في مقهى آرفا • تركنا معطفينا في غرفة المشجب • وأعطينت رقما واحدا لهما • وجلسنا عند مائدة خالية • أوصيت على زجاجة نبيذ بلغاري وعشاء • كان مقهى ضيقا غير انه جميل • وبعد نصف ساعة حل عند مائدتنا اثنان : فتى وصديقه • كانا منشغلين في حوار بينهما • ثم اخذا تتحدث معهما أحاديث عابرة قصيرة • كان لفظ الجالسين يتعالى همهمات في الصالة الضيقة • لم تعد الاصوات منخفضة • انها ترتفع مع انحسار الخمرة في القناني •

— بعد المقهى كنا تمشي غير مسرعين في الطرق الخافته المبتله • وكانت وجهتنا موقف الحافلة • لم يكن الشارع بعيدا • كان هذا شارع بوشكين القديم الضيق • وكنا نخطو متقاربين • كانت المباني الجرانيتية حمراء قاتمة ، واليامم لائذا بالافاريز • وخطى العابرين تخفق متباعدة • وكانت المخازن

مقفلة ، والمصاييح تأتلق في فوانيسها الكبيرة •

وفي المصعد الى طابقها •• قلت :

— لم تتجاوز الساعة الحادية عشرة الا قليلا •

— اكنت تود ان تتأخر اكثر ؟

— معك انت ؟ أود هذا كثيرا •

كنا في الفسحة عند غرفة التلفزيون • وكنت استطيع ان ادعوها الى غرفتي

لتناول الشاي • لكنني سأحس بالوحشة حين تغادر • فما كنت أريد ، مع

رصاصتها هذه ، لان ألح على ابقائها معي حتى ساعة متأخرة • قلت :

— سأوصلك الى غرفتك •

— يمكنك الجلوس اذا كانت صاحبتني يقظى •

كان الباب موصدا • هذا يعني أن صاحبتها لم تعد من جولتها بعد • ولو:

التفتنا الى اللوحة الصغيرة حيث تعلق المفاتيح في الطابق الارضي لوجدنا

مفتاح الغرفة هناك • قالت :

— سأتي بالمفتاح •

— ابقى انت • سأجيء به •

حين عدت كانت عند بابها في حديث مع كاتبة من الكورسات العالية ••

ملقية معطفها الخفيف على ذراعها • وفي غرفتها كانت تقول :

— سأعد لنا شاي • اتم معشر الشرقيين مولعون مثلنا نحن الروس

بالشاي • لكن اتشربونه خفيفا كما اعتدنا نحن ؟

— عندنا يفضلونه قويا داكنا •

— أذن سأعده هكذا •

— شكرا • أنا احبه خفيفا •

وحين عدنا من المسرح دعوتها الى غرفتي لتعشى • لكنها أرادت ان تتعشى

في غرفتها • وكانت صاحبته هناك • • ولم تكن مرتاحة لصداقتي مع تيانا •
ولعلها تراها علاقة عابرة • لم تشأ ان تبقى معنا • فمضت الى غرفة ثانية •

— هل تعلم ؟ كتبت الى صديقتي في خاركوف عنك •

— أهي طالبة ايضا ؟

— كلا • انها تعمل في مكتبة •

— وجميلة مثلك ؟

— من فضلك • • لاتجامل •

— اني اراك أجمل فتاة •

فأطرقت برأسها • • واخذت تتجرع شايا ببطء • قلت :

— أود أن نسر 'يلة الاحد في المطعم •

— الا ترى هذا بذخا ؟

— أبدا • سنقضي سهرة ممتعة •

— في المنزل المجاور • • كل سبت تقام حفلة رقص • يمكننا الذهاب

لتمضية الامسية هناك •

— بل سنقضي الامسية في مطعم اوزبكستان • سنجلس فوق ارائك

شرقية مغطاة بالطنافس • • ونشرب الشاي الاخضر •

احيانا كنا نلعب الكرة الطائرة في ساحة المعهد • • في آخر المحاضرات •

وكنا فريقين مختلطين من الطلبة والطالبات • وفي المطعم كنا نرقص • كان مذاق

الكونياك حادا ومثيرا • • وكنا نحس بالدفع يشيع في عروقنا • ومع ألنغم

الحالم كنت أضمرها برفق • • وأحس بلدونة الجسد الطري الناعم تتموج بين

ذراعي • • وهي تميل برأسها الجميل فيلامس شعرها وجهي •

حين نزلنا من الحافلة مررنا على المنزل دون ان ندخله • كنا نود ان

تمشى ، ونشم الهواء البارد الندي • كان الليل مدلهما قاتما في الاعالي • وكنا

نُدْرِع المشى بين الاشجار • وكان شبه مقفر • غير أننا كنا نرى هنا أو هناك ،
فوق انصبطة أو في منعطف ما اثنين في عناق • وكنت أَلْف ذراعي على ظهرها ••
ثم اوقفتها بين الاشجار مقبلا وجهها المنفعل الدافيء • تلك قبلات حارة
متقطعة • فهي تقاوم وتمتنع اولاً •• أو تدعني اقبل الخدين دون الشفاه •
لكنني أطوق القامة الشهية قويا ، مقربا بشفتي من فمها اراغب الممتنع ••
واقبل زاوية منه • فتشيع متوسلة ، راجية ان اكف • وفي همساتها رغبة
وجب • وأنا لا اصفي • انما أخذ الشفة السفلى بفتي واقبل • ولم تعد تقاوم •
فهي تضمني وتمنحني فمها كله • فننهل من ريقنا معا ، متعانقين تحت الشجر
المظلم والرذاذ •

حين تركنا المصعد في الطابق الثالث وقفنا متأملين وجهينا باسمين • كان
وجهها مستشارا ، والوجنتان في لون الشفق المشتعل •

— الى الغد •

— تعالي معي الى الغرفة •

— كلا • ليس الان •

— تعالي •

— ياعزيزي الوقت متأخر جدا •

— تعالي •

— الى الغد •

— لكم انت جميلة :

وامسكت بذراعها • فأثقلت مسرعة في المر • حين انهض مبكرا كنت
انتظرها لتركب الحافلة معا ، وبعد المحاضرات كنا نعود مترافقين كل يوم • وكنا
تتعشى في المطعم المقابل •• أو نعد لنا عشاء من البطاطا او السجق والجبن •
كنت اقبلها في العُرفة ، وحين اقترب بها من السرير تتمنع وتنزع أن ادعها •

بعد السينما تتعاقب في ممشى منزل .. او تأخذ مكاننا فوق مصطبة لاقبلها
طويلا . في آخر الاسبوع كان موعدنا في السابعة . وكنت انتظرها في الغرفة .
كانت المائدة مهياة . وعلى الكرامفون كنت اضع اسطوانة . وسمعتها تطرق
الباب :

- ممكن ؟
- كأنتي انتظرك منذ عام .
- لكنني جئت في الوقت المحدد .
- قلت وأنا ادعوها بيدي لتجلس :
- اذا كنت لاتمانعين .. ساطفيء مصباح السقف ، واشعل الاخر على
الطاولة .. ضوءه مريح .. ونحن الان ، يامليكتي في سهرة حب وخمر .
- وتقرأ شيئا من شعرك .
- سأترجم لك ابيانا لشاعرنا ابي نواس . كان مبتلى بحب صبية عنيدة
وساحرة مثلك .. اسمها جنان .
- جنان ! ماذا تعني بلغتكم من فضلك ؟
- تعني الرياض أو النعيم .. اذا شئت .
- اسم جميل !
- كنا نشرب على مهل ونصغي الى الموسيقى . ثم شغلنا بالحديث . كنت
احدثها عن الشعراء العرب . واوصلني الغزل الى الشعراء العذريين ، فندمت
على ذكرهم في هذه الساعة . فنهضت الى المكتب ، وجئت بكتاب ذي جلد
اخضر : مجموعة من شعر سعدي مترجمة الى اللغة الروسية .
- اسمعي هذا الشاعر الشرقي من فضلك .
- واخذت اقرأ :
- في صفاء قلبي تنعكس صورتك الرائعة

• ووجهك البديع يفتن الالباب •
• ملء عينيك البراقتين يتوهج روح حي
كالخمرة الكريمة في القدح البلوري الشفيف •
• اخيلة البشر منهزمة دون تصورك
• ولساني الطليق أخرس امام جمالك •
• قد يفلت طير البراري من الاحبولة
• أما انا فحبيس ابدا في حبائل ضفائرك •

حينما كنا نرقص كنت أضمرها الي بلطف ، ووجهي يلامس وجهها • وكنت
اقبلها باشتهاء • عيناها تبرقان في الضوء الخافت ، ووجنتها في توردد • كان
القدحان الاخيران مهملين • وكنت اقترب بها من السرير • ثمة توسلات مبهمه ،
مرتعشة لان ادعها • • • • • ويدان تقاومان مضطربتين • وفي عيونها وشفاها
التائقة رغبة واختلاج • القامة البديعة الحارة تشد بقوة ، والوقت يمر • هوذا
جسدها اللدن الشهي يتمنع متقلبا على الفراش ، وقد انحسر الثوب عن
فخذها • لكننا معا ، في غناق لا فكاك منه • ويدها لاتقاومان الان • • صباحا
، بعد الساعة العاشرة ، نهضنا من النوم • وكنا جائعين • الوجبة الكاملة
الحارة تبدأ في مطعم الحي في الحادية عشرة • ارتدت ثيابها وانحنى تقبل
وجهي وصدري • بعد ساعة كنت انتظرها في الشارع البارد •

طوال الشتاء الطويل كنا معا • في ليالي العطلات كنا ندخل السينما أو
المسرح • بين حين وآخر يترجم لي زميل شاعر قصيدة فأثفق عن يسر كان هذا
عزنا في ان نرتاد المطعم الفاخر مرتين في الشهر • وفي اغلب الاحايين كنا نتعشى
معا • وكانت تجيء الى غرفتي لنعد وجبة • أو أمر عليها لاشاركها الشاي أو
وجبتها الطلابية الشهية • احيانا ، حين تكون منشغلة بالكتابة ، كانت تطرق
بابي في ساعة متأخرة لتبيت معي حتى الفجر • وحين اعود متأخرا من زيارة

اصدقائي في الجامعة .. كنت اطارق بابها طرقا هينا . فقتل بوجهها من ظلام
الغرفة :

— انتظرنني في غرفتك .. ساجيئك بعد قليل .

كان علينا أن نقرأ كثيرا ؛ في الاداب والفلسفة والتاريخ والاقتصاد وعلم
اللغة . وفي الليل ، بعد القراءة الطويلة ، والثلوج تنهمر وراء النافذة ، والزوبعة
تصفر في الاعالي .. كنت اضمها تحت غطائي ، ناهلا من وجهها وجسدها
البديع العاري . وماكنت لافكر ، آنذاك ، بالافق البعيد .. بالايام الاتية .
وفوجئت ذات ليلة يهمسات غريبة منها : ماذا ترى سيكون من أمرنا ؟ انك
لم تعدني بكلمة .. واني لاحس بحرج شديد ينبغي أن نعلن خطوبتنا ..
وتتزوج فيما بعد .

كنت اسمع هذه الهمسات .. فأحاول أن اشرح وضعي فما تقتنع . وما
كنت اريد أن اكذب عليها . قلت انني لاسطيع ان اتزوج مادمت طالبا .
وما كنت اقدر ان امنحها أي وعد .. أو اتركها في وهم باطل . وكانت تتأمل
وجهي في عتاب حزين .. وحيانا في ترقب .

هاهي تمتذر ، احيانا ، عن المجيء الي ، بانشغالها في القراءة أو بكتابة
قصة . وقليل ما تأكل معا . ولم اعد اطارق بابها في اي وقت اشاء . وصديقتها
لم تعد تطيقني .. بل صرت اجدها اكثر شراسة .

ومع الربيع كانت قصتنا أخذة بالانتهاء . قلت : انني لن اتزوج ما دمت
طالبا . فأخذت تتيانا العذبة الطيبة تسرب من بين ذراعي . وكان الاوان قد
آن لان تنفصل . وكان الربيع ممطرا هزيلا أول الامر . لكنه سرعان ما أخذ
يتفجر خضرة ندية في الحدائق والغابات ، خضرة تذكرك باللوحات الانطباعية
الكثيفة .

أحيانا كنت أمر على بائعة الزهور . كان كشكها الزجاجي عبر شارع

غوركي .. قبالة تمثال بوشكين . اني لا تذكر اول موعد لي معها . اتفقنا أن امر عليها في الثامنة . وحين جئت لم اجد الا بابا مقفلا على الزهور الحبيسة . وسألته صباحا عن اختفائها السريع . فقالت بوجه ينطق بالبراءة الملائكية : انها انتظرتني ، لكنني لم احضر . والتفت الى صاحبة لها كانت معها في الكشك :

— كانت هي معي .

فقالت هذه :

— حقا .. انتظرناك في الثامنة فما جئت .

كنت أحب أن امر عليها واحدا . كانت تبسم لي ، وعيناها في مثل زرقة البحيرات ، وشعرها بلون الحنطة أبان حصادها . انما كانت ناحلة القوام . صحبتها مرة الى السينما ، ومرة الى المطعم القديم قرب كشكها . لكنني اكتشفت انها مرتبطة بشخص آخر . مر عليها ذات امسية ، وكنت اتطلع اليها والى زهورها . وهي زهرة من هذه الازاهير . فألح على لقاء . فبست متدمرة بشيء فانطلق في سبيله مدندنا :

— في الثامنة والنصف .. في الثامنة والنصف .

كان معنا في المنزل اصدقاء من باكو : علي وفكرت وآزر وايفاس . احيانا كنا نتجول معا أو نشرب في غرفتنا . ومن اليمن كان معي في الكورس الاول محمد . كان طوال الوقت مرحا بعينه الكبيرتين ووجهه النحيل وشعره الافريقي . كان ابوه عربيا وامه حبشية .. ولهذا كان اصحابنا من اليمن يدعونه : الكليس .

في المقهى الصغير ، في البهو من فندق موسكو .. كنت التقي بغائب . كنت اراه بوجه الطيب ونظارته الطبية النحيلة وشعره القصير الناعم . كان المقهى في ركن من البهو بموائد القليلة وكراسيه من النايلون الاصفر وكنا

نشرب القهوة السوداء المرة • كان البار عند الحائط • وكانت مديرتة نينا الشقراء الجميلة • وكانت امرأة شابة شهية • لم أجدها ، مرة ، ضائعة بهذا الحشد من الطلبة الاجانب ، يحتلون الموائد كلها تقريبا طوال المساء • • ولا يشربون الا قهوة بعثرة كويكات • ولقد حاول بعضنا مغازلة نينا الشقراء قيمة البار فردتهم بحزم • ونهرتهم بقوة فما عاودوا الامر انية • وكنت ، مرة ، اتناول قهوتي من يد نينا ، فقالت النادلة كالهامسة وهي تعزني :

— انها تحبك •

فاتهرتها نينا :

— ربما سأئك انت •

مرة سمعت نينا تخاطبني وهي تناولني قهوتي :

— يا شاعري البديع •

بالطبع ، لقد رأيتني اقرأ قصيدة في حفل البولتيخنيك ، في هذه الصالة العريقة • وكان المقهى يعج ، احيانا ، بأسراب من الفتيات • وكنت تستطيع ، كلما وجدت ترحابا ، أن تدير حوارا مع هذه أو غيرها • • لشدوها بعدئذ الى المطعم أو تنفق على لقاء • وكنت ، مرة ، ابادل البسمات مع فتاة في الجهة المقابلة • والتقت عيناى بعيني نينا • فأشاحت عني باحتداد • فأنصرفت الى كتاب معي • وتركت الفتاة في حيرة من الامر • بعد فترة التفت ناحية نينا • فرأيتها تعتمد الاشاحة عني • فعدت اقرأ ثانية • ثم نهضت ، وكانت مشغولة بقائمة حساب • وحين رأيتني اقترب منها ابتسمت لي • قلت هامسا :

— أستطيع أن أراك اليوم ؟

فأحنت وجهها على القائمة ، وقالت هامسة ايضا :

— بعد الحادية عشرة عند المترو •

كنا في الثامنة مساء • فأنطلقت الى مكتبة الاداب الاجنبية لاواصل قراءة

منه حسين • وكانت قرية من الفندق •• عبر قليل من الازقة القديمة • وقبيل الحادية عشرة كنت في مخزن الاطعمة الكبير • فتزودت بزجاجة خمر • وانعطفت لانتظرها عند المترو • كنا في أول الصيف • وكانت السماء مظلمة بالسحب ، والهواء رخيا ، نديا • ومرت عشر دقائق • كنت أعرف انها قد تتأخر لامر من أمور المقهى ساعة اغلاقه • ومرت عشر دقائق ثقيلة أخر • ينبغي ان انتظر هنا • فهي آتية لتركب المترو • وهنا اقرب مدخل الى المحطة • وكان القوم يسرعون الى الداخل • كانت الساعة حوالي الحادية عشرة والنصف حين رأيتها منعطفة نحو المترو • كان وجهها مرهقا قليلا • وكانت بتسم باعتذار :

— أعرف انني تأخرت •• لكنه العمل كما تعرف •

— أرى انك متعبة •• هل تفضلين بالاستراحة عندي ؟

فأجابت وهي ثرنو جانبا الى مدخل المترو :

— تستطيع ، اذا رغبت ، ان توصلي •• وتمكث في شقتي قليلا •

— لاشيء أحب الي من هذا •

— أسمع •• هذا اللقاء لايعني احدا غيرنا •

— أنت تعرفين كم اودك واحترمك •

— اعرف هذا •• والا اعرضت عنك •

كنا نجلس متجاورين في عربة المترو

— ماذا كنت تقرأ في المقهى ؟

فتحت حقيتي وظهرت لها رواية هسغوي « وداعا للسلاح » في ترجمتها

الروسية • قالت باسمة :

— اتعيرني هذه الرواية بعد انتهائك منها ؟

— بل اتركها هدية لك • وسأحصل على نسخة لي من عاملة المكتبة •

انها صديقة لزميل لي •

كانت تبسم وهي ترى الزجاجة في حقيتي ، فأنا متهيء لتقضية سهرة
ممتعة معها . بعد المترو انحدرنا مسافة في ممر بين أشجار . ثم اتجهنا نحو
طريق آخر بين العمارات . كان الطريق خاليا الا من خطى متباعدة .. وكانت
أخذة بذراعي شأن الصديقة المطمئنة . وكنت أحس بدفئها ولينها . كانت
شقتها فارغة الا منا . اخرجت زجاجتي ووضعتها على المائدة . قالت متأملة
مائدتها :

- أما تظن الوقت متأخرا لشرب الخمرة ؟
- لن نشرب غير قدح .. فيما اذا سمحت .
- لا بأس بقدح .. لقد اقنعتهم هناك بالسماح لي في التأخر حتى الظهر ..
- واشكرك ثانية على هديتك .

كنت قد طرحت الرواية فوق طاولة بالقرب من التلفزيون . وكنا في
الطابق السابع من بناية عالية . وكنا تتجرع الخمرة بارتياح ، شاعرين بدفئها
ولذنها . وكانت تطعمني وتلع علي أن أكل . ورجوتها ان تحل شعرها الاشقر
الكثيف . فبتسم قائلة في غموض :
— في مرة قادمة .

وهي تدري أنني باق معها حتى الصباح . لم اكن ثملا ، لكنني اناقت ،
فجأة ، اتحدث عن جمالها واعجابي القديم بها . وسألتها أن التزم وجهها .
فأعطتني خدها بعد تمنع . وأخذت اقبل فمها ، هامسا بأرق الكلمات وأرزاها
على قلب امرأة . فأقبلت علي تغمرني بقبلايتها . ووقفت آخذًا بيدها في رفق .
فاتجهنا الى مخدعها . اية بهجة عظيمة ان تعانق امرأة في مثل لطفها وعطائها !
كانت أهاتها تنبعث من مكان سحيقة كما تنفجر الينابيع من اعماقها الدفينة .
وكان شعرها يتوج طويلا ، متلامعا .

بعد يومين التقيتها ثانية . كانت أمها وانتهت الصغيرة في الضاحية فكنت
انتظرها كل ليلة عند المترو .

ثم ارتحلت جنوبا لاقضي شهرا عند البحر الاسود . وحين رجعت كان
بجو الفندق خاليا من المقهى . واعد فتحه ، ثانية ، في الجانب الاخر من
الفندق . . تحت المطعم . وكان جديدا بقيمته وفادلته . وسألت عن نينا فما
وجدت سبيلا يوصلني اليها . وافتقدنا البهو ورحابته .

كنت أمر على الجامعة فالتقي بغازي واصدقائي من اليمن : عمر وعبد الله
وأبي بكر وعبد الكريم . اني لاتذكر عبد الكريم وابتسامته الطيبة الابدية .
وكان عمر مبتلى ، آنذاك ، بالحائط الاصم . كلما أقمت علاقة مع فتاة واجهك
الحائط نفسه : أن تتزوجها أو تفرق عنها . وكان على عمر أن يتزوج صديقه
الشقراء السمينة أو يتعد . وكانت تطارده وتنقض عليه أينما ولى وجهه .
كانوا جميعا في غرفتي . كان محمد مرحا كمادته ، وعبد الله هازئا بالحياة . .
وكان ابو بكر هادئا ، أخذ سمة الفلاسفة . وكانت الشقراء العاشقة متورمة
العينين جراء بكائها الطويل . وكنت ارى دموعها تتساقط كقطرات المطر
الكبيرة .

كان عزيز يزورني ، احيانا ، مصطحبا صديقه الطيبة تمارا . وكان مرسى
في مدينة اخرى . . فلم نعد نلتقي الا في العطلات .

وشربت ، مرة ، اكثر مما اعتدت . . وكان في غرفتي اصدقاؤني من اليمن .
فتركتهم وخرجت . كنت مسرعا ناحية السينما لالتقي بزميلتي تمارا البلطيقية
وصاحبة لها . وفي الصالة المظلمة أحسست بألم ممزق فأسرعت لالتقي في
المغاسل . أكانت مغاسل ؟ لا ادري . اذكر انني سقطت على الارض . لكن
أين ؟ اتذكر نساء في ثياب بيض كالممرضات أو عاملات البوفيت يحطن بي
ويلفطن . اتذكر ظلمة خافتة وأشباحا . وكنت أحس ببرودة البلاط . أحس
بالارض الرطبة المظلمة . أهو طين ؟ ام هي ارض الطفولة الرطبة ، والطفل عند
حافة المستنقع ؟

حين أفقت كنت في عربة الميليشيا الصغيرة المكشوفة • وكانوا رفقاء بي •
أوصلوني حتى المنزل وانصرفوا مودعين • لم يبق أحد من اصدقائي في الغرفة •
فقد رحلوا غير دارين ماجرى لي • وفوق سريري كانت تمارا متكئة على
الوسادة • فنهضت مقبلة الي :

— أنت بخير ؟

— شكرا • اشعر بتحسن كبير • يبدو أنني اخذت علاجاً •

كانت تمارا جالسة على السرير • فأحطتها بذراعي ، وقبلت وجهها •• كانت
طبعة فلم تبداية ممانعة : ربما رفقة بي وتأثرا بحالي • كانت الامطار تهطل
خلف النافذة • فجرا ايقظتني تمارا • قلت انني سأأخر عن المحاضرة الأولى •
فتركتني لاعاود الرقاد •

كنا في بداية الكورس الثاني • وكان محمد قد غادر الى صنعاء ليقيم مع
النظام الجمهوري منذ أيامه الاولى • عمل فترة سكرتيرا لرئيس الجمهورية •
والتحق ، بعدئذ ، بالسلك الخارجي قائما بالاعمال في سفارتهم في موسكو ••
وكوبنهاكن • وكان في تعز عند الاطاحة برئيس الجمهورية • فسجن فترة في
اعماق الدياجير • وعمل عمر على انقاذه ، وكان رئيسا لاتحاد الكتاب في عدن
بعد التحرير • وقتل محمد ، بعد حين ، في حادثة طائرة فوق صحراء
حزموت • وكان هذا بعد بضع سنوات •

ومع الكورس الثاني جاء جيلي • وسريعا ماصرنا صديقين • وكثيرا ما
كنا نخرج معا لتجول في المتنزهات • عسى ان نلتقي باثنين من صبايا
الحداث • كان جيلي ، بشعره الواقف على جانبي رأسه ، ووجهه الطيب
النبيل ، وبدلته المبهمة •• يحدثني عن القاهرة وعمله الصحفي في جريدة
المساء • وكنت اتلقى ، كل شهر رسالة اخي صاحب الزرقاء وحزمة الجرائد
والمجلات حيث تنشر قصائدي احيانا •

كلما اصطحب جيلي فتاة الى غرفته لم يكن ليفكر بغير السمك عشاء : تلك
وجبة جاهزة لا تكلفه مشقة الوقوف في المطبخ . وذات ليلة رائعة جاءنا بتانيا
الشقراء . ولا اذكرها الا في ليالي الاعياد .. تتلفن له وتزوره ، آتية معها
بصاحبها الطويلة النحيلة .. تميد بطولها وشعرها الكستنائي القصير . ومع
جيلي جاءنا جون من غانا . وهو شاعر ايضا . كان عملاقا مرحا . يهتف مرحبا
عن بعد ، وصوته يتردد عاليا ملء الممر . غالبا ما كنا نزوره ، أنا وجيلي ، في
ساعة متأخرة من الليل . فيعد لنا الشاي ، ويقدم الخبز والمربى . كان يترع
اقدامه الخشبية الكبيرة بالماء الفائر ويضيف اليها الشاي مع السكر . كانت
جدران غرفته معرضا لعشرات الصور : رجال شعر وفكر من اقطار متباينة .
وفاجأنا ذات يوم بمكنسة كهربائية طويلة . كان يجب أن ينظف غرفته بنفسه .
كنا في أخريات الصيف . وصدفة ، في أمسية من الاماسي الغائمة ، التقيت
بتونيا مناوبة المنزل الاول . وكانت دهشتي كبيرة حقا .. حين رأيته فرحة ،
مقبلة نحوي .

آلهة الخطى المتناقلة

صدفة التقيت بتونيا في الشارع • كنت مرتديا معظفي المطري ، متجها الى محطة مترو • كان الطقس غائما ، مدلهما أخذا بالبرودة • كنت أحس برائحة مطر ، رائحة خريف مبكر • كانت السحب تغطي السماء بلها • كانت سحبا رمادية قاتمة ثقيلة • • تحسبها فوق سطح المدينة نفسها • وكان الطقس ينذر بسقوط مطر غزير • والرياح تهب ندية على الوجوه • وكانت أعالي الشجر تتمايل • والقوم يسرعون الخطى • وبالرغم من العتمة المبكرة ، عتمة الغيم والغروب ، بالرغم من الجو المتلبد كنت أحس بشيء كالبهجة • • بهجة تحملها نسبات البرد الاولى • كانت السحب متداخلة بالخضرة المحمرة المصفرة ، خضرة الاشجار المتقادمة العالية : اشجار بلوط واسفندان وحور ودلب وزيزفون • • وبهذه الوجوه المتوردة ، وجوه صبايا يسرعن للقاء ، ووجوه نسوة يفذذن الخطى من السوق الى المنزل • وعند واجهة الترو تقف الفتيات في انتظار اصدقائهن •

كان المساء ينحدر داكنا فوق المدينة الهائلة ، والاضواء تتوهج • وتحس بالبلل في شعرك وفوق وجعك ، بلل الريح المحملة بانفاس السحب قبيل رذاذها ، وامطارها • وكأنما الليل يوشك ان يطبق على المباني والحدائق • وكأنما العتمة توشك ان تتكاثف • وعن قرب تتعالى قباب كنيسة خشبية قديمة • • يلفها الشجر القديم المتهامس • ووراء الاعمدة الخشبية المتعارضة ، الممتدة حائزا حول المبنى • • ترى الاوراق اليابسة متكومة حول الجذوع ، وفي الماشي الضيقة • كنت اطلع الى البناء القديم ، وألوان القباب المتعاقبة من الزرقة الى الصفرة فالأرجوان • وجوار الكنيسة تقوم عمارة هائلة ذات مداخل عديدة • على امتدادها في الطابق الارضي تلوح الواجهات الزجاجية لمخازن متنوعة • وعن بعد تسمع ضجة الساحة • كانت المكبرات تبث موسيقى راقصة • وجموع من الشباب تحمل أطواقا ملونة من النايلون • بعضهم أحاط نفسه بطوقه منذ الان • وكنت متجها الى محطة المترو • وهاهي شابة في بدلة زرقاء داكنة ، تقترب مني • وعلى وجهها فرحة لقاء غير متوقع • أهى تونيا ؟ اجل هي تونيا تدنو مني وتصافحني قائلة :

— أهذا انت ؟ كيف حالك ؟

— اشكرك كثيرا • أنا سعيد بلقائك •

— وأنا سعيدة ايضا • اين تسكن الان ؟

اعطيتها صورة عن الحي • قالت فجأة :

— أنا الان في الكورس الاول • لقد قبلت في الجامعة •

— اهنت ، • اما زلت تعملين هناك •

— كلا • لا وقت لدي •

كانت عيناها نسمان زرقة دافئة ، ووجهها الشاحب يتورد • وقوامها المتكامل ، شبه المتلي • • تلفه البدلة الزرقاء القائمة • أهذه هي تونيا الصارمة

العزوف ؟ كنت ادري أنها منفصلة عن زوجها حين كنت في المنزل الاول •

— وأين تسكنين الان ؟

— كالسابق مع أمي •

— اتسمحين لي بالسير معك قليلا ؟

— تفضل .. أين تدرس ؟

— في معهد غوركوي •

— في المعهد الادبي ؟

— أجل •

كنا نخطو تحت الاشجار العتيقة • واقترحت أن نركب حتى بارك غوركوي
لنتجول • كان البارك على بعد محطتين • كنت أرى اقبالها علي ، وأحس
في صوتها أنها فرحة بلقائي • في الماشي الطويلة ، في المتنزه الفسيح ، كنا بين
المئات من المتجولين • كان الليل في اوله • وتحت الاضواء المتباينة كنت أرى
الاشجار كالمظلات المحلقة •

عند البحيرة ابتعت تذكرة لتنزه في قارب • وكنت سعيدا سئل هذه
الصدفة الرائعة • وكنت أجذف في غير ما عجل •

— أمرتاح انت في سكنك ؟

— اجل .. فأنا أعيش وحدي •

— وحدك في الغرفة ؟

— أجل •

— انك لمحظوظ •

— أية بهجة أن التقيك ثانية !

— اليس صدفة غريبة ؟

— بل هي صدفة بديعة •

ودعوتها الى المطعم الصيفي الصغير • لم يكن الصف طويلا • وفي الجو تفوح رائحة شواء طيبة • كانت المرائش المزهرة تتسلق السياج الخشبي • وكنا واقفين معا ، واكتافنا تتلامس بألفة •• وكنا نتقدم ببطء • وعند مائدة ملاصقة لسياج المطعم احتلنا كرسيين متقابلين • اوصيت على سلطة وبيذ أحمر وشواء • في مثل هذا المطعم لا يمكنك أن تتأخر كما تهود • فلم يكن مجلس سهرة ورقص • والقوم يأتون ، عادة ، الى هنا ليأكلوا الشواء • ونهضنا منصرفين •• ولما يزل الوقت مبكرا ، ملائما لان نواصل تجوالنا • فأقترحت أن نقوم بنزهة نهرية في المركب • وكان قادما باتجاهنا • فأقتطعت تذكرتين عند المرسى ، وركبنا •

وأخذ المطر يساقط بقطرات كبيرة • وكان متقطعا أول الامر • وكنا في الممر الجانبي ، نعتمد العارضة ، ونستقبل الريح ورذاذ الماء باوجهما • ثم امتد هطول المطر فأنهزنا الى الحجرات • حين وصلنا المرسى الآخر رأينا 'ناس لائذين بالاشجار • نزع معطفي المطري الخفيف ونشرته فوقنا معا • وكنا نحتمي تحته ضاحكين ، نسرع الخطى نحو مقصف تتوهج أضواؤه في المطر النهمر • كان المكان مزدحما ، وكان البعض واقفا • وعلمنا أن نتنظر حتى ينقطع الوبال أو يخف •

جئت بقدحي بيرة ، ورحنا تتجرع • وكنت أرى عينيها تشعان ضوءا أزرق خافتا • وكانت خصلاتها الشقر في بلل واضطراب ، كان المطر يضرب الزجاج ، ورائحة البيرة تعوم •• ونحن نبسم •

حين كف المطر وهدأ الطقس خرجنا تتسنى في الساحة المبتلة •• كانت الاشجار تقطر ماء ، والموسيقى تصدح في مكان ما •• ولما يزل البلل في هواء الليل • وكنا تتجه صوب المترو • واوصلتها حتى المدخل من عمارتها • واتفقنا على لقاء في اليوم التالي عند السينما المركزية في الخامسة مساء •

وجاءت تونيا • ولعلها سبقتي في الحضور • فقد برزت الي من يسن
المتظرين • وأخذنا نسير على رصيف الشارع باتجاه ساحة مايكوفسكي •
وكانت السحب ثقيلة • ودعوتها لندخل مطعمًا أو مقهى • ولم تشأن أن ندخل •
البارحة كنا في مطعم •• وهي لا تريد أن تكلفني • فسألته أن نقضي الامسية
في المنزل خوف الوبال المبالغ •• ولنسمع الموسيقى • فركبنا العافلة ٢٣ وكانت
في ساحة خلفية جوار المترو •

وفي الغرفة كان يكتبنا جو آخر • كانت الامطار تتساقط في الخارج •
وكنا نرتشف الكونيك ، مصفين الى الموسيقى الهادئة المنبعثة من الكرامفون
العتيق • وفي الرقص الحالم البطيء كنت احيط قوامها الدافئ الناعم
بذراعي ، واثم شعرها الشذي •• ملامسًا وجهها الناعم الحار بوجهي • بعد
ساعتين من الخرة والرقص كنت اقبل فمها الجميل • وكانت الامطار تشتد
هطولا ، وتضرب النافذة بقوة • قالت تونيا :

— لن أتبعك هذه المرة بتوصيلي •• فالطر غزير وقوي •

— ولماذا تخرجين في هذا الطقس القاصب ؟

— لا بد من أن أخرج •

— تستطيعين أن تبتي هنا •• سأتي لي بفراش آخر •

— أحق ؟

— بالطبع •

وفي العاشرة تركتها وحدها لتتوضئها وتغطي • وحين عدت رأيتها
متدثرة باغظيتي • واخذت اقبل وجهها قائلا :

— اسمي تونيا •• لم اجد فراشا زائدا •

— لا بأس •• تستطيع أن تتمدد بجانبني •• انما بلا ••

كانت في قميصها وحده •• فأحورتها بين يدي • بعد قليل كان قميصها

ملقى على الكرسي بأهمال • وطوال الخريف كنا نلتقي مرتين أو أكثر في كل اسبوع • وكانت تأتي بكتبها معها • وكانت تعد عشاءنا في المطبخ • وكنا نقرأ حتى يمن لنا أن ننام • وكنا نقضي امسية السبت في السينما أو المقهى • وكانت الاشجار تتعري من اوراقها • والسماء الشمالية مدلهمة طوال الوقت • ونحن في معاطفنا الخريفية والقيعات • وقبل أكثر من اسبوعين من العيد حجزت لنا مقعدين في مطعم براغ •

مرة ، بعد العشاء ، وكنا نقرأ في غرفتي •• سمعت تونيا تقول فجأة انها ستحصل قريباً على وثيقة طلاق من المحكمة • فلم أرد بشيء • هكذا بدأ الحائط الاصم يتراءى من بعيد • وكنت ادري أنه سيلوح بيننا ذات يوم • ذرايتها تلقي علي نظرة متألمة وتعود الى كتابها • وفي عناقنا الليلي سألتني ، وكنت اقبل وجهها المتلون بحمرة الشفق :

— الا يسرك أن احصل على وثيقة الطلاق ؟

— بالطبع يسرنى ••

— لكنك ظلت صامتا حين اخبرتك ونحن نقرأ •

— اسمعي تونيا •• أنا لا اريد أن اكون معك الا صادقا •

— أنا اعرف أنك طيب •

— أنا لا استطيع أن اتزوج وأنا طالب •

— بعد اربع سنين ؟ هذا زمن طويل •

كانت تأمل السقف يمينين واجنتين • وعدنا ثانية الى الحوار الحزين هسه في اللقاء التالي • كانت ليلة مجللة بالكأبة • كانت جادة في قصتها معي • وكانت تريد أن اتزوجها • وفي ليلة الاحد كنت انتظرها في غرفتي • وسمعت طرقا على بابي • فأسرعت لافتح • كان هذا طالبا بعث به المناوبة السي :

— يطلبونك في التلقون .

وهبطت الى الطابق الارضي . كانت تونيا تتحدث بحزن . اخبرتني أن امها مرضت فجأة ، وهي معها في المستشفى . فأذا كنت جادا معها علي أن أفكر بأمرنا جيدا ، واتلفن لها . انها في انتظار رد مني . وانها تحبني وتكره أن تفرق . تكره هذا من اعماق روح كسيرة .

كان البقاء خائفا في الغرفة . كنت أحس بوحشة هائلة . سأنام وحيدا هذه الليلة . . بعيدا عن فرحها الصافي وامتلاء ذراعي بالاثني الناعمة الراحبة . وأنا أعرف هذه الكأبة الثقيلة ، والفراغ القاتم في الروح ، والفرار من الغرفة قائما في الارصفة . . أبحث عن صحبة أنيسة في هذه المدينة الهائلة . واتجهت الى مقهى الفندق علي اجد صديقا اشرب معه . كانت السماء سوداء قاتمة . وكنا في اخربات الخريف . . وصباح الاحد كنت في مقهى الشباب . كنت مع فلاح وماهود وأحمد . كان فلاح في المعهد الطبي الثاني . وكان يرسم لوحات نراها جيدة ، لكنها خشنة . وكان ماهود وأحمد في المعهد الفني . كنا نجلس عند الواجهة الزجاجية ، نرقب الحركة في شارع غوركي . وغالبا ما كان جيلي معنا . وكانت زهرة التتريّة المسلمة عاملة الصندوق في المقهى . كان خضراء العينين ، حزينة الملامح . . وكانت تتحدث معنا بتعاطف . لم تكن نشاء ولا القهوة أو البونش . فلم تكن العلاقة طيبة مع النادلات . غير أن نادلة واحدة كانت لطيفة معنا . وكنت ادعوها ، فيما بيننا ، بالبلهاء . لم تكن حقا أو بلهاء . غير أنني لسبب ما ألصقت بها هذه الصفة . كان شعرها مضطربا ، وفي حركاتها ووجهها ما يذكر بك بفتاة خرقاء . وكانت تدعوني ، بين اصدقائي ، بالفتى النحيل . وكان أحمد قد وطد علاقته مع هذه الهماء دون غيرها . والله أعلم لماذا . وكان ماهود يخط على اوراقه وجه هذه الصبية الجيلة أو تلك . وكانت لنا القوية المتوردة قيمة على البار .

قال جيلي ، مرة ، وكنا عند الواجهة .. قبالة البار :
— هذه الفتاة راغبة بك رغبة جلية . انظر كيف تتأملك بلا توقف . انها
لا ترفع بصرها عنك .. منذ فترة وأنا لاحظتها .
— من هي ؟
— لينا .. قيمة البار .

وحين التفت اليها رأيت وجهها يتضرج بالحمرة القانية .. وقد أطرقت
رأسها خجلا . ووجدت فرصة لاسألها لقاء . قالت :
— انتظرنني في الثانية عشرة عند ناصية المقهى .
كانت صبية قصيرة ، صلبة امرأة شابة سيعود زوجها من مهمة عمل ما
بعد أيام . وذبحت وحيدا ، ليلة العيد ، الى مطعم براغ .. أملا ان تسألني
امرأة وحيدة عن تذكرة زائدة .

ورأيتها هناك . عن بعد رأيتها عند مدخل المطعم . كان شعرها الكثيف
الاشهب ، المائل الى الزرقة ، يتكوم فوق رأسها في تسريحة رائعة . كان
الثلج يتطاير خفيفا . وكان شعرها الحاسر يشي بخروجها على حكمة الكبار .
يبدو أنها تنتظر احدا ما باتفاق أو بغير اتفاق . وقفت قريبا منها ورحت اتطلع
الى واجهة المطعم . كان باديا علي أنني لا انتظر شخصا معنا . فابتدرتني
سائلة :

— الديك تذكرة زائدة ؟
— اجل .. اذا كنت وحدك .
— أنا وحدي كما ترى .

فدخلنا معا . وأعطينت رقما واحدا لمعطينا . كانت ائقة حقا قياسا الى
الاخريات . كان قوامها القتي ممتلئا باتساق رائع . وكان وجهها الجميل
متسعا كاوجه العديد من الروسيات . عيناها الباستان الكبيرتان في زرقة

صافيه • وكان فيها ممثلنا شهيا • وكانت تحب الرقص جدا عظيما • وكانت
تدخن • سريعا ما حطت عند مائدتنا شابتان فانتان • فكانت تتحدث معهما
بلطف أول الامر • تبسم وترتشف خبرتها باعتدال • كانت في العشرين من
عمرها • حين بدأت الانتان تتحدثان معي بارتياح وبلا تكلف مرت على وجهها
العريض الجميل غيتة أسي • وكانت الموسيقى تصدح عاليا • وسألناها أن
تسمح لهما بالرقص معي • فأجابت في غموض • فرقصت مع السراء منهما
أولا • ثم رقصت مع الثانية •

ورأيت ضيفتي تدخن كثيرا • وتكاد تجرني الى الرقص جرا • فأعترضت
مبتسما لجارتينا • وأفهمتها في الرقص أن عليها أن تحتل رفقة الفتاتين ، فما
من ذنب لهما في جلوسهما معنا • • وأنها اجمل منهما في آخر الامر •

حين عدنا نجلس وتدخن كانت قد استردت مرحها ، وتهللت تقاطيعها الفتيّة
الجميلة • وكان الليل قد اتصف منذ ساعة • وكنت أخشى أن يطول وقوفنا ،
في الشارع ، في انتظار التاكسي • كنت متوقعا أن تعارض اقتراحي بالخروج •
فهي مقبلة على الرقص ، منطلقة في مرحها بلا تصنع • • فكنت اتردد في اقتراحي
أن نخرج • وحين سألتها هذا ذهلت ، وقد وجدتها تميل علي وتقبلني ، قائلة
انها تواقّة لان نخرج ونشم الهواء الرائق •

لم يكن البرد قارسا بعد • فأخذنا تسكع في الساحة • وكان الثلج يتطاير
خفيفا • وكانت حاسرة الرأس ، وكنت أخشى أن تصاب بركام • فأقترحت أن
نتنظر تحت طنف المحطة حتى تمر سيارة فتوصلنا • قالت انها لا تخشى بردا ،
وستظل واقفة معي • كانت متشبثة بذراعي ، وكنت انظر أسفا الى تسريحتها
الرائعة ، وقد ناشها الثلج الذائب • عن بعد أبصرت بنار التاكسي الخضراء •
فاشرت لان يقف • لم يقل أي منا ، عندما كنا نتنظر ، الى أين نحن ذاهبان •
فأعطيت السائق عنوان منزلي •

كانت الشوارع خالية • فوصلنا الى البيت بلا تأخر • غالبا ما كنت أحتفظ بزجاجة خمر في خزانتي • فقد يصدق أن اعود متأخرا مع امرأة • وكنت أكره أن فأوي الى فراشنا عن مائدة عارية مقفرة • كانت فرحتها كبيرة حين رأنتي أتيا بالزجاجة واضعها فوق المائدة • فأخذنا نشرب خمرتنا متلذذين • وكنت أقبل وجهها وفمها • وكانت سخية بقبلاتها الطويلة الدافئة • وكان شعرها قد انحل قليلا • كان عبقا برائحة الليل • الريح تصفر مرحة ، والعيد في غرفتي • حين كنت اطوقها • • كنت أحس بطراوة جسدها الفائقة • كان قوامها الممتليء ، يتموج لينا كالبحر • وعبر الثوب كنت أتصور عريها الباذخ الوثير • كنا راغبين معا أن نكمل شربنا • وكنا ندخن من لفافة واحدة : كان علي أن انصاع لرغبتها هذه •

كنت ادري أن صحبتنا لن تدوم طويلا • مثل هذه الشابة المتبرجة ، المقبلة على المطاعم تكلف كثيرا • لن تقنعها وجبة الطالب واجواؤه • انها تتطلع الى العربة والشفقة المريحة • لم تقل شيئا ، اول الامر ، حين صحبتها في لقائنا الثاني الى المنزل • • دون أن نمر على المطعم • وقضينا ليلة ممتعة • وفي لقائنا التالي • • اشارت الى أنها تحب أن نرقص ، الليلة ، في صالة ما • • ونسمع الموسيقى الصادرة • قلت :

— لن تقام في منزلنا حفلات رقص الا في الاعياد • لكننا نستطيع أن ندخل المطعم ونرقص •

ووجدتها فرحة باقتراحي • كان لقاءنا عند المترو جوار مطعم موسكو • فانعطفنا اليه • وتناول معطينا عامل المشجب الشيخ ذو اللحية الطويلة البيضاء الناحلة • وكان يعرفني • وأرتقينا الدرجات المرمية الشهاء • كانت متميزة بالرقص والسهر • وتميل علي ، ملاطفة ، بوجهها العريض الفاتن ، وعينيها البسامتين ، مرفهة عن نفسها وعني •

اذكر أنني كنت معها خمس مرات • كنا نخرج على المنزل بعد المفعم أو
المقهى بعد الحادية عشرة • وقلت لها آخر مرة ، في ظهيرة أحد ، وكنت قد
أوصلتها حتى بيتها : انني مسافر لفترة ، وسأتلقي لها حينما أعود • ولا أظن
أنها صدقتني • كان الشك جليا في ابتسامتها ، ونظراتها المتسائلة المعاتبة •
كانت تظن ، كما يبدو ، انني سئمتها ، والتقيت بأخرى •• كما يحدث ، عادة ،
لدى الفتيات والرجال اللاهين • ولم اتصل بها بالطبع • من السهل جدا على
صبية في مثل جمالها أن تحيا سهراتها وقتما تشاء • أنا اذكر قوامها الناعم
المألح كالبحر الرخي • ليس قليلا أن تزود بهذه الذكرى اللدنة ، بالرقعة في
ملاطفتها لي ، وبالنعومة في عناقها •• وذكرى البلبل في شعرها الحاسر ، شعرها
الانصب ، المائل الى الزرقة •

هوذا الشتاء الروسي • غير أن الثلوج الغزيرة لم تتساقط بعد • بين حين
وأخر يتساقط الثلج هشا ويدوب • والهواء قارس لاذع •

بفتة يداهم المدينة الشتاء • الريح تشتد بردا • والسحب تبيض وترش
ثيها الثلجي المتطاير • ونحن نحس بالبلبل والرطوبة • ونرى على اكتافنا هذه
النعومة البيضاء النقية متجمعة أو ذائبة • وقد ينحسر الشتاء بفتة عن المدينة
ليومين أو ثلاثة •• ليحل ثانية مكفها ، لاذعا ، منذرا بالثلوج الكثيفة • ونحس
بالشتاء في أنفاسنا وبرودة أيدينا ، في اعالي المدينة المتحجبة بالضباب ، في الماء
الصقيعي وفي الفراء الثقيل والحدود الفتية المتوردة الضاحكة •• وفي الزجاج
المتجلد •

كانت الاشجار متحرية ، مقرورة •• والواجهات تقطر نداوة •• ومع
الساعة الرابعة تقريبا تهبط العتمة المبكرة وبين فندق موسكو والكوم تعبر
آلاف من الوجوه المتوردة والخطى المتسارعة • وعيقا ، تحت الخطى ، ينطلق
المترو في شبكه النفقية المتشعبة في باطن الارض • وفوق أبراجها السامقة

تتوهج الانجم الياقوتية في الاعالي الحائلة . والساحة تتبعع بالثلوج . وحيال
الجدار الاحمر القاتم يلوح الشرين اخضر داكنا . وفي عريها ترتعش الحدائق
بردا .. خيوطا سوداء عارية تتجلجل ، بعد حين : بأرديتها الثلجية الضافية .
والشمس حين ترى ، احيانا ، ترى ذبالة هزيلة مائلة في منحدر الغيم الاشعث .
وكنا في انتظار رأس السنة والثلوج الغزيرة . وحين تساقط في الليل ..
أجدني صباحا في عالمها الابيض النقي . والريح تلسع الوجه وسبرقه بهشيم
الثلج اليابس .. تذره رشاشا من ذرات زجاج . وفوق الشابكا والكتفين
يتكوم الثلج ليزوب ويتبخر ، سريعا ، في مدخل المنزل أو الحافلة . وكنا في
انتظار ليلة رأس السنة . واحسرتا للغريب في البلد النازح يقضي ليلة العيد
وحيدا . علي أن ابحت في مظاني عن فتاة أعيش معها ليلة العيد المرتقبة .

قبل الليلة المرتقبة يوم .. التقيت بثقة .. كانت واقفة عند السينما
المركزية ، تأمل صورا من الفلم فوق لوحة الحائط . فأقربت وسألتها عن
الفلم . فوجدتها قد اطمأنت الي . ودعوتها الى مطعم عند جادة الطريق الى
المعهد . وشربنا نبذا أحمر ، واكلنا طيرار برباد مشويا . وأتفقنا أن نلتقي ليلة
رأس السنة في الساعة الخامسة .. ساعة انتهائها من العمل . وكانت عاملة في
مصنع ساعات . واثتظرتها في مدخل السينما طويلا ، ولم تحضر . لابد من أن
أمرأ طارئا حال دون حضورها . فلقد كانت طيبة ، فرحة بلقائي . وعدت
خائبا ، حزينا الى المنزل . وعرفت السبب في تأخرها بعد حين . فلقد أضيفت
ساعة غير متوقعة الى ساعات العمل ذلك النهار . كان علي أن انتظرها في
السادة اذن : لو أنني كنت أعلم .

وحيدا كنت . فمررت على جيلي في غرفته . كان محتفلا مع تانيا
وصديقتها الكستنائية . وكان هناك طالب آخر . وكنت بحاجة لان أشرب .
فأخذت جرعات من الكونياك الارمني . وهبطت الى صالة الرقص في الطابق

الثاني • وكانوا يرقصون • وبعضهم يتفرج جالسا على الكراسي • • ثمّة طالبات من المنزل ، وأخريات ممن يحلن ضيوفا علينا • • أتيات من المبدن والإقاليم ، تلتقي بينهن بالشاعرة أو كاتبة السيناريو أو الرواية وفي المنزل متسع لهن ولغيرهن • • ممن تضيق بهن المنازل الجماعية التابعة لمعاهد السينما والمسرح • كنت جالسا مع المتفرجين حين اقتربت من الكرسي المجاور امرأة ممثلة ، في ثوب سهرة • وكانت جميلة • فتحدثنا قليلا ، ودعوتهما لترقص • • أكانت في الأربعين ؟ ربما • ورقصنا مرتين • ثم دعاهما أحدهم لترقص • فذهبت الى غرفتي لاشرب • حين عدت كانت منشغلة بالرقص مع طالب آخر • حين انتهت الرقصة رأيتها مقبلة نحوي وسألتني باسمه :

— أين كنت ؟

— في غرفتي • • ممكن أن ارقص معك ؟

— تفضل •

بعد الرقصة دعوتها لتشرب معي • كانت وحيدة مثلي • فلم تتكلم • بل وجدتتها فرصة لطيفة لتمضية ليلة العيد مع فتى في مثل عمر ابنها • حين أخذنا نشرب كانت تتأملني باسمه :

— أتدري ؟ أنك في مثل عمر ابني •

— أنا يعجبني هذا •

— حقا ؟

— بل يعجبني كثيرا •

— يسرني هذا منك • كنت متخرجة اول الامر •

— كيف ؟ مع أنك جميلة •

— لكن كيف حدث أن تكون وحيدا في هذه الليلة ؟

— حدث هذا • • لالتقي بامرأة رائعة مثلك •

في الثانية عشرة إطفأت الضوء .. لاشعله بعد قليل . ورأيتها تنهض لتقف عند مكتبي وتناول كتابا . كانت ساقاها ممتلئتين رائعتين . وكان قوامها شهيا . فوقت وراءها ، وامسكت باكتافها في رفق . ورحت الشم وجهها . كانت الثلوج تتساقط . وكان الفراش ممتلئا بعريها الناصع المتقلب بين ذراعي . في الليل غزيرة تتساقط الثلوج . وتزاح بالمجارف فجر كل يوم . وتتكوم طوال الشتاء في اخاديد حيال المنازل .. تفصلها عن الرصيف اسيجة خشبية واطئة . وهو شتاء طويل ، تظن أنه لن ينتهي . غير انه لشتاء بديع .. بهذا الدثار الابيض الخرافي . احيانا كنت اصحو مع الفجر . ريخيل لي أنني اسمع أمي وهي تحلب البقرة .. يندفق الحليب شاخبا من بين اصابعها ، يسقط في الوعاء النحاسي ، محدثا رنينا متواترا ممتلئا . تلك هي المجرفة تدفعها عاملة ما ، مزيجة الثلج عن اوجه الارصفة . وفي الليل ، تحت انهمار الثلوج ، تتصاعد ، مبتعدة ، اغنية روسية شعبية يتغنى بها فتى سكران .. يصحبها ، عادة ، نعم الهرمونيكا المتسارع . وكل صباح تقريبا تمر تحت النافذة .. تلك المرأة المخبولة ، وهي تطلق صيحاتها الذبيحة البحاء باسم سونيا .. باسم طفلة ربما ، لا يراها غيرها احد .. لتأخذ حذرهما من السيارة . وكل مساء تمر عائدة في الزقاق نفسه ، مطلقة صيحاتها تلك . وذات يوم ، وكنت قادما من المخزن ، التقيت بوجهها .. فأحسست برجفة مظلمة في صدري . واظلمت روحي فأشحت بوجي عنها .

— سونيا .. خذي حذرك من السيارة .

وكان سونيا تعبر الشارع ، هذه اللحظة ، غافلة عن السيارة المرعة المداهمة حاملة معها الفجعة . كانت تسرع الخطى ، وعيناها المخبولتان معلقتان بشبح سونيا . لم تكن ترى أو تلاحظ أحدا غير شبح طفلة صرعتها العجلات منذ سنين .

أحيانا كنت أزور متحف بوشكين فأنتقل بين قاعاته : من المصرية والاشورية والاغريقية .. حتى مدرسة باريس . وأمر على المتحف الفني الروسي فأتبع هذا الفن منذ نشأته حتى آخر لوحة حديثة . وحصلت على بطاقة لدخول مكتبة الاداب الاجنبية لاقضي ساعات فيها مع الف ليلة وليلة وطه حسين والحكيم ومحفوظ .

و ذات ليلة ذهبت ، كما اعتدت ، الى المسرح . وفي الممر المؤدي الى المدخل كنت ساخطا على نفسي . لم يكن معي غير تذكرة واحدة . فلقد بخلت أن أخذ اثنتين . وقد سألتني أكثر من فاتنة عن تذكرة زائدة . وفي الفرصة رأيت شابتين تتركان مقعديهما متجهتين الى البوفيت . كانت الاولى دميمة جافة . وكانت الثانية مرتفعة القامة ، جميلة وقوية .. شأن الروسية الجميلة ، قوية الوجه والتكوين . كان شعرها ينحدر طويلا متموجا فوق أكتافها . كانت تبسم لي ابتسامة عريضة ، ووجهها مقل علي ورأيتها توميء لي برأسها أن اتبعها . وكأنها تعرفني منذ اعوام

لم يكن في هياتها وثقتها بنفسها ما يذكر بأية حركة رخيصة . انما هو المرح والشباب يعبران عن حريتهما وانطلاقهما . تركت مكاني وتبعتهما . وحين أدركتها التفتت الي . فحييتها بلطف ودعوتها أن نجلس معا الى مائدة في البوفيت . فقبلت الدعوة في ارتياح . واتيت بشطائر الكفيار الاحمر وعصير الطماطة . طوال الجلسة لم تنطق صاحبها بحرف . في طريقنا الى القاعة اتفقنا أن نلتقي بعد انتهاء المسرحية . ورأيت أن اسبقهما لارتدي معطفي وأتظرهما عند الباب . وتبينتني في الممر بين الحشد الخارج : فأشارت بيدها محيية ، باسة في ابتهاج . وفي طريقنا الى الحافلة لم تقل صاحبها شيئا ايضا . كانت مشيخة عنا كالعاضبة .. فتركناها وشأنها . وكانت الجميلة مريحة باسة ، طوال الطريق ، مقبلة بوجهها علي . وهبطنا عند مترو مايكوفسكي . واتفقت معها

أن تلتقي غدا مساء في الساعة عند المدخل الى المترو • كان اسمها لينا : وهو اسم شائع بين الروسيات • ولم تنس لينا أن تلتفت الي مودعة يدها توديعة رشيقة باسمه • وكنت اذكر الخيول العربية الكريمة حين تنفض عنها أعرافها • في الامسية التالية كنت اقف في انتظارها ، وعيناى تترصدان الامواج البشرية ، يلفظها المترو موجة بعد موجة • بعد عشر دقائق رأيتها خارجة من المحطة ، مسرعة الي :

— لم أتأخر كثيرا ؟

— كلا • أنا سعيد بمجيئك •

— وأنا سعيدة ايضا •

وعاد وجهها مرحا ، باسم •

— أي مطعم تفضلين •

— أحب أن تقترح انت •

— مطعم باكو مثلا ؟

— اقترح حسن •

وكنا على مقربة منه • في المطعم كانت تقول :

— يعجبني هذا الجو الشرقي •

— وانت وردته البديعة •

كنا جالسين قبالة الفرقة الموسيقية • وكانت الاضواء حمراء ، والستائر

حمراء • • وكأنا في ضباب أحمر خفيف • حين اخذنا نرقص احسست بقوامها

لدنا مليئا بين ذراعي • كنت أصغر منها بعامين • وكانت تذكرني بهذا مازحة ،

مرحة كلما طلقنا تتحاور في أمر من الامور •

— لاتنس • • أنا اكبر منك بعامين •

أي انها اكثر معرفة بالامر مني • كنا في جلستنا في أوج الالفة والمودة •

وكانت تطيل نظراتها بأسسة الي • وقد أثار هذا اهتمام مائدة مجاورة • فكانوا
يتهايمسون ناظرين إلينا بارتياح •

— أتدري أنني سباحة ماهرة •

— وأنا سباح قدير • كدت أغرق مرة في بحيرة •

وضحكت إلينا

— لكنك لن تفرق معي • هل تصحبني غدا إلى مسبح موسكو ؟

سأحصل لك على بطاقة اشتراك • سنقضي أوقاتا مستعة جدا • • ونحن في المياه

الدافئة بينما الثلوج تتساقط ، والبرد قارس في الساحة • هل تعدني بهذا ؟

— أعدك • • انما بعد غد •

— وغدا أين ترى ستكون ؟

— مع إلينا •

— إلينا الثانية ؟

قالت هذا مبعدة وجهها قليلا ، ناظرة بارتياح متعمد • كانت تبتمس وقد

رأيتي أطلع إليها باعجاب • ورنوت فترة ، منجذبا بامتلاء شفيتها الشهوي

الجميل • وابصرت في عينيها الشهاولين الباسمتين وعودا كالبنة وتساؤلا •

قلت متذكرا خيول البراري الرائعة :

— بل معك انت ، وكل لحظة لو استطيع •

— دعنا ، اذن ، تتبادل قدحينا • أحب أن أشرب من قدحك •

وأنا أحب هذا •

أوصلتها حتى بيتها • واتفقنا أن نلتقي غدا ، في السابعة مساء في المكان

ذاته عند المحطة • وفي السابعة رأيتها تنتظرنني هناك • ودعوته إلى البيت •

وكنا في أمسية الخسيس • قالت :

— لماذا لاندع هذا إلى أمسية السبت ؟ انت تدري أن علي ان انهض

مبكرا •

فأطلقنا الى السينما . في صحبة صديقة أحس دوما بارتياح . فأنا في رفقة دافنة أنيسة . حين يتاح لي أن ادخل السينما وجيدا أحس بوحشة قاتمة . وكأني منعزل عن العالم كله ، وكأني الغريب الوحيد . لكنني الساعة مع ليلى الجميلة المرحمة . حين خرجنا من آخر محطة مترو حتى بيتها لم نتجه اليه . انما انحدرنا مع البولفار . لم يكن البرد لاذعا ، ولم تكن نحس بالبلل . كانت الاشجار مجللة بالثلوج . والمشي يحمل آثار خطى . وفي مرر منعزل تحت الشجر الابيض أوقفتها ممسكا بذراعيها . ثم أحطتها بيدي . وضممتها فحاولت الانفلات باسمة ، ممانعة برفق . وأخذت وجهها . وكنت أمر على ظهرها القوي براحتي . كانت تنأى بشفتيها كلما اقتربت منهما . كنت أقبل وجهها المتورد قبلا طويلة . وبعد تمنع منها كنت أقبل فمها ، أخذت شفتيها السفلى بين شفتي . وكانت حارة في الصقيع الساكن . كانت عينها شبه مغمضتين ، وكانت تقبلني وتشدني اليها . رغبة بالقبلات . اوصلتها حتى مصعد العبارة . وهناك رحت اقبلها في ركن من المدخل .

كان شذاها لما يزل عالقا بي ، وأنا في المترو الدافئ بين المئات من العائدين الى بيوتهم . وفي ليلة الاحد كنا معا في غرفتي . ما تزال المائدة حاملة البقايا من الزاد والخمرة . وكنا في اصطراع واعتناق فوق البياض الناصع . بياض الشرف ، وقد انحسرت الاغطية الزرق متكومة عند أقدامنا . في الليل الشتوي الطويل ، والثلوج تساقط حثيثا عبر النافذة ، والرياح تصفر لحنها النحيل المرتعش في الاعالي من المباني الهائلة ، في الحدايق الثلجية الملقرة ، في الساحات البيضاء الخالية ، كنت احتضن شابها العاري بين ذراعي ، واقبلها طويلا . وكانت تشدني اليها وتقبلني مرتجة ، متأوهة .

كنا نطلق احيانا الى المسبح . فنقضي ساعة أو ساعتين في المياه الزرقاء الدافئة . تحت الابخرة والاضواء المتلونة . وكانت تجد في السباحة لذة

عظيمة • كانت تلف رأسها بغطاء نايلونى أزرق ، وتندفع سابحة على ظهرها •
وتغري بي لان انقلب مثلها • كانت صديقة لعدد كبير من الفتيات والشباب •
وكانوا يهتفون بنا مرحين • كان يطيب لها كثيرا أن نكون معا في المسبح •
أحيانا كنت أضيق ذراعا بجرس الساعة المنبهة ، وهو يوقظها مبكرا للتحق
بعملها • فتقول غير مبالية :

— ينبغي أن تعود النهوض مبكرا •

وتجربني من يدي مازحة ، وترغمني لان انهض واشاركها في افطارها •
في الليل ، بعد العشاء ، كنت انصرف الى كتيبي • وكانت تتناول رواية ، بعد
اختيار ، وتقرأ • واخرجت ، مرة خفها وثوبها المنزلي من حقيبة قماشية :
— لن تضايق اذا تركتهما هنا •

كانت تنظر الى نظيرتها الطويلة الرانية • وتتصرف كالخطيبة • • واية
خطيبة رائعة هي ! انما أه • • وافزعتنى ، ذات ليلة ، وهي تضع يدي فوق
بطنها :

— اسمعك أن اكون حبلى ؟

واضافت وهي تنظر الى اضطرابي ضاحكة :

— هذا أمر لن يتم الا بعد اقتراننا • اية طفلة جميلة ستجيء من دمنا نحن

الاثنين ! كل صديقة تؤكد هذا •

كنت ادري أنني سأرمي بنفسى في برية المجهول • فما من قوة تجعلنى
اتزعزع لينا من طريقها الامن لاصحبها • كانت تقول :

— لكنك تستطيع أن تبقى معى مادمت تحبني •

— هانحن نستبق الزمن •

— طيب • أي خير في أن تزوج الآن •

— لكنني مازلت طالبا • • ولن نحصل على شقة •

- يمكنك أن تقيم معنا في شقتنا .
- كلا . لا أستطيع هذا .
- طيب . هذه الغرفة تكفينا نحن الاثنين .
- أأترعت من شقتكم المريحة لارمي بك هنا ؟
- على العكس . أرى أنها حياة لائقة . ومازلنا في أوج شبابنا . سنجعل منها غرفة ملائمة لاثنين .
- لاتنسي أن الحياة في الاسرة غيرها في الصداقة
- نستطيع أن نستمر في وضعنا هذا .
- كيف ؟
- تتزوج ونواصل عيشنا صديقين .
- وأي حلم أجمل من هذا ؟ لكن من يضمن أنك ستوافقين على مثل هذا الوضع بعد بضعة اشهر ؟
- ألم تر الطلبة المتزوجين من زميلاتهم .. يقضي الزوجان منهم في غرفة واحدة خمسة أو اربعة اعوام ؟
- أعرف هذا .
- فما اختلافنا عنهم ؟ بالطبع أنا أحاورك هكذا لاني أعرف انك تحبني .
- في وضع آخر ماكنت لاتقوه بكلمة مما سمعتني أقوله لك .. كما انني أحبك صادقة وانت تعرف هذا .
- سكتنا حيننا متأملين . وكانت عيونها غائمة . ورأيت دموعها فرحت اقبل عينيها وأضمها في حنان . قالت :
- مايحيرني هو انني أعرف حبك لي . لقد طار صوابك حين تلفنت لك أنني سأأخر عنك ثلاثة أيام . وكنت أريد لك ان تتفرغ للامتحان .
- لاحل الا ان تفرق .. أو تتزوج خلال هذه السنة . وماكنت أنوي أن

اتزوج . فأفترقنا مرغمين . ما دراني أنني ، بعد سنين ، سأحن اليها حيننا رهيبا ؟ كانت تبعث لي بطاقة تهنئة في الاعياد . وفوجئت ، مرة ، ببطاقة منها تهنئي برأس السنة الهجرية . لا ادري كيف اهتدت الى الامر . ونسيت أن اسألها عن هذا عندما التقينا ، صدفة ، بعد شهور قبالة البريد المركزي . كانت مع صاحبة لها غير تلك الدمية . وكاتنا سائرتين باتجاه الكوم . فتجولنا معا في المخزن الكبير المزدهم . في طريق العودة دعوتهما لنجلس ساعة في المقهى . وبعد المقهى رأت صديقتها أن تشكرني وتودعنا . في الشارع كانت لنا أخذة بذراعي . فسألتهما أن تتعشى في مطعم . فأجبت أن ننحدر صوب مطعم باكو . كانت واثقة من أنني سأطلب يدها يوما ما .

الان ، وقد من من الزمن مامر ، طالما أرى قائمة لنا العالية القوية الجميلة في هذه القائمة الرائعة أو تلك . طالما أرى شعرها الغزير المتموج عند هذه أو غيرها من الفتيات . كل خطوة قوية سريعة تذكرني بها . في الطائرة السوفيتية ، وكنت عائدا من موسكو في رحلة من الرحلات ، بعد زمن طويل .. وجدتني احديق ، فجأة ، بوجه المضيئة الجميلة الطويلة . وكانت هي الاخرى تحديق بي . وطال تحديقنا زما . وكنا ممتزجين في تحديقة غريبة . وكأنا كنا نبحت عن بعضنا منذ زمن بعيد . ولم تنفصل اعيننا الا بمشقة . كنت أرى لنا في وجهها . أما هي .. فماذا كانت ترى في ؟ بعد هذا كانت المضيئة ترنو الي ركانها تتذكر وجهها ما . ورأيت لنا ، مرة ، محدقة بي .. في وجه نادلة المطعم لي مشقة ، وكنت ضيفا في مهرجان سينما بعد سنين . وقد وجدنا نفسي فجأة ، منصعقين في تحديقة طويلة .. هي هذه التحديقة المباحته المستغرقة الممتزجة ، وقد غدونا شخصا واحدا . وما انفصلت اعيننا ، ايضا ، الا بعناء . ترى ما كان يشدها الي ؟

انني اذكر لنا جيدا هذه الساعة .. ايماءتها الضاحكة لي في المسرح ،

وابتسامتها العريضة في البوفيت ، وانحناءتها علي تقبلني ، وأنا في فراشي ،
مسرعة الى عملها • ما أقسى أن نجعل من انفسنا حكما على تصرفنا بعد تلكم
السنين !

أنا هو المرح والشباب ! وها أنا في صحة صديقين • نذرع الرصيف
الرحب حيال الجانب الخلفي من فندق موسكو • فالتقينا بمجموعة من
الفتيات • وها هي اكثرهن فتنة : صبية متوسطة القامة ، رائعة الكتفين • •
نبتسم لي ابتسامة طويلة • واجتزنا المجموعة ، والصبية تبسم لي • وبعد
خطوات التقت • فرأيتها واقفة مستديرة الي بابتسامتها الطيبة السخية •
فاعذرت من صاحبي ، وأسرت اليها • فالتقينا لقاء صديقين • قضينا الامسية
في المقهى مع الشبان • كانت طالبة أداب في الجامعة • وفي ليلة الاحد ، بعد
يومين ، كان عريها الممتليء الناعم الحار بين ذراعي • وكما التقت بغيرها ،
منصرفا عنها • التقت هي الاخرى ، بالطبع ، بغيري منصرفة عني •

في الصباح ، تحت الثلوج المتساقطة ، تسارع الخطى العابرة • • وكنت
اعبر الشارع باتجاه المعهد • وفي البوفيت اتجرع قدح الحليب بالكاكو • •
واتناول افطاري من البيض المقلبي باللحم • • أو من المقانق ولما يزل البخار
الدافئ يتعالى منها • • ويلذ لي أن اضع فوقها نقاطا من صلصة الخردل • في
عطلة الاحد كنت أمضي لاتعدى في مطعم الحي ، تحت الثلج • كنت أترك
المعطف والشابكا لدى عاملة المشجب • وادخل الصالة واقف في الصف فأخذ
حساء الخارجو ، وفي السائل الغليظ من الخضر تطفو شريحة ليمون وحبّة
زيتون • • أو أخذ حساء اللهانة أو السلانكا من الطاهي الاحمر الضخم • وكان
صامتا متأملا ، دوما ، فيما لا إدري • وأخذ النوع الثاني : الكتليت أو لحم
الضأن مع البطاطس من الطاهية الجميلة المتفجرة عافية • فاضع غدائي فوق
مائدة ما • وامضي الى البار لاجيء لي بقدرح بيرة تملأه العاملة من الحنفية •

أحيانا كنت اصادف جماعة من طلبتنا في المطعم ، وقد افرغوا عشرات
الاقداح . وكان جيلي بينهم غالبا . عادة ما كان او كاجين هو الممهد لهذه
الجلسات . كان شاعرا منغولي التقاطيع من ألتاي . كان ينفق منحه على
الفودكا في أقل من اسبوع . كان صديقا لجيلي . وما كنت لأميل الى جلساتهم
هذه . مرة رأيت او كاجين ، وقد افرغ قلدحه الاخير من البيرة ، ينتفض واقفا ،
مطلقا صيحة وحشية . ورأيت الروس يلتفتون اليه باسمين . وقد هتف احدهم
معجبا :
- أية روعة !

وكان فكرت ، الشاعر الاذريجاني ، اكثر السكارى شهرة في المنزل .
لم يكن مشاكسا أو معريدا . كان وديعا مسالما . كان ينهض مبكرا كل فجر
ويسرع الى المطعم المجاور خوفا من أن تهوته الكاشا . عصيدة الحليب
الغليظة . فهي ارخص أكلة في المطعم . ليس غريبا أن يحرص عليها سكير
مفلس مثل فكرت . غالبا ماتكون عصيدة الفجر هذه وجبة نهاره الوحيدة .
بمثل هذا البطن الخاوي كان يطوي نهاره مخمورا ، يبحث عني وجيلي ليقرا
قصائده الجيدة القاتمة . كان في خصام لايتتهي مع الناشرين . حين منح
فكرت مكافأة مجموعته الاولى « النورس » . عاش اسبوعا حافلا رهيبا .
وبألحاح منا اقتطع من المبلغ ثمن بدلتين . وافق روبراته حتى آخر كوييك
مقيما ، في غرفته ، حفلات سكر اسطورية .

تلك كانت مجموعة من الطلبة السكارى اغلقت بابا دون عالم الحكمة
والتعاليم . ألح فكرت أن احضر جلساتهم مرة . وحضرت متأخرا . حين
دخلت الغرفة أطلقوا صيحات فرح . وتنازل لي طالب عن مقعد مريح . لم
تكن الكؤوس كافية . كان بعضهم يتجرع الفودكا من صحن عريض من
صحن المائدة . وكان يشرب بارتياح ، وكأننا الفودكا لا تشرب الا بالصحن .

وكان آخر يفرغها في فمه المفتوح من عنق الوعاء الألمنيومي ، وعاء الشاي الكبير . حين انتهت الفودكا والروم والكونياك جاءوا بالسيرتو . وتوسلوا الي أن اتذوق قليلا منه . فأخذت جرعة من القينة ، واحسست بحنجرتي تحترق : كرة من اللهب تتوقف محرقة ممزقة . والثلج يتساقط راقصا مدموما . والزوبعة الثلجية تتحب فوق السطوح . والجلسات تطول ، في الغرفات ، مع الشاي والتبغ . وأحس بالاختناق فأفتح الكوة لالسنه الزوبعة الثلجية المتلوية . كان جريباخين السكر الاعجف ، زميل جيلي الاخر ، القادم من سييريا ، مفلسا متحرقا لان يشرب قينة الكولونيا . ويدق الباب على جون . فيقدم جون ، ممتعضا ، قينة كولونيا خضراء ويرفض السكر الاعجف . لقد جاء طامعا بالآخري ، بالزجاجة الطويلة المترعة . فيعرض عنه جون ممتنعا . ويسرع السكر الى غرفته . . . ليقتمح جلسة الشاي الهادئة عند جون ، مهددا ببنديقة صيد عتيقه . ويتخشب جون ذاهلا والبنديقه مصوبه اليه . ويرفض أن يتنازل عن زجاجة الكولونيا الطويلة . وفي العمق من الليل ، في الطابق الرابع تنفجر اطلاقه مدوية . لقد وجد السكر نفسه يائسا فأطلق على النافذة الموصدة . وتسرع الميليشيا لتجره الى السجن . ويفصل بعدها من المعهد فصلا مؤبدا . ويترد من المدينة .

كانت الثلوج تدوم راقصة متلوية . والزوبعة الثلجية تتحب ملتاعة عند النافذة . وأنا في غرفتي اقرأ لوبادي فيجا أو كالديرون . واتجرع الشاي الحار . ونافذتي تفرع بالحاح . فأظنها الريح . واني لاصغي . . فأسمع دقا جليا واضحا . لقد اعتاد الناس أن تطرق ابوابهم عليهم . فأني شيطان يدق علي نافذتي ، في الطابق الخامس ، ليزورني في منتصف الليل الثلجي العاصف ؟ فأترك كتابي لأفتح الكوة واتطلع . في الزوبعة الثلجية المتلاطمة . . اري احدهم عند نافذتي ، متعلقا بسلم الاطفاء ، حاملا معه ملف اوراق ضخما ،

وهو يهتف بي لان أفتح النافذة • هو ذا أحمد القفقاسي يحل علي ضيقا من النافذة في منتصف الليل !

لاوقت للإيضاح • فتحت النافذة ، وتناولت ملفه أولا • ثم اعنته ليهبط في غرفتي مع الرياح والثلوج • واسرعت أوصد النافذة •

— ماذا جرى يا أحمد ؟

— المناوبة اللينة •

— اتغامر برأسك هكذا ، متسلقا هذه الطوابق الخمسة كلها في الزوبعة

الثاجية الرهيبة ؟

— وما العمل ؟ والمناوبة تترصدني عند المدخل ؟

الامر واضح الان • لم يكن احمد من القاطنين في المنزل • كان صحفيا من القفقاس يحاول كتابة الرواية • كلما جاء موسكو حل ضيفا على اصدقاء من طلبة المعهد الجنوبيين • وأحمد يتردد كثيرا علينا حتى اخذنا نحسبه واحدا منا • وضاعت المناوبات ذرعا بتردده علينا • غالبا ما كان يجيء مخمورا بعد منتصف الليل فيزعجهن بطرقاته • كن يزجرنه حيناً ويحذرنه حيناً آخر • ثم منعنه من الدخول • فلم يجد من سبيل غير سلم الاطفاء ليتسلل حذرا الى اصدقائه • كنت انظر الى ملفه واضحك : كان هذا عمله الروائي يدور به على الناشرين • تناول احمد ملفه ، وانسل ، متلقا ، الى غرفة زميل له •

كنا في عطلة نصف السنة • وكنت أخذا طريقي الى مسرح غوركي • وهو في جانب من الكرملن • كنت متفقاً مع فلاح على الذهاب معا لمشاهد عرضاً مسرحية « في الحضيض » • واعتذر فلاح عن المجيء ، تاركا تذكركه معي • فذهبت وحدي تحت الثلج المتطاير الخفيف •

كنت واقفا في المر الى المسرح تحت العقد الحجري المقوس • كان المسرح مقفرا شبه معتم • وكنت انتظر أن أسأل عن تذكرة زائدة • ماكنت راغبا :

بالطبع ، ان ابيع تذكرتي لرجل أو فتاة دميمة . اني لارقب أن تتقدم مني
امرأة شابة أو فتاة من الفتيات الجميلات . كنت واقفا انتظر ، وقد مر وقت .

فرأيت صبية حلوة تقترب مني :

— عندك تذكرة زائدة ؟

— اجل . أنت وحدك ؟

— بلى . وحدي .

فأخذت التذكرة لتقرأها . ثم اعادتها الي باسمة ، وفي وجهها ألفة ،
وعيناها تتطلعان الي بارتياح :

— هذه لمسرح غوركوي . وأنا أود ان ارى قصر المؤتمرات .

وابتعدت عني لتقف ، عن قرب ، منتظرة . كان وجهها جميلا عريضا ،
ومعطفها الازرق يلف قواما متوسط الطول ، فتيا متلئا . كانت في التاسعة
عشرة .

أما ساقاها فكانتا أعجوبة للناظرين . ومر وقت والصبية تنظر ناحيتي
متبسمة . ثم وجدتها تقبل الي وفي صوتها وحرركاتها الفة :

— طيب . سأخذ تذكرتك .

كان العرض سيبدأ بعد قليل . فأسرعنا لدخل . كانت تبسم في وجهي
قائلة :

— لكنها مسرحية قديمة . كنت اريد الدخول لقصر المؤتمرات .

عند المشجب اعطيتي العاملة رقما واحدا لمعطفينا . واخذنا نرتقي
السلالم المرمية مسرعين ، وهي تمد يدها بضمن التذكرة :

— دعينا من النقود . يكفي أن نشاهد العرض معا .

— خذ ارجوك .

— كلا . لأهية لهذا .

— خذها .. وفي الاستراحة يمكن أن تشتري لنا شوكولاته .

لم أخذ النقود بالطبع . وفي الصالة كانت تجلس الى جانبي أليفة كالهرة . كان شعرها قصيرا ، وقوامها المتليء المتكامل يذكرني بافروديت . اكتافها متكورة رجة ، وصدرها العريض المتليء يعدني بالذ الليالي واسعدها . كان تكوينها البديع ملفتا لانظار النساء انفسهن . مازلت اذكر السيدة الجالسة وراءنا ، وهي ترنو الى كتفيها متأملة معجبة . وفي الاستراحة انطلقنا الى البوفيت . ورحنا نمتص البوش المتع الحلو ، خلال القشة ، متلذذين . واحسست بدوار خفيف .

اخبرتني انها من كييف . وهي طالبة في المعهد الموسيقي ، واختصاصها العزف على القيثارة . امها أرمنية وابوها روسي . كانت تصرف بألفة وكأنا أصحاب منذ زمن بعيد . في الصالة ، وهي تحدثني ، قبيل المشهد الثاني ، كانت تتقرب بوجهها مني ، وكشفها الدافئ المتليء ملامس لي . كانت في زيارة الى موسكو مع صاحبات لها ، وتقيم في شقة لاختها القاطنة هنا . بعد العرض كانت الصفوف طويلة متزاحمة في ممر المشاجب . فأقترحت قائلة :

— لندع معطفينا حتى تخف الزحمة . ولنقف هناك .

واشارت الى جانب من الممر . وسألتني :

— ما اسمك ؟

فأجبته .

— واين تدرس ؟

فأجبته . وسألت :

— وانت .. ما اسمك ؟

— لن اقول .. احزرت .

— لكننا الاسماء كثيرة .

— انت مطلع على شعر جو كوفسكي • أسمى عنوان قصيدة له •
وذكرت اسمين أو ثلاثة • وكانت تهز رأسها نافية • لا ادري كيف غابت
عن بالي قصيدته الشهيرة « سفيتلانا » • ورأتني متحيرا •
— سأقول لك •• اسمي سفيتلانا •
— لا ادري كيف نسيت • انها احب قصائد الي •
— فكيف لم تتذكر اذن ؟

— لنذهب • لم يعد الصف طويلا •
كنا نقطع الساحة الحمراء متمهلين • وألحج يتساقط رطبا ذائبا • كانت
الليلة دافئة • ومن فوقنا تنوهج الانجم الياقوتية في ذرى ابراجها • كانت
الساحة مبقعة بالثلوج • ثم مررنا بأبواب الكوم الكبيرة المقفلة ، منحدرين
نحو مترو سفيردلوڤ • فجأة سألتني :

— انت تعيش في شقة ؟

— كلا • لدي غرفة •

وأضفت قائلا :

— هل استطيع دعوتك الليلة ؟

— أتعيش وحدك ؟

— أجل •

— طيب • سأتلفن لاختي أولا •

ودنونا من اكشاك التلفون العديدة المصطفة على جانب من واجهة
المحطة • وفتحت الكشك • ثم جاءت باسمه :

— لنمض •

أوقفت التاكسي وانطلقنا • في الطريق كنت أمسك بيدها في تودد
وحنان • وهبطنا قبالة زليوني دوم • واجتزنا الشارع • كان المصعد عاطلا •

فأخذنا نرتقي السلالم حتى الطابق الخامس • وكنا نضحك • كان الممر مقفرا ،
والسكون شاملا • وفتحت الغرفة • اشعلت ضوء السقف ، واعتها في نزع
معطفها • وعلقت معطفنا • واجلسها الى المائدة الخشبية العارية • ومضيت
لاعد الشاي • كنا جائعين • وكانت الثلوج تنهمر عبر النافذة • والخطى
المتباعدة تخفق عاليا فوق الارض المتجلدة ، آتية من الشارع • كنت نادما على
تصرفي بزجاجة الخمر المخترنة • ماكنت أعلم ان فلاحا سيعتذر • قلت أسفا
بحق :

— أسف ياسفتيلانا •• لانيذ لدي •

— ولماذا النيذ ؟ الوقت متأخر •

— اسمعي • نحن جائعان ، ولم نأكل شيئا في بوقيت المسرح •• لقد
نسينا • اسمعي •• عندي علبة من الزبدة ورغيف من الخبز الاسود • أنا
لا ابتاع غير هذا النوع من الخبز •• سنعد منهما ، مع الشاي الحار ، شطائر
طيبة •

— جيد • هذا عشاء ممتاز في هذه الساعة المتأخرة •

اتذكر أننا كنا مبتهجين ، متلذذين تماما بخبزنا وشاي • كانت رجة
رائعة • وقد أخذت الثلوج تزداد سرعة وانهمارا • والرياح تنقل نفما را شيا ،
ناحلا ، فوق المدينة الهائلة النائمة • عبر النافذة كان الصقيع ، وفي العرفة
كنت ألق كنفها بذراعي ، واقبل وجهها وشفتيها • وفي قبالتها •• وهمستها
رقة بحاء كريمة ، وعنقها ابيض جميل • وكان ذراعاها يشدانني اليها •

اجل • في الليل ، على فراشي ، طلبت من تحبه نفسي •• طلبته فوجدته •
كان مصباح السقف الباهر مشتعلا • وكانت افروديت حية • خارجة توا من
لجة البحر ، متقلبة بين ذراعي • كان فيضها الجسدي الابيض الناصع النقي
الباهر ملء فراشي كله • كانت مرمر حيا حارا لي • وكانت بامتلاء فخذها

وذراعيها وصدرها وتكرينها البديع هي افروديت نفسها كما رأيتها في المتحف .
كنت أمس بأصبعي نهذا الممتليء المتؤب .. فأحس به كالكرة المنفخة
الصلبة . وكانت تشع صفاء ايض تقيا .

نهضنا من نومنا ساعة الضحى . وكنا جائعين . في الشارع .. كان الثلج
يتساقط ، والريح ترش وجهينا بالهشيم المتطاير . كانت الاشجار متغطية
بالثلج ، والطرق مغمورة به . وكنا نحس به هشا ، وثيرا تحت أقدامنا . كنا
متجهين ناحية المطعم المقابل ، وهي أخذة بذراعي . فدفعت أبواب الخشبي
الثقل ، ودخلنا المطعم . فأخذنا البرارينا والسلطة والخارجو والبرتقال .
وجئنا من البار بقدحي بيرة . كان حساء الخارجو حارا ، شهيا جدا بعد جوع .
وكانت البرارينا طيبة بالبطاطس والبصل ولحم الضان المقلي والخضر المتنوعة .
وكنا نتجرع البيرة الباردة بتلذذ .

ورجتي أن نزور متحف بوشكين . فمضينا الى هناك . ورحنا نتجول
من قاعة الى قاعة .. متأملين من التصوير والنحت نماذج تمثل الفن الانسا
عبر عصوره المتعددة . كانت متعبة قليلا ، فأجبت أن نستريح فوق مصطبة .
وفي غفلة من حارسه القاعة اعطتني شفتيها لاقبلهما . ثم اخرجت من حقيبتها
قطعتين مغلفتين من الشكولاته . واطعمتني احدهما بيدها . ثم خرجنا الى
الشارع تتشى تحت الثلوج المنهرة . وقضينا ساعة في المقهى . شربنا شيئا
من الكونياك والقهوة ، وانحدرنا صوب سينما روسيا . فجلسنا في الصالة
الصغيرة الملحقة بالسينما . وشاهدنا أفلام كارتون . من بينها « السحابة
العاشمة » لناؤم حكمت . وفي ظلمة الصالة كانت تهمس ، متقربة بفمها مني :
— قبلني .

ثم أوصلتها الى المنزل حيث تسكن اختها . واتفقنا على لقاء في الامسية
التالية في مقهى موسكو . ووقفت انتظر الباص . بعد دقائق رأيتها تعود شبه
راكضة الي :

— أنا ذاهبة لاشترى خبزا • وأحببت أن أراك • سأظل واقفة معك حتى
تركب • يعجبني أن أقف معك •

وقد أثار عودتها الراكضة الي انتباه الواقفين • فصاح احدهم ملاطفا
ناظرا إلينا بارياسح :
— لوبوف •• لوبوف !

أي : الحب •• الحب ! ✕

في الامسية التالية كنت انتظرها في المقهى • وجاءت فرحة بلقائي • كان
بلوزها الصوفي الاخضر الثقيل ضائقا بامتلاء صدرها • وكانت الاعين تتأمل
ساقها باعجاب • وجاءت النادلة بقائمتها • فسألت سفيتلانا أن تختار • قالت :
— أحب أن اشرب عندك •• هناك •
— طيب • لنشرب كأسا هنا في الاقل •

وطلبت قديحي شمبانيا • كنا تتصور حبا • فركبنا الحافلة الى المنزل •
وكنت قد أحضرت الى غرفتي خمرا وجبنا وسجقا وسمكا معلبا • فأقمنا حفلنا
الصغير الجميل • كنا نصغي الى موسيقى الكرامفون القديم •• الى الرومانس
الفجري : العينان السوداوان • كان شائعا في حانات اوائل القرن • في هذه
الاغنية لوعة كاوية ، وأهات طويلة لفجرية عاشقة تتحرق هوى ورغبة :

إيتها العينان السوداوان

العينان المحرقتان ،

العينان المتقدتان رغبة ••

•• وعدنا ثانية الى المائدة • لم تكن ترتدي شيئا غير السليب تحت

مصباح السقف القوي • كان جسدها الابيض الناصع •• الدافق المتليء
اكثر سطوعا وتألقا من ضوء المصباح • وعلى صدرها يتوثب الهرمان
العاجيان • كانت راختي ، كلما امسكت بهما ، عاجزين عن احتواء فيضهما •

وخفت أن تبرد • فارتدت بلوزي الاحمر القاتم • • فضاقت بامتلاء صدرها •
وطرق الباب :

— ممكن أن ادخل ؟

هذه صديقة لزميلي الاوزبكي حكيم • لم تشأ سفيتلانا أن تتواري ،
وقد عرفت بالطارقة امرأة ، وكانت شبه غارية • ورأتها الزائرة • فانسجبت
معتذرة ، هامة لي ، معجبة بالعري الدافق :

— أين وجدتها ؟

كانت راغبة بقبضة شاي • ورأيت الشرر في عيني سفيتلانا • كان
ينبغي أن اوضح لها الامر • كانت الثلوج تنهاوى حثيثا تلك الليلة • وكنا
في حفلنا الجميل • وأحببت أن تسمع ايديت ياف • فوضعت اسطوانة كانت
الاغنية عن مغنية تتسول بعد انقضاء صيتها • أية تأوهات ! وأي رثاء في صوت
هذه المغنية الفنانة ! وفي الدفء الغامر تبعته الخمرة والحب ألفت سفيتلانا
بلوزي عنها • وأدنت كرسيها الى جوارى • كنت اتعبد يدي وشفاهي
اشعاعها الجسدي في نقائه وصفائه • وكنا نسمع الريح تصفر وتنفلت عاليا • •
بعيدا •

صباحا كنا في مقهى الشباب • كان فلاح وماهود جالسين ، فأنضمنا
اليهما • وكنا نشرب الشاي بالحليب ونأكل الاومليت • ثم مررنا بشقة أختها
لنأتي بحقيقتها الى غرفتي • عشنا معا اسبوعا • وجاءت نهاية العطلة • وسافرت
الى كييف في قطار الليل • ووصلتني بطاقتها بعد أيام • وكنت في شاطيء غير
شاطئها • كانت الشياطين الرائعة تطلع رؤوسها في أوديتي المظلمة • لم اعد
راغبا بالصبايا الناعمات • لم اعد راغبا بالصبايا وقبلاتهن فوق المصاطب ،
وانتظارهن عند باب سينما • كنت متولها بعري الثلوج المحرقة ، بألهات
العري الدافق في الثلاثين ، ألهات الخطى المتشاقلة والكتفين الرحين ، والنظرة

المتوقدة .. نظرة راغبة طويلة متأججة ، ملكية ناطقة بجمالها وامتلأها
الرهيبين ، نظرة متغلغلة تصعقني في مكاني ، وتجذبني من محطة الى محطة .
كنت عاشقا ، متولها باستاذة شابة في المعهد .. امرأة في الثانية والثلاثين ،
من ألهاث الخطى المتأقطة ، متزوجة من بروفييسور شيخ ، ولديها طفل . كنت
أرى نظرتها الراغبة المتأججة .. واطردد . مامن سبيل يحملها الى غرفتي تحت
أعين الطلبة .

كل فرصة بعد المحاضرة كنت انتظر مرورها في الرواق ، اتطلع اليها
باشتهاء محرق ، الى اكتافها الرحبة والظهر يضيق قليلا عند الوسط ، وينصب
موجا ممثلا رائعا . كلما أتيت لحظة لان اتكلم تركتها تمر دون أن اتحرك .
كانت منتظرة أن اتقدم ، أن اتبعها الى الشارع . فأغاظها ترددي هذا . حين
التقي ، مباغتة ، بنظرها التائقة المتلظية رغبة ، محدقة بي ، تغض من طرفها ،
وتشبح بجيدها ، وفي وجهها اعتداد . احيانا تطيل نظرتها الي . في عيونها
توق ورقة عظيمة .

مرة كنت ، والجرس يدق ، في ردهة غير ردهتنا ، اخط على السبورة
لاهايا في حديث مع الطلبة . ودخلت هي . فرأيت وجهها فرحا بي ، بعينيها
ضاحكتين :

— أهذا انت ؟ ما الذي تفعله هنا ؟

— لاشيء .

فأمرتني ، ضاحكة ، أن اخرج . فأنصرفت من الغرفة مغلقا بابها . لكنني
عدت لافتحه . لادري أية قوة دفعتني لان أعود . كنت مطلا بوجهي عبر
الباب . فأسرعت بوجهها الضاحك لتوصده . أية بهجة في وجهها ! لكنها لم
تغلق الباب تماما . أبقت فتحة تخرج منها وجهها الي . كان وجهها قريبا مني ،
محتجبا عن انظار الطلبة . والمر خاليا كان . أية لبرة في عينيها الباسمتين ،

المصدقين بي ! لم أر مثل هذه النظرة المحبة ، المتغلغلة عميقا في القاع من القلب
والروح . لم تقل نظرتها : انني لك ، فحسب . انما كانت تقول : نحن كيان
واحد ، نحن روح واحدة ، نحن واحد وليس اثنين . اقتلني اذا شئت افعل
بي أي شيء تريد ، فأنا انت .

✱ في هذه البرهة .. كنت أستطيع ان افعل أي شيء بها ، أن أخذ بيدها
وامضي بها الى نهاية العالم ، الى نهاية الزمن ، الى نهاية النهايات ! كنا نظرة
واحدة ، نظرة كائنين هما كائن واحد . أكانت رغبة ؟ توقا ؟ رقة لاتوصف ؟
حبا عاصفا ، ملتها ، أكلا الروح والعصب ؟ كانت شيئا آخر ، غريبا عن هذا
العالم ، شيئا هو السر الاعظم في الحركة الازلية الابدية لهذه الكواكب
والشموس . اقبلتها تلك البرهة ؟ كنا مكتفين تماما ، لكننا نتوق . كنا فرحا
صافيا خالسا . أمسست شفقتها بفي ؟ أم انني لم أمس الا أنفاسها العذبة ؟
واتمت البرهة ، واتزعت نفسي من بين عينيها ، متبها الى الممر . وعدنا الى
عالم الآخرين . وانسجت بوجهها مني ، فأسرعت الى ردهتنا .. عدت الى
المحاضرة والطلبة ، عدت لاصفي واكتب ، لاشرب وأكل ، لارتدي المعطف
والركب الحافلة ، لاذرع الارصفة وادخل المقاهي ، واقف في الممر متطلعا الى
وجهها الجميل صامتا ، اتطلع باشتها محرق الى صدرها واكتافها الرجة
والظهر يضيق قليلا عند الوسط لينصب موجا . والتقي ، مباغتا ، بنظرتها
المتأججة رغبة ، محدقة بي .. فتشيع ، بعد جهد ، بطرفها غني ، وفي وجهها
رغبة وتوق ، وفي وجهها اعتداد . ويمر الثلاثاء والاربعاء .. وتمر الخطى
والوجوه ، والثلج يتساقط .

وفي هدأة الليل منفردا كنت عند مائدتي الخشبية العارية .. اقرأ الشاعر
القروي كولتسوف أو بايرون أو فلوير . وكان الثلج يتساقط ويدوب .
ركنت أحس بالخضرة الكامنة النائبة ، أحس بأنفاسها في الرياح الندية
العريضة .

مرة دعيت مع جيلي وجون لنقرأ شعرا في أحد المصانع . جاءت الى المنزل فتابان في اول الليل . فأصطحبتنا الى مصنعهما . احدهما عذبة مليحة ، في قوامها طول ولدانة . ورأيت في نظرتها الي وحديثها معي رقة وتعاطفا .

كنا ثلاثتنا جالسين أمام القاعة المزدهمة . وكانت الفتاتان جالستين وراءنا . ورغبت المليحة منهما أن تشرب . وكان أناء الماء فوق المائدة آمنا . فأسرع جيلي ليصب لها الماء في القدر . فأعترضت هي قائلة :
— كلا . . كلا . دع فلانا يفعل هذا .

كانت تقصدني . وفي قولها اندفاع وسرعة . فأرجع جيلي يده صامتا . لكن لماذا كان هذا الاعتراض المفاجيء غير المريح ؟ لعلها شئت أن تسبغ علي لظفا خاصا ! وتذكرت أنها كانت لطيفة معي في طريقنا الى المصنع . حين وقفنا لننصرف ، وقد انتهت الامسية ، قالت لي غاضة بصرها ، وعلى شفيتها ابتسامة :
— في القاعة الثانية . . حفلة رقص .

أردت لصاحبي أن يبقيا فأعتذرا . كانا راغبين بالعودة الى المنزل . فمضت بي الى الصالة ، أخذة بذراعي في لطف . . مثلما كانت تفعل هذا في الطريق . وتجمع حولنا حشد من الصبايا لاوقع في دفاترهن الصغيرة . وفي الصالة الثانية كنا نرقص . كان اسمها تانيا . وكنت أحس بلدوتها ودفتها وارتياحها الي . وكنا نرقص معا اكثر الرقصات . بعد الرقص أوصلتها حتى بيتها . واتفقنا أن نلتقي غدا في السابعة مساء ، عند مترو ليرمتوف . وفي السابعة وجدتها تنتظري هناك . ودعوته الى مطعم . لكنها راغبة أن نشاهد فلما :

— لماذا تكلف نفسك كثيرا .

بعد رجاء مني قبلت أن تقضي أمسيتنا في مقهى . وانطلقنا في شارع

جانبي لاعرفه • ودخلنا مقهى في الواحة من مبنى هائل • ودعوتها في اللقاء
التالي الى غرفتي ، فأصرت هي على السينما • وجاءت في ليلة الاحد الى
غرفتي • ومع الخمرة والرقص ما استطعت شيئا معها غير القبلات • كانت
تتمنع وتتوسل أن اكف • كنت أوصلها الى بيتها وأعود وحيدا • وكنت
أحس بالتعب والفراغ ، في باص لأعرف من اين يأتي ، في طرق لا اعرفها •
تلك جولات مرهقة لاطائل من ورائها • ودعيتني لزيارتها صباح الاحد •
فمضيت حاملا في حقيتي زجاجة كونياك • • فلعلها تكون وحدها • وفي الشقة
كانت أمها واختها الصغيرة معها • وجاءت أمها بالشاي • وكانت طيبة ، مرحة
بي • وتركنا وحدنا لتأخذ طفلتها في نزهة الاحد •

أخرجت. زجاجتي ووضعتها فوق المائدة • فوجدتها تضحك منطلقه •
غير متوقعة مثل هذا الاقتراح :

— أنت حقا غريب الاطوار ! أية متعة تجد في أن نسكر الان • والساعة
لم تتجاوز العاشرة صباحا ؟

وأبعدت القينة عن مكانها • قلت :
— وماذا ترى سنفعل ؟

— سنفعل اشياء كثيرة • تنفرج على التلفزيون • نقوم بجولة في حينا
لاريك منازل خشبية قديمة ، منازل روسية لما تزل مأهولة • ونعود لتغذى
غداء روسيا •

هذه فتاة جادة ، متعبة ! لكنها عذبة جميلة • وهي تودني كثيرا • وقريبا
سيلوح الانط الاصم • كانت نزهة رائعة في الصقيع الصباحي الرائق •
وكان غداء طيبا حقا • وقد طاب لي حساء اللهانة • وكانت أمها تقول ، وقد
ابهجها اعجابي بحسائها الروسي :
— ارجوك • • كل المزيد منه •

كان الطعام ممتعا مع الكونياك بعد الجولة في الصقيع . وبعد الفداء
كانت أمها منطلقة بطفلتها في زيارة . فكانت الشقة خالية الا منا . وكنا مرحين
في انطلاقة الشباب الحارة . وكنت أقبلها وهي لدنة دافئة بين ذراعي . فرجوتها
أن تسدد لاقبلها ، وسادها .

— اتعدني ان تكون عاقلا ؟

— اتريني بلا عقل ؟

— اوه .. كلا . اعني ان تكون هادئا .

— الست هادئا ؟

— اوه .. اعني .. لاشيء غير تقيلي .

لكننا معا في فراشها .. معا في اعتناق واصطراع . كانت تمنع جادة
متوسلة أن اكف . وكنت انتهل ريقها العذب ، راغبا متوددا . ووجدتها بعد
قليل تقبلني .. قبلا ملتبه ، وقد كفت يداها عن أن تصدا . أي عطاء كريم
دافق بعد تمنع !

كنا نلتقي مرتين كل اسبوع . وكان الحائط عاليا ، هيبا هذه المرة .
كانت الثلوج تتساقط بين حين وآخر . وكنت أعود الى غرفتي مع اول الليل ..
لاقرأ هنري هابني ولوعته في حب ابنة عمه الثرية الجميلة .. أو اقرأ جورج
ساند بلا حب ، واتمتع بقصائد روبرت بيرنز . وتصفو بروحي وتبألق ساعات
مع سونيات شكسبير وبتراارك . واتمزق أسى مع الامير ميشكين . أو اعود
من شارع غوركوي ، فرحا ، بنسخة نادرة أو قديمة عثرت عليها ، صدفة ، في
مكتبة : اوراق العشب لوايتمن .. قصائد غوته .. اعمال بايرون .. او
مجموعة اعمال يسنين النافذة منذ عامين .

مرة كنت في مكتبة قرب البريد المركزي .. مكتبة كتب مستعملة . كنت
اتردد عليها كلما كنت مارا هناك : ارقب الناس يدفعون بكتبهم المتنوعة لقاء

روبلات قليلة ، واتفق مع البائعة لانتقي منها ماأريد . فاذا بأحدهم يهمس في أذني كالساخر :

— ليست هذه بالكتب النادرة •

والتفت لارى كهلا اعجف في معظم طويل ، في عينيه الصغيرتين مكر.
رجل السوق السوداء الصغير • قلت :

— اعمل معروفاً ودلنی علی کتاب نادر •

— الكتاب النادر في مكان ما .. وعلينا أن نبحث أيها الشاب .

— یخیل لی أنك تعرف •

• - معي يسينين •

قالها هاما ، محاذرا ، مشيرا لان نخرج . وبعدنا عن المكتبة بعدا مبالغا فيه . اجترنا مسافة حتى مترو ماركن . ووقفنا في مدخل المحطة حيث تصطف اكشاك التلفونات . واخرج ، في حذر بضاعته المخبأة . وارتد أن افتح الكيس الورقي لارئ المجلدات الخضراء الخمسة . لكنه رفض هذا خائفا ، فمانعا يديه .

— کم خرید

— عشرة روبلات •

كان هذا ضعف السعر المحدد تقريبا .. بل أقل من الضعف . انما هو ثمن بخس . سأبحث اعواما في موسكو كلها دون أن اعثر على مجلد واحد من هذه الاجزاء الخمسة معروضا في مكتبة ما . اعطيته الورقة الوردية مسرعا . وعدت الى المنزل ممثلا فرحا . كان لهذه الصفقة وقع رهيب بين الطلبة . كنت الحائز الوحيد بينهم على هذا الكنز .

كان الثلج يتساقط بين حين وآخر ، ولما يزل متكوما في اخايدِهِ حَيَالِ
المنازل . وتحت الثلج كانت تانيا أخذة بذراعى في طريقنا الى السينما أو

المسرح • وكنت ارى عيني تانيا المتسائلتين المهمومتين فأحزن • وتحت الثلج
تمر ألهمات الخطى المتثاقلة • • يدخلن هذا المخزن أو ذاك ، يخرجن من هذا
النفق أو يختفين في غيره • أو يسرعن بهذا الامتلاء القوي الى الحافلة أو
الباص • وكان آخر لقاء مع تانيا حزينا متجهما • وظلت تذكرة السينما طويلا في
يدي • ورأيتني عاجزا عن أن افعل شيئا • فأطبقت على التذكرة حنقا ويأسا ،
والقيت بها الى الريح والثلوج المتسارعة • ويجيء الليل موحشا باردا ،
والغرفة مقمرة ، خالية من الضحكة الاثوية الصافية • • كنت اتطلع وحيدا
الى نافذة مشتعلة مقابلة ، وأسمع الموسيقى آتية من هناك •

كنت مسرعا لادرك الحافلة صباح الثلاثاء • كنت ذاهبا الى المعهد لاحضر
الندوة الشعرية الاسبوعية لشعراء الكورس • وانطلقت الحافلة قبل أن
ألحقها • فرأيت امرأة جميلة متبرجة تضحك لي • • أو تضحك علي • كانت
تنحني برأسها وكنت فيها في غنج أو سخرية ، فاطرة السي نظرتها الضاحكة
الساخرة • انني اتذكر هذا الوجه القوي الجميل • انما اتذكر وجهها شاجبا ،
مرهقا فاتنا ، غير هذا الوجه المتبرج بالزينة وحمرة الشفاه القانية • كانت
تضحك ، محدقة بي ، منحنية في غير ما طيش أو تهتك • اجل ! هي نفسها !
امرأة طويلة ، قوية ، ممتلئة ، صاعقة الجمال ، من ألهمات الخطى المتثاقلة ،
ألهمات الثلاثين • اقتربت منها :

— صباح الخير •

— صباح الخير • كنت حريصا على اللحاق بالحافلة • • وكأننا هي

الاولى والاخيرة • فيم هذا كله ؟

— ما كنت أعلم انني سأراك ثانية • • كنت سأتوقف بالطبع •

— اتذكرني ؟

— اجل • واتذكر دوما خيبي معك •

- وأنا اتذكر حواينا ايضا • أمازلت غاضبا مني ؟ —
- كلا • لم اعد غاضبا • اذاهبة الى مركز المدينة ؟
- لا أقصد المركز تماما •
- هل استطيع مرافقتك قليلا ؟
- قليلا ؟
- أعني ماتسمحين لي به من وقت •
- لكنك مسرع الى معهدك •• وربما الى موعد •
- لا موعد لدي •• ولا محاضرات •
- كيف ؟ أفي عطلة اتم ؟
- كلا • انما هي ندوة • واقدر أن اتأخر عنها •
- طيب • أنا في اجازة • وأحب ان اتجول • ومادمت راغبا ولديك وقت
- سنتجول قليلا •• أليس كذلك ؟
- وكانت تبسم في وجهي •• ابتسامة تقول لي انها تدرك مقاصدي •
- كانت مرحة ، باسمة طوال الوقت • ودعوته الى تكسي • فأجابت وهي تسعين بي ، وفي كلماتها نبرة الاخت الكبرى أو الاستاذة :
- ولماذا تكسي ؟ لسنا على عجل •
- كنت اتذكر خيبيتي معها ، ورفضها دعوتي أنذاك ، وقسوة ردها علي •
- أنذاك كنا في الشتاء ايضا • كانت السماء والارض متجلدتين ، والريح قارسة رهينة • كنت أحس بالتجلد في كل شيء • وكان الثلج صلبا قاسيا تحت قدمي • كأن يخيّل لي أنني في جهة ما من انحاء القطب الشمالي نفسه • وكنت أشعر بالسكون الجليدي المرعب • وكان الناس يسرعون الخطى شبه راكضين • كنت في مخزن الحي اتسوق حاجة ما • ورأيتها هناك • هي ذي امرأة من ألهات العري الرهيب ، عري الثلوج المحرقة • كانت ساقاها بامتلاء

رائع لم تستطع عيناى انفكاكا عنه • وأتبعته الى الشارع • وتركته تعبر
روستافيلي لالاق بها في المر العريض ذي المصاطب ، بين أشجار
دوبرولوبوف ، وكانت خيوطا ناعلة متجلدة • كان المر مقفرا والمصاطب
شيئا مهلا ، منيا لايتذكره أحد • حيثها ورحت احاورها • كانت مسرعة
الى بيتها ، شاجة ، مرهقة • لكنها جميلة ، وفي امتلاء رائع بديم آتينه فسي
تسوج المعطف الثقيل • ولم استجب لاعتذارها • ظللت احاول واشرح وأقول
أنني مغرم بها ، فلقد رأيتها مرارا في المخزن •

— انك تقول شيئا في غير حينه • أنك لاصغر منى بكثير ، ولدي أسرة •
كان هذا ممكنا لو انك التقيتي قبل عشر سنين • ارجو غفوك •
وانطلقت غير ملتفتة الي في الصقيع القطبي الساكن •
جاءت الحافلة • فأسرت تقول :
— هاهي الحافلة قادمة •

اقتطعت تذكرتين ، وجلست الى جوارها • كنت أحس بلداتها ودفنها
كانت تبسم لي تياهة برغبتي فيها وتوددي اليها • وتركنا الحافلة عند ناصية
شارع بوشكين • واخذنا اتجاهنا حيال الواجهات • وانعطفنا يمينا مع بهو
الاعمدة الازرق الفاتح • وسرنا فوق الرصيف المريض جنب المبني الوزاري
الهائل ذي الجرائيت الاحمر القاتم • وعبرنا باتجاه الكوم • كان الجو باردا •
انما هو برد معتدل • كنا نسير تحت اسوار الكرملن العتيقة في صيحة
شتوية رائعة • وكنا نرى الى اليمام طائرا أو حاطا متجمعا هنا أو هناك فوق
الساحة • ثم عدنا لنشرب القهوة في بار النطاق الثاني من فندق موسكو • كان
البار منفصلا بحاجز من جبات الخيزران انصفر • وكان يلذ لي أن اتلمسها ،
متخيلا منبتها الاخضر الاول • وشربنا مع البونش قهوة سوداء مرة • ورأيت
أن تنغدى في أرارات •

— أتدري ؟ انني لم اتجول منذ زمن بعيد •

وانحدرنا ماشيين حتى مترو بول • وعبرنا صوب الجانب الاخر • وكنا في سيرنا متمهلين • كان المطعم غير مزدحم بعد • فأخترنا مائدة تحت سماء السقف الغائمة • وجاءت النادلة الارمنية بالكونياك والبرجوم اولا ، ثم السلطة والارغفة والعريضة الرقيقة اللينة ، ثم الكباب الارمني • ومكثنا في المطعم اكثر من ساعتين • في الشارع كانت أخذة بذراعي • وكنت اتجه بها ناحية الموقف لنتظر التاكسي :

— لا بأس بالتاكسي ، هذه المرة ، يا فتاتي •

كانت الثلوج تنهمر خفيفة • وكنا نعبر الشارع صوب زليو في دوم • وكانت مرحلة ، باسمه • ودعوتها لنجلس قليلا في غرفتي ونشرب الشاي • في المصعد رأيت عينيها تتسعان تفكيراً ، وفمها يتسم في غموض • ثم أطرقت برأسها ، وكأننا قد ادركت انها ستكون لي ، اخيراً ، بعد دقائق • • ستكون بين ذراعي الغريبين ، وأن الفتى الراغب المعجب سيأخذ من عريها الرائع المستلي ما يشاء أن يأخذ ، وانها امرأته منذ حطت بقدميها في المصعد • ولم تعد نظرتها تياها برغبتني الدفينة الباقية • في الغرفة كانت تصغي الي باتتباه • ولم تعد تتحدث في غنج العارفة بسطوتها علي ، وبجمالها القوي المنيع • وأجست بارتياح اذ وجدتني انطلق هاذيا ، متعبدا جمال السيدة فيها • وادهشها اعجابي الكامن القديم ، وتلطفي معها في غير ماتعجل أو تهور • وتركتني أقبل وجهها وفمها بعد تمنع واه هو الرضا بعينيها • وأخذت بيدها الى السرير • فجلست فوق حافته لتتنصو • كان شعرها الاشقر يتكوم حول وجهها • وكنت أهمس باسمها مقبلا :

— لكم انت جميلة وطيبة ياراي !

في الحادية عشرة من الليل اوصلتها قريبا من بيتها وعدت • كنت اشعر

بشيء كالدوار أو السكر • كنت ثملا بهذا العري الممتليء الرهيب ، عري
الثلوج المحرقة • وكنت اذكر قبلاتها وهمساتها اللافتة :

— انتظري بعد غد •• في الثامنة مساء عند بابكم • لن اكون حرة بعد
اسبوع • سيعود زوجي • لماذا لم التق بك منذ اسبوعين ؟ كنت حرة تماما •
مع هذا سألتقي بك كلما سنحت فرصة • لكن من يدري ؟ ربما ستنسى • أجل
ستجد غيري وتنسى • اتم معشر الرجال سريعا ماتسون • لكنك تقبلي
وكانك لم تقبل امرأة من قبل • اتريدني حقا ؟ سأترك لك ورقة كلما وجدت
فرصة • لكنك فتى في مستقبل عمرك •• وسريعا ماتسى امرأة في مثل عمري •
من يدري ؟

كانت الثلوج تهمز وتذوب • كانت ثلوجا رطبة ، غير باعثة على البهجة
في الليالي الدافئة • انما تجعل الجو كاياء والارصفة مبتلة • كنت اعود الى
غرفتي شاعرا بالكآبة والتوحد ، عزوفا عن التجول في الرطوبة والبلل •• بعد
الدفع الخاق في الكورس • كنت اكتفي بجولة البولفار والحافلة • والليل
يهبط قاتما مدلهما • وكنت اقرأ نوفاليس وشميسو فأحس بوطأة الوحشة
والفراغ • كنت استطيع ، بالطبع ، دعوة زميلة لي أو فتاة من الحي •• لندخل
السينما أو نتجول • غير أن الروح كانت مظلمة قاحلة •

في ظهيرة الاحد الثلجية الناصعة كنت ذاهبا الى مطعم الحي • ومررت
بمجموعة من صبايا الحي •• من طالبات الثانوية • كانت بينهن ناديا الطويلة
الشقراء • كان شعرها طويلا ، منحدرًا تحت قبعتها المائلة • وكانت ترمقني
بتحديقة حائرة ، بنظرات مراهقة عاشقة • وكنت اشيح عنها بعيدا • فزادها هذا
تعلقا • أي نفع في قبلاتها فوق المصطبة الباردة الرطبة ؟ وسمعت واحدة منهن
تقول ، وقد اجتزتهن •

— بهوفن !

ربما هو شعري الطويل المتلوي ، وعيناي الحزبتان ، ووجهي المتجهم
ذكرهن بصورة تهوفن ! مرة ، في الصيف ، اذكر أنني رأيت ناديا واقفة في
خيز .. في آخر الصف . فوقفت خلفها . كأن شعرها الطويل فواحا برائحة
ذبة . قمسته بإطراف أصابعي ملاطفا . وكانت تبسم لي . وهمت لها
، تنتظري لنخرج معا . واتفقنا أن نلتقي بعد ساعة عند اول مصطبة في المر
بن الاشجار . وكنت أريد أن اتزده . فذهبا سائرين على اقدامنا طويلا ..
حتى وصلنا منتزه الغابة عند الجوار . كان جانبا من الغابة نفسها ببجيرة
حديقة طيور . فركبنا القارب مجذفين ، وقد ظابت الزهرة . وكنت رقيقا
عها فسرنا هذا . وفي الليل كنا فوق مصطبة المر . لكن أي تقع لي في
بلات مراهقة ؟

(ليس مثل الحب الاخير لامرأة .. حب يرضي

الرجل ويكفيه ، أول عهده بالحب .

(بلزاك)

كنت راجعا في الحافلة أول الليل . وكان الليل يقطر سائلا فوق زجاج
النافذة . كانت الثلوج رطبة خفيفة . ورأيت فتاة ما راققة في أول الحافلة .
كانت رانية ناحيتي بلا انقطاع . وكانت تبسم لي ابتسامة عريضة ، كانت
تبسم وتكاد تضحك . في الجانب الاخر من الحافلة ، على مقربة مني ، تجلس
سيدة من ألهاث الخطى المتثاقلة . كانت حقيبتها المنفتحة قليلا مثقلة
بالمشتريات . كنت أنظر الى اكتافها الرجة معجبا . كانت في معظم أخضر
فاتح ضائق بامتلائها ، وبقبة في لون معطفها مائلة قليلا . وبدا لي ، مثلما
كنت أظن اول الامر ، ان الفتاة المتضاحكة الجريئة قد أثارت انتباهها ..
فرنت الي بجانب من وجهها متفحصة . كان وجهها الجميل مرهقا ، شاحبا .
ورنت ، ثانية ، وفي وجهها اعتداد . سيدة الجميلة بعد ارتخاء طويل . كنت

ذاهلا ، مرتجفا بنظرتها الزرقاء الثقيلة .. متذكرا امرأة اخرى . كنت ارى شفتيها الممتلئتين واقفا الاغريقي وتقطية حاجبيها فأتذكر . وكانت الفتاة ماتبرح متضحكة . ورأيت المرأة تبعد ساقها الممتلئة الرائعة الطويلة جانبا . لا اظنها الا حركة متقصدة بعد التفاتها الي . انها تتحدى اذن ! وفي وجهها يستيقظ اعتدادها بامتلائها الجميل المقترس . لم أعد ناظرا ناحية الفتاة ، وتركها متحيرة . كنت انتظر لحظة نزول هذه المرأة لاتبعها . وقيل ان تتوقف الحافلة عند زليوني دوم رأيتها تنهض ، بقوامها المتلي ، وتوجه في تناقل الى الباب . نحن جاران اذن ! وهبطت بعدها قبالة زليوني دوم . واجتزنا الشارع . وتبعتهما في الزقاق المتفرع حيث تطل غرفتي على فناء في جانب منه . كنت اطلع ، معجبا ، بظهرها الشهي وخطاها المتخالفة وقامتها المرتفعة .

لم ادعها تسير طويلا . كنت أخشى أن تسرع مختفية ، فجأة ، في عمارة من هذه العمارات . حبيتها سائرا بجانبها . فردت تحيتي في غموض ، رانية الي بجانب من وجهها الشاحب . قلت :

— اتسمحين لي بسؤال ؟

كانت تتطلع الي بلا توقف :

— كنت اظنك ستبغ الفتاة .

— كلا . انني احب ان اتحدث معك انت .. اذ سمحت .

— لكنني عجلى .. وينتظرونني في البيت .

— لن أخذ من وقتك طويلا .. بضع دقائق ان امكن .

— اني مصغية .

أنا اعرف هذا الرنين الدهفي .. وأحس في جوابها هذا رقة وارتياحا . كانت خطاها تتباطأ ، وخصل من شعرها الاشقر الذهبي تلتصع بالبلل ، منفلة من تحت القبعة ، في اضواء المصاييح . كان الثلج خفيفا وسريعا ما يذوب .

- كان اختياري لها ، دون الفتاة ، قد اراحها • فكانت اكثر ليئام معي • قلت :
- أعرف أن وقتك ضيق •• انما هي صدفة رائعة أن التقي بسيدة
 مثلك ، صدفة لا تتكرر مرتين في الحياة •
- لكنك ترى الكثير منا في طريقك •
- مثلك انت ؟
- الست شبيهة بالآخرىات ؟
- كلا • منذ سنين •• منذ سنين وأنا احلم بك •
- كانت تتطلع الي وفي عينيها تساؤل •• وكنت اتحدث عن انتظاري
 ولطويل حالما يلقاء معها • وسألتني : من أين انا ؟ وأين ادرس ؟
- نحن جاران اذن !
- قالت هذا وتوقفت في آخر الزقاق • وابتسمت تقول :
- ها أنا قد وصلت •
- كانت واقفة أمامي وظهرها الى آخر مبنى في الزقاق • قلت :
- ايسكن ان اراك ثانية ؟
- اترى هذا مهما ؟
- ليس مهما فحسب •• انه اقصى ما اتمنى • اتسمحين لي بدعوتك
 اليوم ؟ ما زلنا في أول الليل •
- والى أين تدعوني ؟
- الى المطعم •
- لكنني لست متهينة •
- سأنتظر •
- ليس اليوم من فضلك •
- لكم أود ان اراك اليوم !

— أنا الان مرهقة قليلا .. ومحملة بهذه الحوائج . وينبغي أن أمر على الشقة . فأذا أردت .. انتظرنى بعد ساعة .

— وأين ؟

— هناك .. عند المنعطف .

واشارت الى مكان قريب . قلت مؤكدا :

— سأنتظر .

فأبتسم قائلة ، وكنت اتأمل شفيتها الممتلئين :

— سأجيء .. وتجاوز ساعة . لكنك لم تقل لي ما اسمك ؟

فأجبته . ثم قلت :

— واسمك انت .. من فضلك ؟

— اسمي لينا .

كانت الاضواء مبتلة ، والطريق رطبا باردا . وكنت متجها الى المنزل . وكنت اتمثل قسماتها وابتسامتها . كنت اسمع صفير القطار الكهربائي في انطلاقته الى الضاحية ، والحافلات تمر خافقة في الشوارع . بعد ساعة اذن . وصعدت الى غرفتي لاقرا . غير انني لم أقرأ الا صفحات قليلة . كنت قلقا . اني لاود كثيرا أن تجيء . وكنت اطلع من النافذة الى الطقس الرديء . في مثل هذا الجو الرطب الناضح بللا لن يطيب التجوال ضويلا . وكنت أخشى أن يحدث طارئ ما فيحول دون مجيئها . لكنها تستطيع أن تحضر لدقيقة فيما إذا حدث ما يمنع . من السير أن تسرع الي عند المنعطف ، لتتق على لقاء آخر .

غير أنها لم تتأخر الا عشر دقائق . كنت واقفا ادخن . ورأيتها تفتح الباب متجهة ناحيتي عبر الزقاق المبتل تحت اضواء المصابيح . واقتربت مني بخطاها المتساكلة ووجهها الشاحب ، قائلة بابتسامة عذبة :

— هل تأخرت كثيرا عنك ؟

— كلا . كنت سأنتظر ايضا .

واخذنا نقطع رصيف دورلوبوف باتجاه الشارع العام . ثم انعطفنا عند منزلنا باتجاه السينما . لم يعد الثلج يتساقط . غير ان البلى في كل شيء ، والجو متلبد متجهم وكأنا في اول الربيع . كنت أحس بجمالها الاخاذ ورفقتها الممتعة . كانت أنيسة ، في كلماتها وحركاتها رفة ودفع . لم يكن الفلم شيئا . كان فلما اعتياديا ، تحاول البطلة فيه ان تتحرر تحت القطار ، متشبهة بأنا كارينينا . غير ان قربها مني ابعثني عن اعتيادية الفلم . وكنت أشعر بارتياح : هي ذي امرأة جميلة لم اتعرف بها الا منذ ساعة ، وها هي معي في السينما ، مطمئنة الي ، وقد قدمت من اجلي بلطفها وصادقتها . وتهمس في اذني بكلمة أو تعليق ما .. فأشم عطرها وانفاسها العذبة . وأحس بلدونة ذراعها الممتليء أو كفها المتكور الدافئ .

أوصلتها حتى بيتها ، وتوقفنا نتحدث . في زرقة عينيها الثقيلة كنت أتبين بروقا نائية وابتسامة متسائلة . قلت :

— هل استطيع رؤيتك غدا ؟

— غدا ؟ ممكن . في السابعة مساء .

— هناك عند المنعطف ؟

— الافضل عند البريد .. فقد اتأخر قليلا . فأذا اشتد البرد تستطيع ان تتضرني في مدخل المبنى . كنت أود أن تمشي قليلا . غير ان الجو رطب هذه الليلة .. واخشى أن تبرد .

— على العكس . أود كثيرا أن اتجول معك . ولن تضر بي رطوبة الهواء . فلقد اعتدت هذا الطقس وأحبته .

— طيب .. ولا تلمني ، من فضلك .. فقد اتعبك معي في جولتي .. أنا

اتمشى كل ليلة ساعة أو اقل .. احب أن اخفف من وزني .
— لكنك رائعة هكذا .

— اتراني هكذا حقا ؟ إنما لا .. قل لي : فيم اعرضت عن تلك الفتاة ..
وكانت تنساحك لك في الحافلة ؟ أم وجدتي أقرب منزلا إليك ؟

— بل وجدت صورة رائعة كنت احلم بها منذ صباي .

— لا تزدني غرورا فأتدلل عليك .

قالت هذا مازحة . ثم اضافت :

— أتدري ؟ لقد سرني انك اخترتني دون الاخرى .

كنا نسير بلا اتجاه .. تقطع هذا المشى لندور حول ساحة صغيرة ،

ونعود في المشى نفسه لنوغل في منعطف ما . وكنا نتحدث طوال الوقت .

وما كنت أس ، قبل هذا ، انها بخطاها المتثاقلة جوالاة ليلية رائعة .. رياضة

الروح والحركة . ورأيت ان اخبرها أننا سنقضي الامسية غدا في مركز

المدينة . فسألته أي مطعم تفضل . فأجابت أخذه بذراعي :

— انا أحب المسرح أكثر .. وانت ؟

— بالطبع . وسأحصل قريبا على تذاكر .

— يسرني أن اكون معك في المسرح .

ثم قالت فجأة :

— أتدري أنني متزوجة لكنني منفصلة عنه ؟

وأخذت تقص علي انباء مفصلة عن حياتها وزواجها ، وافتراقها عن

زوجها منذ شهور ، بعد ان توله في حب صبية تعمل مساعدة له في المختبر .

حين كنت اتطلع اليها في الحافلة ، خيل لي كما يخيّل لي مرارا في مثل

هذه الحالة ، انها ستظل نائية ، منغلقة .. ولن تنفتح لي عن نفسها الكريمة الا

بعد اشواط . وها هي وقد اطمأنت الي ، تزيج عن اغوارها الصافية نقابا

سميكا • ان هذا لطبع لدى العديد من الروسيات : ينغلن عن الغريب وراء حاجز وحاجز • فإذا ارتحن اليه ينكشفن عن طيبة عظيمة نادرا ما تصف بها امرأة • وتراها تتحرك معي ، وتحدث الي فتحسبنا صديقين متلازمين منذ سنين •

والتفت مسرعة الي ، وهي تفتح باب المبنى ، وفي عينيها المتسعيتين زرقه باسمه وبروق :

— لاتنس •• في السابعة عند البريد •

ها أنا اراها ، لأول مرة ، بلا معطف • وكنا في مطعم موسكو • كانت واقفة أمام المرايا تشرح شعرها ، وتبتسم لي في المرأة • كان وجهها شاحبا مرهقا قليلا ، ووجنتاها في مثل حمرة الشفق ، وعيناها تتألقان • كانت تبتسم لي ، وقد رأيتني ممتلئا إعجابا بامتلائها الباذخ المتوزع في اتساق عظيم • وارتقين الدرجات المرمية ، وهي تقول :

— أرأيت نظرات الصبايا الينا ؟

— ان لك جمالا معجزا •

— انهن يرين انك اصغر عمرا مني بعشر سنين في الاقل •

— انهن لا يرين الا جمالك وحده •

كنت أعرف نادلة هنا • فأخذت ابحث عنها بعيني • ورأيتني فأومأت أن تقترب • واجلسنا عند مائدة خالية • كانت الثريات تتدلى هائلة مشتعلة في غيرما سطوع • والفرقة الموسيقية أخذة مكانها ، منذ حين ، عند فحة الرقص •

أحببت أن تختار هي • فناولتها قائسة المطعم • فتأملتني قليلا ، واعادتها لي قائلة ، وهي تتفحصني بابتسام :

— من فضلك اختر انت أنا لا أحب الله عم كثيرا •

مع امرأة مثلها ! كنت ممتلئا رغبة بها • وكنت فخورا بصحبتها • وهي ترى هذا فتحس بارتياح • ورحت ارتشف الخمرة متلذذا بشطلي اليها •

حين تركنا المائدة لنرقص كانت تتقدمني قليلا • فتذكرت الاستاذة الشابة وأمرأة أخرى • كنت ألفت ذراعي على ظهرها برفق ، فأشعر بلداتها ودفئها ، وبهذا البدخ الجسدي ، بدخ امرأة رائعة الجمال • وكنت اشم شذاها وشعرها يلامس وجهي • وهي حارة ، ممتلئة بين ذراعي • ورأيت امرأة ورجلا يتأملانا باسمين ، راضيين • كان وجه لينا منفعلا : كان النغم بطيئا ، وجسدانا متلامسين • وعلت شحوبها حمرة خفيفة •

كانت البهجة عامة • وكنا نشرب خمرتنا الجيورجية الوردية متلذذين • وكانت الموسيقى تصدح عاليا • ورجوتها أن نرقص •

— ليس الان من فضلك • هذه الرقصة السريعة لاتناسبني • • فأنا ثقيلة كما ترى • دعنا ننتظر رقصة أبطأ •

كنا متقابلين • وكنت أتأمل وجهها الجميل ، ورحابة صدرها الثلاثيني الشهي واكتافها • قلت هامسا :

— لينا • • أنا معجب بك اعجابا رهيبا •
فتقربت بوجهها قائلة :

— ماذا قلت ؟

— قال أحد كتابنا ، مرة ، في امرأة جميلة : ان لها جمالا مخيفا • تذكرت هذا وأنا اتملى وجهك وقوامك •

— ها أنت تزيدني غرورا ثانية • لكن ماذا كنت تهمس ؟

— أنا هائم متيم بك !

— مع أنني اكبر منك ؟

— وأي شأن لجمال مثل جمالك مع الزمن ؟ انك اكثر نضارة من أي

وجه آخر في هذه المدينة .. أو اية مدينة على الارض . ان لك جمالا لن تقع
عين عليه الا في لوحات فناني القرن الماضي .
— مهما تقل .. فأنا اكبر منك عمرا .

— حتى بعد عشرين سنة .. ماكنت سأختار امرأة غيرك من بين نساء
العالمين . الا تصدقين ؟

— أنا احب ان اعجبك في يومنا هذا . أما غدا أو بعد غد فالنساء
كثيرات . وانت في مستقبل عمرك . والان دعنا نشرب نخباً ونرقص .

كان رقصا متباطئا كتماوج البحر الرخي .. أو كأنحدار النسم فوق
العشب الكثيف . وكانت لينة حارة بين ذراعي . كأن خدانا في تلامس ،
ووجهها ناعما حارا . ولقد أتاححت الموسيقى المتمهلة ، وامتلاؤها هي ، أن
انعم برقتها ولداتها الفائقة . كنت أمسك بذراعيها ، شادا ظهرها بيدي
الثانية .. أو أخذها على ذراعيها بيدي ، أو احيطها بذراعي الاثنتين . فتتحرك
هي بيديها معي مثلما أفعل . وكنت الامس وجهها ، خفيفا ، بشفتي كلما
أتاحت الزحمة فرصة . فتقول هامسة ، معاتبة :
— انهم يروتنا .

وأردت أن اوصي على نبذ ، وقد فرغت القنينة . وكانت يدي فوق
الغطاء الابيض . فوضعت يدها على يدي برقة :

— لاضرورة لهذا . ينبغي أن اصحو مبكرا . غدا لدي عمل . واجب
أن اتجول معك قليلا . سنسير حتى محطة مايكوفسكي . ونأخذ الحافلة من
هناك . — ثم هواء رائقا .

في الحافلة قلت مقترحا :

— سننزل عند سينما أريول . فنأخذ نزهة ثانية ..

— انك لكريم معي . لكنني لا أستطيع أن اتأخر . لاحيلة لي في هذا ..

غداً لدي عمل • لكننا ستجول ، كل ليلة ، اذا رغبت • مارأيك ؟ ستمشي
دورة أو دورتين حول دوبرولوبوف • بعد العاشرة بالطبع • ستكون انت
قد قرأت كهاتيك • وستجد نفسك ، بعد النزهة ، راغباً بالمزيد من القراءة •
ماعليك الا ان تنتظري بالقرب من منزلكم ، وسأمر أنا عليك • وفي الطقس
الرديء يمكننا ان نتقابل خلال التلفون •

— هذه فكرة رائعة • سأمتع بصحبتك العذبة كل ليلة • وسأقرأ
المزيد بعد هواء النزهة الليلية المنعش •
— اتري ؟

قالت هذا مقربة وجهها مني ، مبتسمة لي • أكنت انانيا حين قلت مع
نفسى : وداعاً للحائط الاصم • هذه امرأة لن ترى في خطيباً أو ماشبهه
بخطيب • لاشيء يحول بين صحبتنا غير عودة الزوج النادم متضرعاً • وعسى
الا يعود •• ؟ واية امرأة هي ! أي عطاء باذخ !

بالطبع ماكنت لافكر ، لحظة ، أنذاك بطبعي المتقلب ، وبأنني سأحاول
شيئاً مع غيرها من ألهاة الخطى المتشاقلة • قالت لينا وهي تصافحني ، ضاغطة
يدها بلطف ، استجابة لحركة يدي ، وكنا عند بابها :
— اذن غدا في العاشرة مساء •• او بعدها بقليل •
— لينا •• هل من الممكن دعوتك لزيارتي غدا ؟ وبعد العاشرة نستطيع
أن نقوم بجولتنا •

— الست حراً ليلة الاحد ؟

قالت هذا ، وقد علت وجهها الشاحب اكثابة وتكدر • قلت مبتهجا
بحرصها على لقائي ليلة الاحد :
— لكنني حر ليلة الاحد •• وكل ليلة •
— اذن سأزورك ليلة الاحد • هكذا افضل • انفقنا ؟

— يسرني كثيرا أنك قابلة دعوتي • سأنتظرك غدا لتجول •
— أتمنك لك ليلة طيبة • الى اللقاء •

في العاشرة من الليل كنت واقفا انتظرها • كانت الثلوج منقطعة منذ الصباح • وكان الهواء رائقا فأحسست باتعاش •• بعد قراءة طويلة مرهقة مع سالتيكوف شيدرین واجوائه القاتمة الثقيلة • ومرت خمس دقائق دون أن تلوح • اني لاستطيع أن اتبينها ، عن بعد ، بين غيرها من العابرات • كان الطريق متلامعا بالاضواء ، وانا أترصد ناحية البريد • ستجيء منعطفة من هناك • اترأها تجيء ؟ انني لافكر بساقيها •• بشحوبها ! اية رغبة تشدني اليها ! ومر طالبان ، فهتفا باسمي مازحين قبل ان يدخلوا :
— عبثا انت تنتظر •

فأبتعدت ساخطا • اترأها تتمنع ، وقد رأيتني راغبا مدتها ؟ أم اتني لم أزد لها الا غرورا بتغزلي ؟ أم عليها تنتظر تلفونا وتوسلا ؟ لكنني لم ألق عندها الا بعض تدلل • وهو طبيعي في امرأة مثلها ، وهي تدرك سطوتها الطاغية على فتى في مثل عمري • أم ترأني اظهرت نفسي عاشقا غرا بلا تجربة ؟ ها أنا انتظر منذ عشر دقائق وأعرف انني سأظل انتظر • ورحت اتمشى • ثم توقفت • ينبغي أن انتظر هنا • سأظل واقفا قرب المنزل مثلما اتفقنا • مثل هذا التلهف سيزهدها بي • وكان قلقي يدفع بي لان اتمشى باتجاه البريد • كان المرمر مقفرا الا من عابر أو عابرة ، يخفق نعلها عاليا فوق الاسفلت • وجاءت بعد ربع ساعة • أبصرت بها آتية فأتجهت لالاقيا •

— ارجو المذرة •• لقد تأخرت عنك •

— يسرني انك جئت •

— كان لدي ضيوف • ولم يخرجوا الا توا •

— لكنك جئت • وهذا ماكنت اتمنى •

اجتزنا المشى الضيق الى المر العريض بين المصاطب والاشجار
العارية . كانت في حديثها معي كثيرا ما تنطق باسمي على عادة الروس فيما
بينهم . أحيانا تبدأ سؤالها أو ردها باسمي . فاحس برقتها وألفتها معي .
كنا نقطع المر حتى آخره ونستدير عائدين . أو ندور حول الساحة
الصغيرة . وسألته أن نجلس فوق المصطبة قليلا . كان المر خاليا والسماء
قائمة . ولم يكن البرد لاذعا . لم تقل لنا شيئا . انما جلست متفكرة . وكنت
أمر يدي على كتفها وظهرها ، واشدها بذراعي . وهي تبسم . قلت :

— لينا . . أحب ان اشم شعرك .

— لكنني سأصاب بركام حزن انزع قبعتي .

قالت هذا ضاحكة .

— وكيف أرضى بنزعها . سأشم هذه الخصل المنفلته .

كنت اشم شعرها العبق ، واقل وجهها . وانزلت بشفتي لاقبل فيها . .
فأخذت تنأى بفمها قليلا ، وتقول هامة :
— فيما بعد .

لكنني كنت أصر . وأخذت شفتها السفلى بين شفتي . بعدئذ كنت
أقبلها كما أود واشدها الي . وكانت تقبلي برقة . انما هي قبلات تـ
الروح في الجسد ، فتزيدنا انفعالا . فنهضنا معا عن المصطبة . وكنت أف
بذراعي على ظهرها . وكنت بين حين وآخر اقبل خدها برفق فيما نحن نتجول
في المر المقفر . بعد تقبيلة الفم كنا تتخاطب بصيغة المفرد . . لا بأنتم مثلما
كنا تتخاطب طيلة الوقت من قبل . كنت احس معها احساس آخرى . ماهي
بالفتاة ، انما هي امرأة . واية امرأة ! ان لوجهها شحوبا غريبا ، ولكتفها
الرجبتين اختلاجة باهرة . واية ساقين ! كنت اشعر بالزهو قرب امتلائها
الباذخ . أي نعيم مع امرأة مثلها ! لاشيء يعدله فوق البسيطة كذا ! كانت

تدرك أفكارى هذه خير ادراك • فهي تبسم مرة واخرى ابتسامة ملكية
متفكرة •• ربما بما تمتلك من كنز وعطاء عظيمين •

كنا نقرب من بيتها • والطرق ساكنة الا خفقا عاليا لخطى امرأة متأخرة
قادمة عن بعد • ووقفنا في المدخل الدافئ • فأخذتها بين يدي • كنت اقبل
فمها قبلة اخيرة ، هائثا بشفتيها المملتين •

صباحا فتحت الكوة لاجدد الهواء •• كان باردا لاذعا • فأرتديت
معطفي الثقيل والشابكا • ستكون نزهة الليل رائعة بعد تساقط الثلوج •
وتذكرت فاللا وجولاتنا في حدائق الجامعة ، والثلوج تتكوم تلالا هشة ،
وتهبط في تسارع • ورأيتي المناوبة في معطفي الثقيل • قالت :
— حسنا فعلت • انه لصباح بارد •

وتساقطت الثلوج ، غزيرة ، خلال النهار • فأكتست المدينة اردنيها
الناصعة • ومع المساء المبكر كانت الثلوج متكاثفة • كنت سائرا تحتها لائن
عشاء خفيفا في المطعم • والصبايا فرحات بتكوم الثلوج ، يتصايحن لإهيات ،
ويتقاذفن بالحففات منها • وقد خفت البرودة ، وطاب التنزه •

جاءت لينا في العاشرة • جاءت في فرائثا الضافي • ووجنتها في مثل
حمرة الفسق • كانت جميلة باهرة ، جميلة جدا • ولم تعد الثلوج تتساقط •
كانت متكومة في كل مكان • كان الطقس رائقا ، باردا في اعتدال • ومررنا
بالساحة الصغيرة آخر المر • هنا كانوا يتزلجون منذ قليل • هنا تتزلج
الصبايا كلما اثلجت السماء غزيرا • وكنا نرى ، هنا أو هناك ، ازواجا مثلنا
يتجولون عائدین من السينما •

— ايعجبك شتاؤنا الروسي ؟

— خاصة حين تساقط الثلوج •

— هل تجيد التزلج ؟

- لم اتعلم منه الا نورا •
- طيب • سأدربك • وتزلج معا في الضاحية • أنا احب التزلج جدا
- جدا • هناك يتزلج المئات وستبتهج كثيرا •
- لكنني سأشعر بالاسف حين اجدني عاجزا تقريبا •
- ستتعلم • سيرك الامر •
- وقد تنقطع الثلوج •
- كيف ؟ مازلنا في الشتاء •
- وانه لشتاء بديع •
- كنا وراء الاشجار المثقلة بالثلوج • فأحطتها يدي • وقبلت شفقتها
- الملتئة السفلى • فنأت بفمها عني ، وهي ترمقني بأرتياح :
- كلا • ليس على الفم •
- فأين اقبلك اذن ؟
- قبلني هنا •• وهنا •
- واتقلت بالسبابة من وجنة الى وجنة • فقبلت جنتيها • لم تشأ ان
- أقبل فمها طويلا • كانت تخشى ان امتص شفقتها فتتأثر وتنفعل • كنت ارى
- في نظراتها الي مايسرني ، فأضمها • فتنفلت مازحة • فأحس بانزلاق يدي
- فوق الفراء الناعم • قلت :
- متى انتظرك غدا ؟
- في الساعة • أيناسبك هذا ؟
- أي وقت تقترحينه هو مناسب لي •
- أتودني هكذا حقاً ؟
- انظري الى وجهي •• اثنان ؟
- من الصعب ان اتكهن • لكنني أثق بك • انت طيب معي •

- لا أرى طيبة اعظم من طيبتك •
 - أنا اخشى أمرا واحدا •
 - ماهو ؟
 - كنت اتحدث كثيرا عنك هذا اليوم • فقل لي انك تحبين •
 - وأي ضير في أن تحبي ؟
 - أليس انت ؟ انت اصغر مني بسنين •
 - لكنني احبك صادقا • وانت اعظم فتنة من اية فتاة •
 - سنسير نظرتك الي بعد حين • أما انا فساؤداد تعلقا بك •
 - اتصيينني رديئا هكذا ؟
 - لن احسبك هكذا يوما ما • إنما هو الشباب ، وطبعه ان يتقلب
 ويتنقل من زهرة الى زهرة •
 - لينا •• أنا احبك • ونحن في اول عهدنا • فكيف تحكمين على الامور
 منذ الان ؟ سنتجول كل ليلة معا • سندخل السينما والمسرح • أي شيء
 يمنع ان نظل معا ؟
 - أنا افهم ان يرغب شاب مثلك في امرأة في مثل عمري •• ويتحول
 عنها بعد زمن قليل • هذا أمر افهمه جيدا • لكن مالا ارتضيه هو ان تجدد
 المرأة نفسها مغرمة بشاب يصغرها عشر سنين في الاقل ، ولا تتأمل الوضع
 جيدا • هذا ما يحيرني • أترى ؟ أردت ، اليوم ، وأنا عائدة من العمل ، ان
 اترك لك ورقة اعتذر فيها عن المجيء •• ولم أستطع • بالرغم من انني أرى
 هذا صنيعا لن يسيء لك او يضرك بشيء • فمثلا تعرفت بي •• تستطيع
 غدا ان تعرف بغيري ، وبالسعادة نفسها • غير انني لم استطع اعتذارا لك •
 أتدري مامعنى هذا ؟
 - انك طيبة جدا •

— قلت انك ستعلميني كيف اتزلج .

— بالطبع سأدربك .

وأخذت أقص عليها تدايني الرياضية الاولى في التزلج في بارك غوركي ، وكيف اجتزت اختبار الرياضة هذا مع استاذنا ، وأنا اكاد اتهاوى على الارض . كانت تضحك ، وأنا اصف اضطرابي وتعلقي بالعارضتين ، ويدي المرأة المدربة . ووجدتها مبتهجة ، منطلقة في رواية شيقة عن هذه الرياضة الساحرة . وفي المدخل الى بيتها كنت اقبلها مقتربا بفمي من شفيتها . فأبعدت وجهها قائلة :

— انسيت ؟ لقد اتفقنا ان نظل بمنأى عن هذه الامور .

— الا يقبل الصديق صديقه ؟

— لأعلى الشفتين . انما هنا وهنا .

ووضعت اصبعها على جانبي وجهها . فأمتثلت لمزاجها ، وقد تقلب ، الليلة ، من حال الى حال . وكنت اتساءل مع نفسي ، عائدا ، أهى جادة ؟ أي شيء دفع بها لان تعترف بجبها لي ؟ اترأها اجبتي هكذا سريعا ؟ ليس غريبا على المرأة الروسية أن تحب وتكره خلال دقيقة واحدة ! كنت اراها تتحول بين المرح والجد . وكانت تتحدث جادة وهي تعترف . لتكن مازحة أو جادة . هذا شيء لا احب ان افكر فيه . اني لا تحرق رغبة بها . ثم انها طيبة ، تصفي الصديق ودها بلا تدلل أو تمنع متقصد . ينبغي ، اذن ، ان اكون رفيقا بها ، مجاريا لها ، وان اسلك معها سلوكا لا تهور فيه . لن اسكرها فقد تنقلب علي . سأقول لها قولاً صادقا ، وأريها آية مودة اكن لها .

في الساعة مساء كنت انتظرها . كانت الثلج متكومة في الأخاديد ، وكان الهواء باردا بلا قسوة تجعلك تسرع الخطى . وكنت انتظر . والثلج يدور متطايرا متلاعبا ، ويحط خفيفا فوق الشابكا والكفتين . ورأيتها آتية

— ما كان يوما بيد المرء أن يحب أو لا يحب .. لكنه قادر على أن ينأى
بحبه مرغما ، وبشوقه كله .. يتدنى جانبا ، منكفئا على لوعته وشقائه ،
مؤرقا حزينا . وكفيل بالزمن والابتعاد أن ينسيه .. ويفقد هذا كله ذكرى
أو شيئا شيئا بحلم .

— أي شيء غيرك هكذا فجأة ؟

كانت تنظر الي ، طويلا ، متسائلة ، وكأنني لم ادرك شيئا من حديثها
كله ، وكأنني لا أعني شيئا من هذه الامور كلها . ثم تنأى بعينها هامسة
مع نفسها .. وكأنها تخاطب شخصا آخر :

— هو انتي .. أحب .

والتفتت الي ، وفي وجهها تساؤل :

— وهذا أمر لا أقره لنفسي .. معك .

وافتر وجهها ، قليلا ، عن اجل ابتسامة :

— مع شاب .. كنت أتصور اننا سنكون صديقين .

— لكننا صديقان .. وأنا أحب ان أراك كثيرا .

— اتعدني بشيء ؟

— اعدك .

— لكنك لا تدري ماذا سأطلب منك .

— وهل سأرد لك طلبا ؟

— أريد الا تسألني شيئا غير صداقتي . اتعدني بهذا ؟

— أنا لا أريد ان احرم من صحبتك .

— طيب . سأمر عليك غدا .

— سأنتظرك في الساعة كما اتفقنا .

وأردت أن اسوق معها حديثا مغايرا :

— أية طيبة هنا ؟ كنت راغبة أن أراك • كنت أفكر بك طوال الوقت ،
واتحدث مع صاحبتني عنك • أتدري ماذا قالت ؟ قالت : لو انني كنت في
مكانك لقضيت وقتا جميلا معه وانسجبت !

ورفعت الي عينيها جادة • أي تألب طبع هذا ! من المرح الصافي الى
محاكمة النفس ! ها أنا أراها امرأة اخرى ، غير امرأة المشى الراغبة ، الحارة
بين ذراعي منذ قليل ! وأحببت أن اغير الحار :

— لكنك لم تذكرني أي كاتب مسرحي تفضلين ؟

— دع عنا هذا • أنا جادة فيما قلت •

— في حبك المسرح ؟

نظرت الي مستنكرة ، وفي عينيها بروق :

— في ان احب شابا •

— أتودين ان تحبي شيئا ؟ أية خسارة ! هذه الفتنة الطاغية كلها ،

هذا الجمال الرهيب لشيخ ؟

فجأة اخرج وجهها وضحكت :

— لكنهم يعشقون الصغيرات •

ثم عاد وجهها جادا •

— اية تعاسة في ان تحب امرأة فتى لا يحبها !

— لكنك تعلمين انني احبك •

— قد ترغب بأمرأة مثلي •• لكنك لن تحبها • وهي رغبة لن تطول

على أية حال •• وستنقضي بعد يومين او ثلاثة •

— كلا • سترين انني أحبك حقًا •

— انت تتخيل هذا •

— انا أعرف نفسي •

متباطئة الخطى • وحيتني تحيتها القصيرة الملائمة :

— مرجبا •

كان وجهها مثلما اعتدت رؤيته •• شاجبا ، لا اصباغ عليه • انما هي
حرمة خفيفة على الشفتين • وكانت وجنتاها في اشتعالهما البنفسجي • ورأيتها
تبطيء الخطى وتتوقف • وكنا قرييين من مدخلنا • وكانت تتأملني باسمة :

— اترى هذا ضروريا ؟

— أي ضرر في أن نجلس في غرفتي ونشرب قدحا •

— كنت أظن أننا سنتجول قليلا ، ونشاهد فلما •

— لكننا سنتجول في العاشرة •

— مارأيك أن نزور صديقتي • ليس بعيدا • انها في عمارة مجاورة •

هي تود ان تراك • سنلعب الورق معها وتسلّي •

— أنا لم اتعلم هذه اللعبة •

لم تكن هذه اللعبة من القمار بشيء • فلا رهان فيها • غالبا مارأي

المنابوات يتسلن بها في مدخل البيت •

— سنعلمك •

قالت هذا وهي تبسّم لي • قلت باسطا بيدي يأس :

— ماكنت أحسب انك ستكرهين غرفتي •

— لاتحدث هكذا • أنا احب الهواء الطلق •

— كما ترين • سنمضي اينما ترغبي •

وخطوت لاريها أنني غير مصر على رأي لاتحبذه • فأمسكت بذراعي

منازحة ، وكانت تتأملني باسمة طيلة الوقت :

— لاتغضب • سأصعد معك • انما كما اتفقنا •

— اسمعي لينا •• اذا كنت ترينني غير جدير بثقتك •• فلا تجبري

نفسك على زيارة لاتعجبك • سنقضي الامسية في أي مكان تحبين •
— لكنني اثق بك ، سأصعد معك •

كانت ليلة أحد • وكنا متقابلين عبر المائدة • وكنا نرتشف الخمرة
متمهلين • كنت أرى في عينيها اغضاء وتفكرا • وطوال ساعة كنا نتحدث
من أي شيء غير المرأة والرجل • ولم أشر بكلمة الى جمالها الجسدي الدافق
ملء عيني • ولم ألمس منها يدا أو اقم بتقرب ما • كنت اكلف حركاتي
تكلفا • وكانت ترى تكلفي هذا فتكاد تضحك • كانت ممثلة باتساق فائق •
وكانت فاتنة في حنوها علي واصفاها واهتمامها بأمري •

— ما بك ؟ لم تعد مرحا • ألم تترك زيارتي ؟

— بل ابهجتني كثيرا •

— لا أرى بهجة في تصرفك • أتدري ؟ حين رأيتك اول مرة في الحافلة •
كان وجهك حزينا • بلى لقد رأيتك • رأيتك اولاً عبر الزجاج • وكنت واقفا
في الصف • وظللت انظر اليك • وحين صعدت لم تكن منتبها الي • كنت
تريد ان تجلس • حين رأيتك احسست بشيء كالحنو • بالرجبة في أن
اخفف عنك • أي حزن كان في نظرتك ! فيم هذه الكأبة كلها ؟

— ان لك قلبا رحيمًا • الديك متسع من الوقت غدا صباحا ؟

— غدا ؟

— اني لاود ان تجول في المدينة •

— لكنني سأكون مشغلة طوال النهار • بالشقة وتنظيفها • لكننا

سنقوم بالجولة مساء • سأكون حرة •

— سأكون مستا لك •

— الا تكف عن لهجة التكلف هذه ؟ وكأني غريبة !

واغتم وجهها قليلا :

— حتى كأسك تذوقها تكلفا •

— أنا اود ان ترؤق لك هذه الامسية • ارضاء المرأة شيء عظيم !

— أية حكمة ! سأسجلها • ترني كثيرا لهجة الحكماء هذه ! قل لي

من فضلك الا تتحدث معي في الفلسفة ؟ أنا لم اتعلم منها شيئا كثيرا •

سأكون مسرورة لو انك تحدثت •• عن شوبنهاور مثلا •

لم اتمالك نفسي اخيرا • فأخذت اضحك عاليا • اما هي فلم تضحك •

كانت تطيل النظر الي متشككة •• وعلى ملامحها تبسم خفيف • فنهضت

في غير ماعجل ، وأمسكت بكتفيها بلطف • فلم تقل شيئا • وقبلت شعرها

اولا • ثم أخذت ألثم وجهها كله لثمات اشبه باللمس الرقيق • وأغرى بي

صمتها وسكونها فأقتربت بفمي من فمها لاقبله باشتهاء • فتناوت برجيها

عني :

— كفى •• كفى • ليس هكذا • من الجليد الى اللولـ في لحظة واحدة •

اجلس اجلس • أريد ان اشرب •

كانت مطرقة ببصرها ، وقد علا شحوبها توردد • فرحت اصب النبيذ

في قدها اولاً • قالت :

— اقترح نخبا •

— في ذكرى شوبنهاور •• فقد اعادك الي • اتعلمين ان عدو المرأة

اللين هذا •• كان يتحرق توسلا ، في آخر عمره ، عند قدمي ممثلة شابة من

أجل ان تقبله بعلا لها ؟

— أريد نخبا آخر •

— في صحة فتاة الحافلة •• فقد جعلتك تلتفتين •

— كنت سألتفت بدونها •

— نخب صدفه رائعة جمعتنا معا في الحافلة •

— هذا نخب لطيف •

فرفعت كأسى ماسا كأسها برفق • فى تحرقى الجسدى إليها كنت اجدھا
جبة اللطف ، تتكشف ، كل مرة ، عن امتاع وموانسة اخرين •

— أيروفك ان تكون المرأة اكبر منك ؟

ليس كل امرأة •

— هناك عندهم •• اكنى تحب امرأة ؟

— أجل •• كنت أحب •

— أهى فى مثل عمري ؟

— تقربا •

— صفها لى أرجوك •• انما يحق •

تلك امرأة تشبهها نحا ما • انما كانت بشعر أحمر ذاكن وعيتين

نخضراوين • وكنت حذرا فى اجابتي ، متوجسا أن تغتم •

— اذن مازلت تحبها • ولا ضير فى هذا • يعجبني ثباتك فى حبك •

وانت انما تريدھا فى أنا • بينما انا فلا احب فىك شخصا اخر • وهذا سبب

قوى آخر يزيدني حذرا • لن اكون اكثر من صديقة لك • اترى ايها الشاب ؟

قالت جملتها الاخيرة باسمه ، ملاطفة •• لاكما يقال عندهم لامري

شاب عابر أو غريب •

— قبل لحظات كنت تتهميني بالحكمة •• وها انت تحكين على

الاحاسيس القلبية عبر منظار الحكماء الصارم •

— ينبغي ان اكون حكيمة فى عمري هذا • لكنك كنت تتكلف الحكمة

والحذر تكلفا • وكأنما الامر سينطلي على •

— اسمعي لينا • الانتهاء من فارق العمر اخيرا ؟ ما الفرق فى ان نحب

امراً اكبر أو اصغر منا ؟ مع انك فى الثلاثين •

— انظن اننا نحب ، عندما نحب ، بارادة منا ؟ انا اوافق الا اهمية هنا

لفارق العمر .. انما حين نحب حقا .

— لكنني احبك . وانت تعلمين هذا جيدا .

— انت تريد امرأة اخرى في .

— ها انت تبتكرين حاجزا اخر متوهدا بيننا .

— انا لا ابتكر .. أي شر في انك احببت قبل سنة او قبل سنين ؟ كنت

أحب زوجي . ولقد احببت غيره في صباي . لكنني حين التقيتك أحببتك

وكأنتي أحب لأول مرة . اتدري أي شيء يجعلني حريصة على صداقتك ؟

انني لاحس معك انت أحاسيس شيقة لم اعرفها من قبل .. لم اعشها . ربما

كنت ، في غيرما وضوح ، اتمنى ان اعيشها . انني لاحس بقربى عجيبة

تشدني اليك . وهذا السرور الغريب في أنني معك ! انا لا استطيع أن اتحدث

عن هذا كما ينبغي . انك تنظر الي أو تلمسني فتتملكني رقة عظيمة نحوك .

— سأقول لك قولاً جاداً صادقاً .. فلا تنظري الي الا جادة ايضاً ..

أقسم انني سأقترن بك صباح الاثنين .. لو انك ستقبلين .

— ارى انك قد ابتعدت كثيراً . هذا أمر لم يخطر في ذهني لحظة

واحدة . ماذا دهاك ؟ لاتعكر علي هناءتي معك .

— اسمحين لي بمراقبتك ؟

— ها انت تتحول من الحكمة الى المكر !

— أي مكر في ان رقص ؟

— لا مكر في الرقص نفسه . انت تعلم ماذا اريد ان اقول .

— ما الشر في أن احتضنك في الرقص واقبلك ؟

— الشر في أنني سأفعل وأضعف . قلت لك انني احبك . انت ترى

انني صريحة معك . وأنا اعرف انك راغب بي .

— أهي رغبة وتنقضي ؟ انا احبك ، وأود كثيرا ان تأثري فتضعني .
انما لا أريد ان امكر بك فتندمي على ثقتك بي .

— انك لماكر كبير حقا . . وذو حيلة . فيم هذا التحايل الناعم مع امرأة تحبك ؟ أتريد ان تؤثر في بكلمات ؟ انا لا انكر عليك رغبتك هذه . بل اجدها امرا طبعيا . أنا امرأة . ويسرني ان ترغب بي . انما لا أريد أن اكون لك مع هذه الرغبة وحدها . اتظن انني سأحتمل نظرتك الي ، بعدها بأيام ، وقد مللتني ؟ سأشقى بالطبع واكتب لك واتلفن . فيم هذا كله ؟ لاشيء في الحياة يستحق هذه التعاسة الرهيبة غير حب الرجل لامرأة أحبته . . فكانت له . لكنك تستطيع ان تنتظر . . سنلتقي كل يوم . وسأزورك ، وسأضعف ، مرة ، بين يديك . وهذه ، بالطبع ، قضية اخرى . ولعلك لم تظن لها . . بالرغم من انك ذو حيلة بديعة . وبعد ؟ لا اظن انك ستفكر أنني كنت اتصنع معك لتتحرق رغبة بي . . مع اني اود ان اعجبك كثيرا . اترى ؟ ها انت تعرف كل شيء عني آخر الامر !

لم اقل شيئا . كنت اود ان اتزوجها حقا . لا أدري ماذا جرى لي ؟
كانت في قولها ونظرتها صادقة صدقا أقعدني عن اي تفكير اخر .

— اسمعي لينا . . أقسم لك انني اود ان اتزوجك .
— الم تفكر بشيء اكثر تسلية ؟
— لكنني جاد .

— لا أحب جديتك الثقيلة هذه . ألا تريد ان تبهجني بقول اخر ؟ انت تريد أن تتزوج في امرأة اخرى . أتفهم ؟

— تلك قصة قديمة نسيتها منذ زمن بعيد .
فردت غير مصدقة :

— حسنا فعلت . اريد ، هذه المرة ، أن امسي مرحة تماما . دعنا

نشرب قدحا اخر • أنا احب هذه الخمرة المولدافية • أتدري ان تشرشل
من اكثر الناس اعجابا بالكونياك المولدافي ؟ ارجو ان تتاح لك فرصة ما
لزيارة مولدافيا في آخر العام • حيث السماء الزرقاء الصافية والشمس
المتوهجة المتقدة حارة ، والارض لما تزل متشحة بثلوج البارحة • شمس
وصقيع كما قال بوشكين • اليس بديعا ؟

— سأجلس قريبا منك • أسمحين ؟

— فيما بعد •• دعنا نشرب متقابلين هكذا • أحب ان انظر اليك •

— يلذ لي ان اقبلك

— افهم هذا • لكنني لا اريد ان افعل •

— سأقبل وجهك •

— طيب • انما قليلا •• وليس على الشفتين •

انحنيت ألثم وجهها وعدت لاجلس • ورأيت وجهها يتلون ثانية بالحرمة
العسقية • كانت تتأمل قدحها في شرود • فدعوتها لان تشرب • كنت حريصا
على امتاعها وتسليتها • فكنت اصب الخمرة مقترحا نخبأ آخر كل حين •
وكانت ترتشف خمرتها مستمتعة •

— لكنك لم تأكل شيئا •• كل •

— سأكل حين تأكلين •

— انا احرص ان يكون عشائي خفيفا • ماكنت اعلم انني سأرضخ

لرجائك فأزورك •• لكنت جئت بشيء من البيت •• بخيار ملح •• (يجبك •

— كثيرا •

— سأتي به في المرة القادمة •• حتما •

— نخب صديقتك الناصحة •

فتذكرت وضحكت ضحكة فاعمة :

- لاظن انك تريد أن اخذ بنصيحتها •
- بالطبع لا • أنا امزح •
- انت اكثر تقديرا لي من أن تفكر هذا •
- أوشكت القنينة ان تفرغ • فجئت بالثانية • كانت خمرة جيدة • وكنت احب ان اشرب معها ، وأزيد لقاءنا مرحا • كانت تنظر الي وأنا اصب النبيذ متأمل • قالت بلطف :
- هذا كثير •
- اتخشين أن اسكر •
- كلا • لكنني لا اريد اكثر مما شربت •
- لن أحثك على شيء منه • وارجو سماحك بأن اشرب قليلا •
- بالطبع • يمكنك ان تشرب • انما باعتدال • لن ادعك تشرب الكمية كلها • هذا كثير • يكفيك قدح آخر أو قدحان • وسأشرب انا قدحا اخر لاجلك • ولا أظن انني سأسكر •
- اتعرفين ماذا سأفعل لو انك سكرت تماما ؟
- ستركني انام في هدوء وارتياح • انت اكثر طيبة من ان تزعجني بشيء • والان دعنا نشرب نخب نجاحك شاعرا •
- شكرا •
- ومست كأسها بكأسي ، ناظرة الي بابتسامة ملء وجهها كله ، وبحركة رشيقة لأرقق منها • وكانت عيناها تتسعان في ارناءة طويلة • أي حنو ! اي توق في هاتين العينين الرائيتين !
- لينا .. لكم اود ان المس اكتافك .. أن المس شعرك ، أن المسك انت واقبل هذا الجمال كله !
- أتريدني كثيرا هكذا ؟

— بلى .. أحبك وأريدك .
 — لا تقل أحبك . انت تريدني ، واعرف هذا .
 ومرت فوق وجهها حيرة ما . ثم رأيتها تغض طرفها ، متألمة ، وفي عينيها
 طيف غيمة ، ندى دمة ستعلق بأهدابها بعد قليل .
 — لا تحزني . لن اطالبك بشيء .
 — أي نفع في إن تهناً بي ليلة .. وتلفظني كالنواة ؟ أيهمك جسدي
 هذا اكثر من أي شيء اخر في ؟ الا تفكر بي الا جسدا ؟
 — لكنه جسدك انت .. لا أي جسد اخر .
 — الا تفكر بي ؟ بحبي لك ؟ وبأنتي سأخرج من هنا ، وربما غدا ،
 مهزومة يائسة ، خاسرة كل شيء ، وقد ابصرت بالملل والسأمة في عينيك ؟
 أتريد هذا ؟ اتريدني ان اتعذب طويلا ، واتوسل وأذل .. أتريد هذا من
 اجل ليلة معي ؟ من اجل أن تطفيء رغبة فتكتفي وترتاح ؟ الا ترى انني احبك ،
 ولا اريد ان افقدك ؟ دعني أر يوما انك تحبني ، دعني أر هذا ، مرة ، في
 عينيك .. في نظرتك الي انا .. لا الى جسدي وحده أو امتلاء ساقي .
 اتظن انني لا اعرف ؟ ان ما اجتذبك الى هو هذا .. هو هاتان الساقان .
 اتدري ؟ كنت متمعدة حين اظهرت لك ساقي في الحافلة . أجل . كنت
 متمعدة . ولربما كنت أناثية . كنت اريدك لي . كنت اريد ان الفت عينيك
 الي فتهم بي . أي شيء كان يمكن ان أريك مني غير هذه الساق ؟ أي شيء
 كان ظاهرا غيرها ؟ لو أنك كنت قبالي ، تتأمل وجهي معجبا ، راغبا
 بصداقتي ، وهذا ما نعرفه جيدا نحن النساء ، ومن نظرة واحدة ، لو انك لم
 تكن ورائي قليلا .. الى الجانب الاخر وكنت تستطيع رؤية وجهي .. لما
 تمعدت معك تلك الحركة . وهي .. تقريبا غريزية فينا . اتفهمني ؟ كنت
 حزينا جدا ، وبنظرة لا اشد اكتئابا وتوحدا منها . ورأيتك مختلفا عن

الآخرين ، مختلفا تماما ، فأحببتك • وجدتني منجذبة اليك فجأة ، وخلال
برهة واحدة • لقد رأيت روحك المتوحدة في نظرتك الحزينة تلك • لا تنظر
الي متسائلا هكذا • هذا يحدث • رأيت نظرتك عبر زجاج الحافلة • وكنت
واقفا غير متبه لي • من يدري ؟ ربما ادركت انني احبك حين كنت اتحدث
مع صاحبتني عنك لكنني أحببتك في الحافلة نفسها • هذا شيء لا ينسى •
وكيف انسى انني رأيت روحك وحيدة ، محزونة حزنا رهيبا في نظرتك ؟ أية
نظرة حزينة كانت ! كنت أريد صداقتك • وسأبقى أريدها • فيها وحدها
سأحتفظ بك لي • ما الذي جعلني متأكدة تقريبا من انك ستريديني ، وتتبعني
دون تلك الفتاة المتضحكة ؟ ربما لانني أعرف سطوتي الجسدية ، سطوة امرأة
في مثل عمري عليك • قلت : لا تظهرن مني ما يجتذبه الي • وسيفهمني بعد حين •
سيفهم أنني أحبه • • وسأعلو في نظره • فيودني ويحرص على مودتي له •
قلت : ربما سيحبني يوما ما • لا بأس ، بعدها ، من ان أتألم • يكفي ان
يحبنى مرة ! اتفهمني ؟ لكم كنت راغبة أن اخفف عنك • • ان اقرب من
روحك المتوحدة • • فأخفف عنها !

واخذنا نشرب صامتين فترة •

— الا ترين انني احبك •

— ارى رغبتك وحدها •

— اسمحي ان اقول انك مخطئة •

— وهذه النظرة الراغبة • • ما فتئت تلقىها على جسدي مني وحده ؟

— لانني احبك •

— اتظن ؟

— أي شيء استطيع عمله فتعري انني احبك ؟

— لا شيء •

— فكيف ، اذن ، ستعرفين ؟

— حين أرى انك تحبني •

— لكنك تفكرين بحب لارغبة فيه •

— متى قلت هذا ؟ ألم اقل لك انني سأضعف ، مرة ، وأكون لك ؟

انك تقبلني وتلمسني •• أما تحس بي كيف اتوق اليك ؟ انت ترى هذا

جيذا • بل انك رأيته حين ضممتني اليك لأول مرة • أي حب لاجسدية

فيه ؟ ام انك تحسبني ملائكية ، هابطة من عالم آخر ؟ انا امرأة • واجب كما

تحب الاخريات • غير أنني احس معك بشيء آخر •• لقد قلت لك • شيء

فوق كل رغبة • مع انني اريدك • لم ارد أحدا ، في حياتي ، مثلما اريدك

انت • اترى ؟ ألم تفهمني اخيرا ؟

— مع هذا •• لافهم •• لاحتل أن يبيت احدنا بعيدا عن الآخر ••

هذا أمر في منتهى القسوة • رغم انني أقدر رأيك تماما •

— اتراني قاسية معك ؟ أنا ؟

كانت تبتم لي في رقة عظيمة •• رقة لا تمتلكها الا امرأة تحبك ،

وتدري انها ستمنحك عطاءها كله يوما ما •

— مادام هذا قاسيا كما قلت •• الا تجد أنني قاسية مع نفسي اكثر

من قسوتي معك ؟ لكنني سأبيت عندك مرة • اجل ! سأبيت •

— وتتركيني وحيدا هذه الليلة ؟

— ستتجول بعد العاشرة •

— وبعد الجولة ؟ وحيدا أعود ؟ اية وحشة !

— الست سعيدا بجلوسي معك ؟

— لن اكون معك غير سعيد •

— حقا ؟

— اجل ! لن اكون معك الا سعيدا •

— لكنك لن تكرهني حين اذه • ؟

— اكرهك انت ؟

— اترى كيف تلفظها ؟ وكيف تنظر الي ؟ انك لتودني كثيرا • • هذا

واضح • اتدري ؟ حين ترنو الي أجدني جميلة • اية نظرة حزينة هذه !

ستحبني ذات يوم • اجل ! من يدري ! ربما ستحبني • ليس طويلا • • انما

لايام • كلا • • كلا • أنا احلم • ربما لانني شربت • لكنك حزين جدا ! أمن

أجلي أنا هذه الكأبة كلها ؟ الانسي سأتركك ؟ لكننا سنفترق يوما ما •

سنفترق بلا موعد ، بلا لقاء • سيكون الامر مختلفا عند ذاك • ستكون

قد سمنتني ، ورغبت بغيري • • لا • لا تشرب بعد • هكذا يكفي • لا تنظر

هكذا الي ، وكأنتي سأضيع منك • وكأنتك ستفقدني ، بعد ساعة ، الى أبد

الابدين • قلت لا تشرب • لا اريد ان تكون الخمرة سببا في اشتهاك لي •

اتراني سكرت ؟ كلا • لست سكرى • أنا مرهقة قليلا • اتدري ؟ أنك

تستطيع ان ترغمني على البقاء معك • لا أقول انك سترغمني بالحاح أو

توسل منك • بل بهذه النظرة الحزينة وحدها • بنظرة منك لاغير • كن

مرحبا معي ارجوك • اترى ؟ ها انت تبسم لي • انك لاتريد ان ترغمني على

شيء • انك لتقدرني كثيرا • اتدري ؟ بدأت أشعر انك • • كلا • • كلا •

انتي اتخيل • هذا لانني شربت •

— كلا • انت ترين انني احبك •

— كلا • هذه هي الخمرة •

كنت أود ان اتجرع مزيدا ، وباعتدال • وماكنت لاريد لها أن

تشرب • انها مرهقة • وكنت مترددا • ربما ستفهمني خطأ •

— لينا • هذا النيذ لا يؤثر بي كثيرا • أنت ترين انني غير ثمل •

— كلا . لست ثملا . انما انت حزين بسبي .
— اجل . أنا حزين بسبك . لكن ليس كما تظنين . رأيت أنني لم
أصب لك ، ولن ادعك لتتعي نفسك بمزيد من الخمر ؟
— اعرف هذا . تقول انك حزين بسبي . وليس كما أظن ؟
— أجل . اسمحين لي بكأس ؟
— أشرب مادمت راغبا .

كنت ارتشف ببطء .. وأنا ادري اية وحشة ستحل في غرفتي بعد
انصرافها . وكنت احاول المرح عبثا . اني لاود ان تبقى .. أن تظل معي حتى
الفجر . اجل ! كنت سألتها قليلا . ولن احاول معها شيئا لارتضيه . هاهي
قرية مني تتطلع الي . وتقترح علي رحلة الى الضاحية لتعلمني التزلج .
وتحدثني عن بيتها الخشبي الصيفي في الضاحية ، وحديقته . سنقضي صيفا
ممتعا هناك . سنقطف المالحا ، ونجمع الكماة في الغابة المجاورة . سيكون
صيفا رائعا جوار البحيرة والغابة . وسألتني أن أصب لها فاعتذرت .

— طيب . سأخذ كأسك . لن تصدني عن هذا .
وصيت لي في كأسها . وكنت اصفي اليها باتباه :
— سنقضي الصيف معا في الضاحية . لن ارتحل جنوبا هذه المرة .
ستعيش معي صيفا روسيا بديعا . سنقضي اوقاتا لاتنسى . وستكتشف
الغابات الروسية جيدا . ستحبها كثيرا . وسنبح في البحيرة كل صباح .
سنقوم بجولات طويلة . وتتعدى هناك في الغابة نفسها . سنكون حزين .
وسنلتقي بالمئات من المتزهين . وتتعرف ببعضهم ، ونقوم معهم بنزهة طوال
النهار . اسكب لي ايضا . هذه اخر كأس . اسكب ارجوك . اتظنني
سكرت ؟ كلا . انا اريد ان اشرب معك . ماذا دهاك ؟ اسكب لي . لن
اسكر . لاتخف علي . شكرا . انت لطيف . انت طيب جدا . جميل انك

لم ترد طلبتي • انت لن ترد لي طلبا • اعرف هذا • لن ترد لي رجاء في ايما
يوم • هاهي نظرتك الحزينة ثانية ! وكنت اقول لنفسي : انني سأسعده
بصحبتني • لكن حقا انك لحزين ! ألم يترك حديثي ؟ بالطبع انت مكتئب
بسببي • الافضل لو أنني لم أزررك • لكنك لم تعد تتعذب برغبتك في • أنا
أرى هذا • بلى • أنا أرى هذا • قلت لي أن هناك سببا آخر • ترى ماهو ؟

— لا اريد ان تذهبي • سأحس بوحشة رهية •

— حقا ؟ اذن سأبقى • سأمكث معك •

وتطلعت الي بعينين متسعتين :

— بالطبع انت لاتفكر بأي شيء آخر • سأبيت الليلة هنا • اتظن أنني
سأمضي واتركك وحيدا ؟ لن اغض لي جفنا حتى اراك نائما ، هادئا • وسأبقى
على كرسيي هذا • بالطبع استطيع • سأظل ساهرة حتى تصحو • ستجيني يوما
ما • الطبع • وسنهأ كثيرا • أي فال طيب ! كل منا يشرب من كأس صاحبه •
هذا فال ممتاز ! يعني انا سنبتهج كثيرا معا • سنقضي صيفا جميلا • صيفا
يديعا • لكن لماذا لاتشرب ؟ اشرب واسكب لي ايضا • أنا لاسكر • لاتخش
علي شيئا • انني أحس بالنشوة لاغير • اسكب • شكرا • انت طيب • اترى ؟
أنا باقية معك • تعال • تعال اقبلك • لم انت واقف • كالمتهجير • اجلس •
اجلس قبالي وانظر ناحيتي • اجل هكذا • اتراني اعجبك حقا ؟ أنت حريص
على ان اكون لك ؟ لاتنظر هكذا الي • فيم هذه الكأبة • يظن أنني ثملة ! لاشيء
من هذا سوى أنني متعبة قليلا • ونعسى • لكنني سأسهر • بالطبع سأسهر •

— لينا • انت مرهقة • ولن تسهري اكثر •

— سأسهر •

— طيب • أنا لأحس بأي نعاس • سأخرج قليلا • وتستطيعين أن
تتمددي وترتاحي • وسنكمل السهرة فيما بعد • من الافضل أن تستريحي

قليلاً • أنت نعسى ومرهقة • لا بأس من أن تتمددى ساعة •

— طيب • سأغفو هنا على مقعدي •

— خير لك أن تتمددى فوق السرير • سأخرج وأعود بعد دقائق •

كانت تبسّم • وكانت في شبه حيرة • قلت :

— أنا عائد بعد دقائق • سأقفل الباب •

وعدت بعد دقائق • كانت مستغرقة في نومها • في فراشي • لم يستعد وجهها شحوبه بعد • كان متورداً ، مشتعلاً الوجنتين • وكانت في قميصها وحده • فدثرتها بالاعطية جيداً • وانحيت لاقبل وجهها • كانت نائمة لاتحس بشيء • وكأنني اقبل امرأة مخدرة • فأبتعدت عنها • وجلست الى المائدة • ورأيت ضوء السقف باهراً فوق وجهها المرهق الغارق في النوم • فأطفأته • واشعلت مصباح الطاولة عند السرير • كانت الزجاجاة فارغة • فنادرت الغرفة مقفلاً بابها • وقلت سأمر على جيلي • كان بابهُ موصداً • لم يعد بعد •

ولم ادق على جون • أي شيء غير الشاي في غرفته ؟ كنت اريد كأساً اخرى • فأتجهت نحو غرفة ايفاس • كنت اسمع لعطاً لديه • كانوا يشربون • فأتهجوا بي صائحين ، متهللين •

قلت هذا أفضل من أن أجلس في غرفتي متحسراً • أي جمال نائم هناك ! وكانوا يشربون الفودكا • في جدل متعاضم • وكان فكرت في ازهى تجلياته • كان ممسكاً بكأسه لا يضعها الا فارغة لتلاء • ورحت أشرب • كنت فرحاً ، مترع النفس بالامنيات الرائعة : انها هناك ، في فراشي نفسه • لكنها نائمة • من يدري متى ستصحو ؟ فإذا صحت ؟ سأضمها وأقبلها طويلاً فلن تبخل • أهى الفودكا ؟ انني لاشعر بدوار • هاهو ايفاس يملا قدحي • وهذا أزر يعالج سنه المؤلم بالفودكا ودخان التبغ • وانبرى فكرت يقرأ لي اخر قصائده : ان نهراً كالضفيرة الذهبية يفصل بين جانبي وطنه • لا اذكر كيف انقض سامرنا • لكنني اعرف انها في غرفتي •

ووجدتها ، مثلما تركتها ، مستغرقة في نوم عميق • ارتديت بيجامتي وانطرحت جنبها • وكانت نائمة كالمخدرة • كنت أحس بدفئها ، واسمع تنفسها الخفيف • وكان شعرها الاشقر متموجا ، غزيرا فوق وسادتي • كنت أود أن أضمها • لكنها نائمة • وكنت أحس نحوها باشفاق فالتزمت الهدوء • ستصحو بعد حين ! لو اكتفيت بالنبيذ وحده لظللت ساهرا • لكنها الفودكا • ولا اتذكر متى غلبني النوم •

كانت الساعة الثامنة حين صحت • كان الفراش خاليا منها • وسمعتها تقول ، وكانت واقفة عند خزانة الالية :

— صباح الخير •• كيف نمت ؟

— جيدا •• وانت ؟

— ربما لم أنم في حياتي ، مرة ، مثل هذا النوم العميق •
ونهضت لاقبلها •

— كنت اقبلك وانت نائم •

— لم لم توقظيني ؟

— ولماذا ؟ سأعد لنا افطارا طيبا •

— سأساعدك •

— دع عنك هذا • لكنك لا تخزن شيئا لافطارك تقريبا •

— هاهي ثلاث بيضات •

— لا بأس • سأجعل منها مع بقايا السجق وجبة عظيمة •

— أنا افطر ، عادة ، في بوفيت المعهد • كنت أحسب أننا سنأكل في مطعم

الحبي ، فلم أتسوق شيئا •

وارتديت ثيابي • وتبعتها الى المطبخ • رأيتها تسرع في حركاتها • وكانت

جيلة في اسراعها هذا وثقلها • قلت :

- أرى لك هبة .
 - أنا هكذا في عملي .
 كان افطارا شهيا مع الشاي . وأردت أن أبقياها .
 - كلا . ينبغي ان اذهب . ستراني كثيرا . سأراك في السابعة مساء
 اليوم . اجل . وسنقوم بجولة في المدينة .. كما اتفقنا .
 - ليتنا نقضي الامسية هنا .
 - كلا . سأزورك ليلة الاحد .
 - هذا بعيد جدا .
 - ما العمل ؟ علي أن انهض مبكرة كل يوم . لكنك ستراني في العاشرة
 كل مساء . أم ان لك رأيا اخر ؟
 - وأي رأي لي غير أن أراك !
 - أحقا ؟ والان ينبغي أن اذهب .
 - كم اود لو تبقيين .
 - شكرا . لا استطيع . انت تعلم .. البيت ومشاغله . ماكان عليك ان
 تفتح تلك القضية الثانية . أحببت ان اكون اكثر مرحا فتعبت .
 واعتنتها في ارتداء معطفها . وأردت ان اوصلها حتى بيتها . قالت :
 - ستوصلني حتى الشارع . شكرا على دعوتك لي .
 كان يوما عاصفا . وكانت الثلوج تنهاوى طوال النهار . والتقينا في
 السابعة عند المنزل . فقصدنا الحافلة . وأمضينا ساعة تتجول في الازقة
 القديمة . ودخلنا مقهى لاح لنا ، فجأة ، بلافتته المتوهجة . فأوصيت على قهوة
 وكونياك . وحطت على مائدتنا شابة جميلة متبرجة . فكان لها مع لينا حوار
 شائق لم أشأ مشاركة فيه .. كاتتا تتحدثان عن السينما .. عن الفلم الايطالي
 « روكر وأخوته » وعن فلم سوفيتي جديد لم اشاهده . كانت الفتاة طالبة في

المعهد السينمي ، وكان لها دور في الفلم • وخرجنا معا تمشي • واتفقتا على رحلة للتزلج •

لم اجد متعة كبيرة في رحلة الضاحية • ماكنت اعرف من التزلج الا نزا • كنت أراوح في مكاني • ولقد بذلتا جهودا في تدريبي • كان يحزنني قعودي وأنا اراهم منطلقين فوق المنحدر الثلجي المترامي جوار الغابة • ثم اختفتا طويلا بين المئات من المتزلجين • وعادتا الي ضاحكتين متوردتين • وغاظني من لينا ابتعادها عني مرة ثانية • • عاهدة بي لصاحبها المثلة • أهـي تعتمد هذا تعمدا ؟ أتريد ان تجربني ؟ أهـي فرصة لان تعرف حقيقة ماأكن لها من وداد ؟ أهـي حيلة منها ؟ تتركني مع فتاة في مثل عمري • • لتعرف اي صديق أنا ؟ ام انني اتصور هذا تصورا ؟

طوال ساعة كنت مع المثلة • ولقد سرها كثيرا اكتشافها في تلميذا طيعا لا يتقدم الا ببطء • وكانت على العكس مني في مرحها وانطلاقها • كنت أثار بسلامتها لي ، وارتجاجها غير المتقصد بي • • وشعرها المتطاير على وجهي • أما هي فكانت في حركاتها كلها غير متبهة الا لشيء واحد : هو تدريبي • وعادت لينا سعيدة متوردة • عبثا كنت أبحث في عينيها عن أية لمحة من مكر أو شك أو تساؤل • كانت مبتهجة بصديقتها الجديدة • • لا لانها مثلة • فما من عاداتهم ، هنا ، أن يكثرثوا كثيرا بالشخصية الشهيرة • رأيت ، مرة ، ككارين ويتوف ورائد فضاء آخر واقفين منتظرين دورهم في مطعم باكو • فما أثار هذا فضول أحد • ورأيت سايينا مغنية الاوبرا الاولى في عربة المترو • • وكان شأنها شأن اية امرأة اخرى • لا احد يتقرب أو يسأل • انما هي نظرة عابرة تلقى عليها وتنصرف عنها • غير انهم يتزاحمون على توقيعها هي أو غيرها من الشهيرين بعد الحفل ، بعد مشاركتها في أمسية اجتماعية أو فنية ما •

كانت لينا مسرورة بصديقتها • • لالشيء الا لانها لطيفة ، بارعة مثلها في

الرياضة • وكان ينبغي ان نشاهد فلمها • وكانت تمثل دور مرضة فيه • وكانت
لينا تقول مصرّة :

— لابد من أن نشاهد كاتيا في فلمها •

وفي عربة القطار ، قطار الضاحية ، كنا نتحدث عن جولتنا الليلية المتأخرة :
قالت كاتيا :

— أية نزهة بديدة ! لو انني جارة لكما لشاركت يوميا •

واتفقتا أن نشاهد الفلم معا مساء الثلاثاء • كان علينا ان نهبط قبلها •
فكانت تهتف بنا ونحن نغادر :

— لاتنسيا • في الثامنة الا ربعا عند مترو الجامعة •

كان الفلم في سينما بروكريس • كان وضعنا هذا اعتياديا بالنسبة لهما •
أما انا فقد وجدتني في تجربة غريبة • ليست هي المرة الاولى أن اجدني بين
امرأتين في مقهى أو سينما • فمن السهل أن اختار بينهما • لكنني الان متحرج
متكلف • أي ميل ظاهر مني ، أي تقرب لكاتيا الجميلة الفتية • • سأخسر معه
امرأة رائعة • كنت أريد لينا • بل انني اتحرق رغبة بها • وها أنا أحس بطيف
هوى ، برغبة مبالغته في هذه الفتاة الفتاة المرحّة • وسألت لينا مازح :

— اهكذا هنت عليك ؟ تتركيني طوال ساعة ؟

— لكنك كنت مع كاتيا • اليس لطيفة ؟

— بالطبع هي لطيفة • أظن انها ستجيء مع صديقها مساء الثلاثاء • اهو
مثل ايضا ؟

— كلا • ستحضر وحدها •

— كيف ؟ اليس لها صديق ؟

— لاأظن • • مادمت ستحضر وحدها • لكن أية غرابة في هذا ؟ بالطبع أن

لكاتيا زملاء كثيرا • غير انهم زملاء لاغير • الم يحدث لك انك كنت ، مرة ،
بلا صديقة ؟

— حدث هذا مرارا •

— اتري ؟

وألقت علي نظرة باسمة :

— سألتها عنك ونحن تنزلج فأخبرتني انها معجبة بك •

— أي نبأ !

— أما انا فلقد سررت • يبهجني ان تراك صديقاتي لطيفا وجذابا • هذا

أمر ممتع • اليس جميلا أن تكون كاتيا معنا ؟

— أنا احب أن اكون معك وحدك •

— وأي ضير أن نلتقي بها ؟ كاتيا فتاة ممتازة •

كنا عند مترو الجامعة مساء الثلاثاء • وكانت كاتيا في انتظارنا • كانت

تتقرب بوجهها مني كلما سألتني أمرا ما • فكنت أناى بوجهي قليلا غير متعبد •

وفي المترو ، بعد الفلم ، أخرجت كاتيا من حقيبتها تذكرتين :

— ستقام في معهدنا حفلة راقصة ليلة الاحد • وارجو ان تحضرا •

ستقضيان وقتا ممتعا •

وأردت أن اعتذر • فأصرت لينا أن نذهب • وافترقنا عن كاتيا عند محطة

غوركي • كنت اعرف طالبة في معهد السينما • رأيتها ، مرة ، في حفلة هناك •

وكنا مدعويين لقراءة شعرية • كان قوامها ناحلا تقريبا • غير أن لها وجهًا

ساحرا ، وجه أميرة أو ملكة • سألتني أن ارقص معها ، فما افترقنا ، بعدها ،

لحظة طوال الحفل • واتفقنا على لقاء • واعطتني تلفونها • لكنني لم احضر ولم

اتصل بها • كنت أكره أن أحبها • أي شقاء رهيب أن أحبها هي ! اي اسى في

عينها ! أسى طفلة ضائعة لااحتمل رؤيته • ورأيتها ، صدفة ، بعد شهور في

شارع غوركي • كانت بين مجموعة كبيرة من الفتيات • وكنت مع اصدقاء •

رأيتها تحيني ، وتتوقف قليلا لاتقدم منها • فرددت تحيتها مضطربا دون أن

القدم • وكنا في اتجاهين مختلفين • والتفت بعد حين • فوجدتها ملتفتة هي
الآخرى • فلم افعل شيئاً غير ان اواصل سيري • ولامني اصدقائي : يومها ،
لوما لانساه :

— اترك فرصة كهذه ؟ أهذه فتاة تضعي ؟ أي جمال ! كنت تستطيع في
الاقبل أن تدنو منها وتصافحها • كانت تنتظر فأخرجتها •
قالت لنا ، وقد هبطنا من الحافلة :

— لن تتجول معي هذه المرة • ينبغي ان تقرأ •
— لكننا في الثلاثاء •• يوم الندوة • لم امكث في المعهد غير ساعة •
وكنت اقرأ طوال النهار •

كنا تجول في الطرق الليلية الهادئة • وكنت احاول اقناعها بالعدول عن
حضور الحفلة • كنا نستطيع ان نعتذر بالتلفون • قالت لنا :

— كيف نعتذر ؟ الم نعدھا ؟
— الم تتفق أن نكون معا ليلة الاحد ؟
— لكننا سنذهب معا •
— قلت انك ستزوريني •
— سأزورك •• في يوم آخر • اتدري ؟ انني احبذ الذهاب لاجلك انت ••
ستكون امسية فاتنة • وستشكرني •• سترى •
— طيب • لدي اقتراح •
— أي اقتراح جميل عندك •
— سنحضر الحفل كما وعدنا •• وسنكمل السهرة عندي •
— انك لتبتكر ! يجب ان تنهض مبكرين صباح الاحد • فلا اريد أن
اسهر •

— وفيم نهوضنا المبكر ؟

- سنمضي في رحلة تزلج • ستكون كاتيا معنا • هذه فكرتها هي •
- لأرى الأدة من ذهابي معكما •
- كلا • ستذهب معنا • لن تكون الرحلة ممتعة بدونك •
- واية متعة في رؤيتي مضطربا ، باعثا على الضحك ؟
- لو تدري •• اية بهجة أن أراك مترنحا بين يدي !
- اتحرميني من أن نكون وحدنا ؟ من ان اضلك وأقبلك ؟
- لكنك تستطيع أن تقبلني هنا •
- فأردت أن اقبل شفيتها •
- كلا • لأعلى شفتي • سأفعل •
- أنا اريد شفتيك •• أريد ان اضلك بين يدي •
- ستضمني كثيرا • اعدك بهذا • ستقبلني كثيرا حتى تسأم • سنقضي اوقاتا ممتعة في الضاحية •• في المنزل الخشبي الصغير •
- أي رنين غريب في صوتها ! وهي حزينة • وفي عيونها تلمع نداوة دمع !
- فيم الحاحي هذا ؟ هاهي تتذكر وعودها • وهذه المראה في توكيدها غير خفية عني • اتراني ألح لاقطف ماشاء من ثمرتها المتدلية •• ولارتوي من ريقها العذب كفايتي •• ولامل بعد حين ؟ بعد اسبوع او شهر ؟ لافرق • فأني صيف ؟ وأية وعود تبقى ؟ أهني ظلال وعود تلوح لها •• وهي تتصورني راغبا متأججا هذه الليلة ، زاهدا بها بعد ليال ؟ من الصواب أن اترك الامر كله لها • بالطبع كانت ستزورني ليلة الاحد لولا اقتراح كاتيا • لكنني سأنتظر • مع امرأة مثلها ! غير انها حزينة • وعيناها غائمتان •
- لينا •• صحيح أنني اريد زيارتك لي •• لكننا نستطيع أن نكون معا في ايما مكان • في السينما •• في المسرح • لا في الغرفة وحدها •
- كلا • سأزورك •

- لن أزعجك بشيء من هذا • أهى الغرفة تجعلك هكذا تحزين ؟
- أأضايقك من اجل لقاء في غرفة ؟ لاغرف بعد اليوم •• لاخمر ولا قبالات •
- ماذا جرى لك ؟ فيم هذه اللهجة الاحتفالية ؟ هانت تنبري خطيبا
- هذه المرة ! هاهو شيشرون يتجول معي في موسكو وأنا لاادري !
- مانا شيشرون • انا سقراط • كلا • انا كانت الاعزب العجوز •
- كنا نضحك عاليا ، وقد انقشع الغم عن وجهها •
- اسمعي لينا •
- ماذا ستبتكر ايضا ؟
- سأصحبكما في رحلة التزلج •
- اهذا جديد ؟ بالطبع ستأتي •
- وستفخرين بي • سترينني متزلجا بارعا •
- كانت تتأملني بعينين ضاحكتين :
- سأفخر بك مضطربا لا تستطيع وقوفا •
- سأثير عواصف ثلجية من التصفيق •
- كنا في الممر الفسيح بين المصاطب المقرورة المقفرة • وكانت الاشجار
- متشحة بالثلوج • وكنت اقبلها فتردني ضاحكة •
- اسمعي • اتدريين أي سبب يجعلني أتردد في ذهابنا الى حفلة كاتيا ؟
- هناك سبب آخر غير احتفالنا الفردوسي في غرفتي •
- أي شيء هذا ؟
- وقصصت عليها خبري مع المثلة الجميلة •
- ألها مثل هذه السلطة عليك ؟
- لم تعد لها سلطة •
- فأذا التقيتها هناك •• اتحبها ثانية ؟

- لم أقل انني احببتها .. كنت اكره هذا .
- اسمع .. لقد اثرت فضولي .
- في أي شيء ؟
- في قصتك مع المثلة . كان اصدقاؤك محقين . ماكان ينبغي أن تفوت فرصة كهذه .. فلقد أحبتك .
- مادراك ؟
- هذا واضح . لكن كاتيا أجمل منها ، ولم يهزك جمالها كثيرا ؟
- لاني معك ، ولانك أجمل منهما معا .
- سنرى !
- ماذا سترين ؟
- قد نرى المثلة .. وتتغير الامور .
- اتشكين في حبي لك ؟
- انا امزح معك . لتعد مرحا مثلما كنت قبل قليل . انا اعرف مودتك لي . انما ينبغي أن تعتذر لها . قل انك اضعت تلفونها .
- لاأظنها ستذكر شيئا .
- اهكذا تفكر ؟ هذا أمر لاينسى .. معها هي وبجمالها !
- وارتد أن اغير حوارنا :
- غدا سأمر على بائعة تذاكر اعرفها قرب بهو الاعمدة . لكنني لااعرف أية مسرحية تودين أن تشاهدي .
- شيء رائع انك تعرف بائعة تذاكر . حاول ان تحصل منها على تذاكر لعروض الفرقة الانكليزية ، فرقة شكسبير . ولتكن ثلاث تذاكر .
- الثالثة لكاتيا .
- لقد حذرت .

— فاذا تعذر على البائعة .. سأحصل على تذاكر من استاذتنا في مادة المسرح ، فيشيفسكابا . اتعرفينها ؟

— قرأت لها . مع هذا مر على البائعة . فهي اضمن .
— فاذا شغلت كاتيا ؟

— ستحضر . يسرها ان تكون معنا .
— أرى ان تتصلي بها أولا .

— سأخبرها بعد حصولنا على تذاكر . ستمر اكثر .
— ليتك تفكرين بسروري بعض هذا التفكير !

— أتعار من كاتيا ؟
— بل أحسدها .

— تحسدها في ان تكون معنا ؟ أنا لا أفهمك . اليس بديعا أن تصحب فتاة لطيفة وفاتنة مثلها ؟ انسيت اهتمامها بك طوال أمسية التزلج .. لالشيء الا لتدربك ، ولانك صديقي ؟ ودعوتها اللطيفة هذه .. لتريك اجواء فنية أخرى غير جوك الادبي ؟ يجب أن نشكرها . ثم انها صديقتي . لكنك ستمر بصحبتها . هذه فتاة نادرة .

كانت كاتيا في انتظارنا عند باب المعهد . ورأيتها جميلة جدا . كان وجهها أبيض ناصعا ، وعيناها ساطعتين ، تظن زرقتهما سوادا متوهجا . وكان شعرها كستائيا داكنا ، وقوامها ملتفا أهيف .

— اني لاشكرك كثيرا . اخبرتني لينا أنك حصلت على تذاكر . هذا كرم عظيم منك . فعلا كنت سأجد مشقة في الحصول على تذكرة . سأعيد قراءة « الملك لير » و « عطيل » حتى اتبع العرض جيدا .
ثم أضافت مازحة :

— امن الممكن أن تعرفني ، من سلك ، بصاحبتك بائعة التذاكر ؟

واخذت بذراعي :

— تفضلا .. سأعرفكما باصدقائي .

رقصت مع لينا أولا . ثم مع كاتيا . ورأيت لينا تبتسم لي ، وهي تراقص زميلا لكاتيا . ان لكاتيا حضورا هنا . ان كثيرا من المحتفلين يريد مراقبتها . وكانت لينا تعتذر كلما كان الرقص سريعا . ووجدتها تقترب مني ، وكنت اشكر زميلة لكاتيا راقصتها منذ لحظات . قالت هامة :

— رأيتهما ؟ انها واقفة هناك .

— من هي ؟

— صاحبك المثلة . اذهب واعتذر لها .

فالتفت . فرأيتها جالسة في الجهة المقابلة . كان شعرها الاشقر اللؤلؤي ، في تسريحته الرائعة ، متجمعا فوق رأسها . وكانت ترمق لينا .. وتطيل اليها نظرة متأملة . ورأيت ابتسامة سرور خفيفة تعلو وجه لينا . فلقد رأت نفسها في عيني المثلة ، رأت آية امرأة جميلة هي ! ألقت المثلة نظرتها الزرقاء الناعمة الندية علي . وحيثني بانحناء خفيفة . فأتجهت اليها أضافحها . فأسرعت تقول ، وعيونها تتأملني :

— كيف حالك ؟ انا مسرورة بلقائك .

— يسعدني كثيرا أن اراك .

— ارجو ان اسمعك ثانية هنا .

لم أقف معها غير دقيقة . واستأذنت عائدا . ان كاتيا لاجمل منها حقا . غير انني لأحس مع كاتيا مثل هذه الارتعادة في الروح . اني لا تحرق رغبة بلينا ، بشحوب وجهها وجمالها الجسدي الرهيب . وأجدني مستثارا بلمسات كاتيا . أما مع هذه المثلة فكنت . شخصا آخر . ماانا راغب بجسدها . اني لاود ان اتطلع اليها . غير انني اخشى عينيها حين تحدثان بي . أي شقاء ان

احبها هي ! طوال الامسية كنت اتحاشى نظراتها الي . فكنت اتحول سريعا عنها .

حين تعذر ليـنا عن الرقص كنت احب ان ابقى معها . فكانت تدفع بي لاراقص كاتيا أو غيرها قائلة :

— ارقص معها . انت تدري .. هذه الرقصة السريعة غير ملائمة لي .
كان يسرها اهتمام كاتيا وانشغالها بي ، وحرصها على راحتي . كانت كاتيا مضيقتنا فهي ترغب كثيرا أن استمتع بدعوتها هذه :
— اوصتني ليـنا الا تتركك لحظة . انها تكره أن تسأم . أنا اهتـك على صديقة مثلها . هذه امرأة نبيلة . وأي جمال !

لم تكن ليـنا وحدها لحظة واحدة . كانت في حديث شائق ، كما يلوح مع هذه أو هذا من اصدقاء كاتيا . وفي الحفل الزاهي المتألق لم يكن يهمها أن ترقب الا وجها واحدا : وجه الممثلة . كنت اراها تتفحصها ، محاذرة الا تراها ، كلما ابصرت بها ناظرة الي . ووجدت كاتيا تلتفت هي الاخرى ناحية الممثلة :
— لم تقل لي انك تعرفها .

— كنت ، مرة ، هنا في أمسية شعرية . ورقصت معها .
وسألت ليـنا ان تنصرف مبكرين . فأصرت ان تبقى حتى اخر الحفل .
كنت أريد أن اقنعها بزيارتي ، فلعلها تـلين .
— ها قد بدأ الحفل يحلو ، وانت تريد ان تغادر . فيم جئنا اذن ؟
ثم نادى كاتيا :

— كاتيا .. اترين ؟ يريد ان نخرج .
— كلا . لن نخرج . لنمض الى البوفيت .
— نعم ماتقترحين . فأنا ظمأى .
لم تشأ ليـنا أن تشرب غير قدح من المياه المعدنية . وكنا نتلذذ بتجرع الشمبانيا . فألححت عليها أن تشاركنا . قالت :

— صب لي قليلا هنا .

فأثرت كأسها .

— انظري كاتيا . هكذا هو دائما معي . دائما يفعل عكس ما أقول .

طيب . سأشرب جرعة واحدة . وانت ستشرب هذا ايضا .

قالت كاتيا :

— لينا .. أي ضرر ان تشربي معنا .

— لكنني لأريد .

قلت ضاحكا ، وأنا ابصر انقلاب لينا المفاجيء :

— اقسم لك يا كاتيا انها راغبة بكأس . لكنها تعاندني .

— أنا اعانده ! انظر .. لن ادع لك قطرة من كأسي .

وافرغت كأسها قبلنا . كانت كاتيا تضحك ضحكا ناعما :

— مع هذا جعلك تشربين .

لم تقل لينا كلمة ما . كانت تحديق في الفراغ ، وقد اتسعت عيناها

وتألقتا .. وحين رجعنا الى الصالة توقفت ، فجأة ، قائلة :

— كلا . علينا أن ننصرف . لقد نسينا شيئا مهما .

قالت كاتيا :

وأي شيء نسينا ؟

— رحلة التزلج غدا . هذا يتطلب منا النهوض مبكرا .

— وفيم تبكيرنا ؟ يمكننا أن نصل في أية ساعة .

— اتظنين ؟

قلت ، متعمدا أعاظتها ، متواطئا مع كاتيا :

— أما انا .. فأتلهف لان يغادر .

فألتفتت الي ، ورمقتني بنظرة ملتبهة :

- ومن قال انني حريصة على انصرافك معي ؟ تستطيع ان تظل هنا قدر ما تشاء • على العكس •• انا اود ان تبقى وتستمتع •
- قالت كاتيا معاتبة برقة :
- لينا •• انتظنين انه سيتأخر بعدك ؟
- وأي جدوى في خروجه معي ؟ استطيع التجول وحدي •
- كاتيا •• هي تدري اننا سنصرف معا • وقد سألتها ، قبل قليل ، ان نخرج •• لكنها اصرت على أن تبقى •
- واشارت كاتيا ان اصمت • وامسكت بذراعي لحظة • كانت تحدد ، متفكرة ، في الفراغ • فهمست كاتيا :
- انها تجبك •
- التفتت لينا متسائلة :
- فيم تتهامسان ؟
- قالت كاتيا ، باسمه لي :
- قلت انك تحبين •
- أنا ؟ انك لمخطئة •
- لكنك تحبين • سنمكث قليلا ، ثم نخرج معا •
- يمكنكما ان تبقىا •
- وأية مرة في بقائنا من غير لينا ؟
- قالت كاتيا هذا ملاطفة ، أخذه بذراعيها الى الصالة • وسألت لينا أن نرقص • فتأملتني متبسمة :
- عليك أن تسألها رقصة •
- أسأل من ؟
- انت تعرف من اعني •

— تلك المثلة ؟ لم تعد راغبة • فلقد اعتذرت عن آخرين •
— لن تعتذر منك • ليس من اللائق الا تطلبها •
قلت ممازحا :

لن ادعوها مادمت تريدن •
— أنا لا امزح • من اللائق ان تدعوها ، فهي تعرفك •
— اود ان ارقص معك انت •
— انت تتعمد اغاظتي •
— ايسرك ان اراقصها ؟

— يسرني ان تكون لطيفا مع الآخرين •
— طيب • سأدعوها •
واتجهت اليها :

— ارجو ان تسمح لي بالرقص معك •
فأجابت بلطف :
— يسرني هذا •

كنت اراقصها ، محاولا الا ارى نظرة عينها الندية ، نظرة الاسبى
والتساؤل الغامض البعيد • قالت :

— صديقتك جميلة جدا • هوذا الجمال الروسي !

ورأتنا كاتيا • فطاف في وجهها تكدر ما • غير انها سريعا ماعدت مريحة ،
منطلقة • كانت واقفة مع لينا • وكاتتا تنظران الي بارتياح ورقة • وكانت
لينا تتكلم • وبدأ لي انها تقص عليها قصتي مع المثلة •

طوال الطريق ، في المترو ، كاتتا تمزحان معي : لم تكن مصيبا في فراك
منها • هي فتاة كغيرها من الفتيات • كنت ستجدها مثل غيرها • وهي جميلة
ولطيفة على اية حال •

صباحا ، في الضاحية ، نسيتا امرها تماما . كانت لنا ، في انطلاقتها الرياضية ، متوردة ، متلكة مرحا . قلت :
— سأتمرن وحدي هذه المرة .

قالت كاتيا :

— سنأخذ جولة ونعود .. انتظرنا هنا .

واندفعنا معا . رأيتهما يتعدان سريعا مع الآخرين . فأحسست بالبهجة لهما . كانت السماء بيضاء واطئة . والثلوج وثيرة ناصعة . وكانت الغابة ساكنة ، مسحورة ، مثقلة بالثلوج عن قرب . فرحت اخطو بين اشجارها . ورايت أثارا لا اعرفها . أهى آثار ثعالب وأرانب ؟ كنت أتأمل الثلوج الباهرة ، وامتع طرفي بنقائها ، واكتساء الصنوبر والشرين بها . وكنت اسمع مرخ المتزلجين فلا أحس انني وحيد . واوغلت في الغابة تحت اشجارها العالية المجللة بالثلوج . وكنت افكر بكاتيا . وتذكرت انها لم تعد تخاطبني ، منذ البارحة ، بصيغة الجمع . ولم أشعر ، عندها ، بأي تغير في انتقالها المفاجيء هذا .. فكأنني زميل من زملاء المعهد او صديق قديم . مع انني كنت أحس بصعوبة ما في مخاطبتها : بانث .

وسمعتهما تهتفان باسمي :

— اين انت ؟

فأسرعت اليهما . كنت احبهما كثيرا . كانت لنا محقة ، أذن ، في دعوة كاتيا . ها انا اجد متعة عظيمة في صحبة هذه الفتاة الطيبة المرححة .
— لماذا عدتما سريعا ؟

قالت لنا :

— أكنت سعيدا في وحدتك عنا ؟

فأقترحت كاتيا :

— لينا .. انت لن تصبري طويلا عن التزلج . فأنتلقي انت . وسأبقى معه لادربه .

كانت لينا مولعة ، متيمة بالتزلج . بل هي تعشقه عشقا . فلم نشأ ابقاءها معنا . وألحنا أن تنطلق ماثشاء . فأسعدنا هذا منا . وشكرتنا بعينين ضاحكتين . وانحدرت متأنية أول الامر . ثم أخذت تتسارع باعتدال . ثم انطلقت باندفاع رائعة . وكنا نتابعها بانظارنا معجبين .
— يالها من مترلجة !

قالت كاتيا هذا ، دون ان تحول طرفها عنها .. حتى توارت بين الآخرين . اجل ! كانت لينا مشبوبة ، فائقة في جمالها الجسدي وانطلاقها بالرغم من ثقلها . وتركت أمري لكاتيا شأن تلميذ طيع مع معلمته . كنت احس بجسد كاتيا ملاس لي فأثار . وكان وجهها خاليا من ايما انفعال غير مودتها وحماسها في أن اتعلم . ولربما فطنت ، مرة ، لتأثري بلدوتها وارتجاج ناهديها علي . فلقد رأيتها تبتسم غير ناظرة الي . وكنت احاول تغطية احساسي هذه متكلفا . وكانت تدرك هذا بحسها الانثوي فتضحك . ووجدتني ، مرة ، متأملا وجهها بافتتان . فافترت شفتها المثلثتان عن ابتسامة .

ورأينا لينا آتية في اسراع خفيف متواتر . وتوقفت عندنا راضية متبسمة . وكانت انفاسها متسارعة ، وصدرها الرحب الممتليء يتنفس بقوة ، ووجهها اشتعال . كنت أرى جمالها واندفاع صدرها ، وامتلاء البدلة الرياضية المتموج بها .. فتأجج رغبة . كانت عيناها الضاحكتان صافيتين ، خاليتين من ايما تساؤل . فأحسست بندم ما . لكنني لم اكن متقصدا في ملاسة كاتيا . انما هو هوى عابر يحسه الفتى في انسحاق صدر فتاة متوثب على صدره . قالت لينا .

— جاء دورك .. كاتيا .

دارت كاتيا حولنا دورة . ثم اندفعت بعيدا بفتوتها القوية المرحة .

وأردت للينا أن تستريح • فأقترحت أن تجول في الغابة • كنت أريد أن
أقبلها • قالت •

— لا بأس • لكننا لن نذهب بعيدا • في السهل افضل •

أوقفتها وراء صنوبرة • واحطتها بذراعي •

— لا تقبلني هنا • ليس الان • ليس جميلا ان تلاحظ كاتيا •

— كاتيا بعيدة • • ولن تعود قريبا •

— مع هذا ستلاحظ •

— وأي ضير في أن تعرف •

— كلا • هذا غير جائز • من اللطف ان تتجنب أي شيء من هذا مادامت

معنا • أنت تفهمني • أيسرك ان ينفرد صديق بصاحبه وانت وحدك ؟ ايفيب
عن فطنتك شيء مثل هذا ؟

— قلت ان كاتيا بعيدة •

— لن يفوتها ان تلاحظ •

كان جسدها الممتليء اللاهث بين ذراعي • وكان صدرها يخفق حارا ،

منضغطا بصدري • فرأت أن تتمازح وتزلق مني • وعادت كاتيا لتقول :

— اسمعا • • أنا جائعة جدا • مارأيكما أن نأكل الان ؟

قالت لينا :

— لنحضر متاعنا اذن •

قلت مقترحا :

— لاشيء امتع ، بعد هذه الرياضة ، من الحساء الحار • لنحمل حقائبنا

وتتجه الى المحطة • سنصل المطعم بعد موقفين كما أظن •

قالت كاتيا :

— سأكل لقمة هنا قبل أن نذائق •

فأعترضت أقول :

— لن تجدي الغداء طيبا بعد هذه اللقمة .

— قد لانجد مكانا فنتأخر .

— سنجده فارغا تقريبا .. هذا مطعم لا يرتاده الا قلة من الناس . مع

انه مطعم جيد .. وروسي تماما .

قالت هذا لنا . فأذعنت كاتيا رانية الي برجاء .. علني أسمح لها بلقمة ،

فأيت . وكان فارغا كما تالت لنا . فأخترنا مائدة عند النافذة . كان المبنى

خشيبا ذا طابقين . وكانت المقاعد دكات خشبية لامتكأ لها . وكانت الانية

والاقداح خشبية ايضا . جيء لنا ، اولاً ، بالكفاس البارد . فامتعضت كاتياً

قليلا . وقالت :

— وأين هو الحساء ؟

فأجاب النادل بحكمة :

— سيأتي .. سيأتي ايها الفتاة ..

وشربت أنا من الكفاس الرائق البارد متلذذاً . وكنت جالسا قبلالتهاء

غير مستند بظهري لشيء ، مبقيا الحائط لهما . قالت لنا :

— سيحرمك هذا من الحساء

وكانت كاتيا تدمر :

— لكن أين هو الحساء ؟

جاء النادل ، متمهلا ، بزجاجة الفودكا . فقلت راجيا :

— الا تتكرم علينا بصحن حساء واحد .. ثم جئنا بالسلطة .

— لا يجوز ايها الشاب .. سأتي بالسلطة ثم الحساء .

وجعلتنا الفودكا منطلقين قليلا ، مرحين ، في هذا المطعم المنزل بين

الغابات . والثلوج متراكة عبر النافذة . وكنت أتأمل ، معجبا ، صديقتي

الفاتنتين • كان وجه لينا شاحبا ، مشتعل الوجنتين ، منخفض الخدين قليلا •
أما وجه كاتيا الابيض الناصع فكان متوردا ، منفعلا • وقد افتر ثغرها عن
ابتسامة رائعة • ورأيت زرقة عينيها تزداد سطوعا • وتراءى لي ان عينيها
تبتسمان لي ، وتقولان شيئا كنت احاول اخفاه عنها في ساحة التزلج • لم
يدم هذا الا لحظات •• فاسرعت تبدي اعجابها ببراعة لينا وتقننها في هذه
الرياضة الشتوية •

كنت انتظر السبت • ولم أر كاتيا الا مرة خلال الاسبوع • كان هذا
يوم الاربعاء • كنت خارجا صباحا • فوجدت ورقة بأسمي فوق منضدة
الرسائل قبالة المصعد ، في الطابق الارضي :
« انتظرنا مساء اليوم في الساعة ، عند المدخل •
سنزورك •• أنا وكاتيا •

لينا

قلت : ستكون أمسية طريفة • لكن كاتيا ، اتظني اعيش حياة شبه
زوجية مع لينا •• فلا بأس من أن نلتقي ، نحن الثلاثة ، في غرفتي نفسها ؟ ولينا ،
أية افكار غريبة تطرأ لها ؟ هي تدري انني متشوق لان افرد بها في غرفتي ،
فأي شأن لكاتيا هنا ؟ أية تجربة ان تزورني كاتيا وحدها ! سنشرب ونرقص
بالطبع • لكنها جميلة وشهية ! أأتركها دون ان اقبلها ؟ ستدفعنا قبلة واحدة
لان نواصل وسأحاول •• ماذا سأفعل معهما اليوم ؟

وجاءتا متأخرتين عشر دقائق • كانت المائدة مهية منذ حين ، مزدانة
بباقة ورد وبرتقال ، وبالخضر والاطعمة المعلبة ، وقنينتي خمرة وكونياك :
— سأكتفي بقدحي نبذ لاكثر •
قالت هذا لينا ، تبسمة لي ، متذكرة سهرتنا هنا •
— أما انا فأسأرب الكونياك •

قالت كاتيا هذا ضاحكة الوجه • قلت فجأة :
 — اتعلمين يا كاتيا انني خطبت لينا فرفضت ؟
 — مع انها تحبك ؟
 — فكيف تفسرين رفضها ؟
 أمسكت لينا بيد كاتيا :
 — لاتدعيه يجرك في حوار لا طائل من ورائه •
 ثم ابتدرتني قائلة :
 — اتريد ؟ سأخطب لك كاتيا •
 ورأينا في اقتراحها مزحة وملاطفة • قالت كاتيا ضاحكة :
 — حقا انك مازحة !
 فأخذت اضحك معها • قالت لينا :
 — انا اتحدث جادة وهما يضحكان •
 فأزددنا سرحا وضحكا •
 — طيب • اضحكا • لكن لاتنسيا ان تفكرا فيما قلت •
 أي مزاح غريب ! غير ان كاتيا لم تر الامر الا مداعبة ، فأطلقت في
 ضحك صاف رائق • قلت متكلنا المسكنة :
 — في لحظة واحدة ترفضني امرأتان ! يالي من خطيب خائب !
 فأندفعت لينا قائلة :
 — لكن كاتيا لم تقل كلمتها بعد •
 فأخذنا نضحك عاليا هذه المرة • قالت كاتيا :
 — أي سرور ان اكون معكما !
 كنت اراها جميلة • غير ان لينا جمالا آخر ملكها باهرا ، جمال القرن
 التاسع عشر ! ينبغي أن اتصرف معهما حاذرا • وفي العاشرة ارادت كاتيا

أن تذهب . فنهضتا معا . كانت الثلوج تدور حثيثا ، والحافلة تمر صافرة ،
وكانت لينا تقول مؤكدة :

— ستوصل كاتيا حتى بيتها .

قالت كاتيا :

— لماذا ؟ يمكنني أن اصل وحدي .

— كلا . سيوصلك .

كنت أحس بالخيبة والمرارة بعد المرح والبهجة . كاتيا معي ، في غرفتي ،
عطرهما هناك وبقايا كأسيهما . وهاهما منصرفتان . كل شيء سيذكرني بهما
الليلة . لو كنت ثملا ، في الأقل ، لجرؤت مع كاتيا بعد انفرادي بها ، ولرجعت
معهما . ولن تعرف لينا شيئا .

أي لمح تراءى لي في عيني لينا وهي تصافحني منذ لحظة ؟ أهـي البروق
النائية نفسها ؟ أي تقع في إن اوصل كاتيا واعدود وحيدا ؟ طوال الطريق
كانت تتكلم عن فلم قادم لها . . عن متاعبها في أن تنجح . احيانا كانت تمسك
بيدي . وفوق السلم المتحرك الهابط ، في المترو ، كنت أحس بظهرها ملاصقا
لي ، وكنا واقفين . هذا يحدث مع غريبة في مثل هذه الزحمة . وفي عربة المترو
كنت اتطلع اليها معجبا ، راغبا ، وأرى الرغبة نفسها في عينيها . أهـو الكونياك ؟
كان منزلها عبر الشارع ، غير بعيد عن المحطة . كان مبنى هائلا ، يمتد
نحو باحته ممر مقوس السقف . وعند المدخل قالت كاتيا :

— شكرا . لا اريد أن أؤخرك أكثر . كنت اريد ان اريك صورا لي من

الفلم ، معلقة في بهوتا . سترها في المرة القادمة حتما .

وفوجئت بورقة ثانية من لينا . وكنت عائدا من معهدي مساء السبت :

» عزيزي . .

اتصلت بي كاتيا اليوم صياحا وأنا في المصنع . ودعتنا لنقضي الأمسية

عندها • لكنني مرهقة وييتها بعيد • فرأيت ان تكون السهرة عندي • اعرف
أنني وعدت بزيارتك • لكن ما الفرق ؟ نتظرك في الثامنة •
لينا »

وكدت اعتصر الورقة • وتذكرت عيني لينا المحبتين ، ووجهها الشاحب
الجميل ، وانخسافة خديها ، وحنوها علي • سأقرأ حتى الثامنة • وانكبت
على بومارشيه •

وارتديت معطفي في الثامنة • أنا اعرف انها تسكن في الطابق الثاني ،
أي فوق الطابق الارضي • لكن في أية شقة • وبحث عن مفكرتي الصغيرة
في مجر المكتب • واخذت اتصفحها • هاهي العناوين والتلفونات • فتذكرت
وجوها لم أرها الا مرة او مرتين ، وجوها لم أحظ حتى بقبلة منها ، ولم
تعد غير اطياف في زحمة المترو أو الباص ، وجوها لم اعد اتصورها تماما ،
فما كان لي منها نير لقاء عابر في المترو وأنا شبه سكران • وتذكرت سوسان
وتفاحها وبرتقالها ، تضعه ، خفية مني ، فوق طاولتي ، ولقاء كل ليلة بعد
الثانية عشرة في غرفة التدخين • والتفاتتها لي بعد عام • أكانت هي ؟ وكنا
في اتجاهين مختلفين ، في زحمة اول الليل ، عبر الشارع • رأيتها صدفة في
فريقها لى الكوم • والتفت بعد حين ، وابصرت بها ملتفتة ناحيتي • وفي
ملامحها غضب ومرارة • ولم اتحرك • وألقيت بالفكرة وخرجت •
وفتحت لينا بابها لي لأول مرة :

— كاتيا هنا • تعال اعرفك بأمي •

كانت لينا مرهقة قليلا • وتقدمتني ، فرأيت ساقها الطويلتين
الممتلئتين • وتذكرت امتلاء فراشي بها ، تلك الليلة ، وقد حال بيننا نومها
خدره لاتعي من حالها شيئا • كانت أم لينا طيبة جدا ، لكن مزاجها حاد
عصبي • ورأيت كاتيا في بنطلون أزرق ضيق ، ملتفة الفخذين ، يلوح تكورها

المغري في مواضعه الملائمة • كانت هيفاء • غير انها في امتلاء الرياضية الفتية ،
فهي مثلة على أية حال • لكن لنا بامتلاء آخر • • امتلاء باذخ رهيب • قلت :
— أراك متعبة هذه المرة ؟

— كان علي ان اقوم بمهام زميلتي المجازة •
لم اسألها ، مرة ، عن تفاصيل عملها الهندسي • وما من عادتهن ان يفضن
بتفاصيل • وكانت كاتيا مرحة ، مشبوبة الخدين • وأرتني لنا زجاجة ملاي
بالخيار الملح :

— هذه لك • سأتي بها في المرة القادمة •
والتفت نحو كاتيا :
— وهناك واحدة لك • أمني بارعة في تمليح الخيار •

— أريد أن اذوقه الان •
— هاهو امامك • ألم تلاحظيه ؟
— فعلا • • لم اكن متنبهة •
واخذت تقضم الخيار المملحة في تلذذ :

— كيف أسرع في تهيئة هذه المائدة البديعة ؟ سأعجز عن مثلها قبي
السبت القادم •

ونظرت الي لنا كالمعتذرة :
— نسيت أن اخبرك • كاتيا تدعونا عندها مساء السبت • ورأيت أن
اشكرها ، قابلة دعوتها ، نيابة عنك •

ورميته بنظرة معاتبة ، فأطرت متهربة • ووجدتها تنهض بعد حين • •
فتبعته • كانت واقفة في المطبخ • فأمسكت بكتفيها ، واقفا وراءها • كان
امتلاؤها العصي ملء ذراعي :

— اسمعي لنا • • سأوصل كاتيا بالطبع وأعود اليك • أحب ان نجلس
معا ساعة ، ونشرب آخر كأس منفردين •

- ستجدني نائمة • ولا أدراك ستزعج امي بالجرس •
- لكنها ليله الاحد •
- قلت انني سأزورك • وكاتيا احبت ان نلتقي •
- ولماذا لم تعتذري •
- اوه •• انك توجعني •• انك تعصرني عصرا • ماذا جرى لك ؟
- لا تؤخرني • فعلا •• ماذا دهاك ؟
- انت تتعمدين التهرب مني ليلة الاحد •
- ألسنا معا ؟ ألم ابت عندك تلك الليلة ؟
- لم يتيي الا لانك مرهقة •
- الا تتركني اخيرا ؟
- قالت هذا ضاحكة ، وهي تنفلت مني •
- لم لم تعتذري ؟
- انك لقاس ! مع انك لطيف !
- اية قسوة أشد من قسوتك هذه ؟
- اوه •• قلت لك كل شيء وماتزال تصر •• لكننا تأخرنا حقا •
- شربنا اولاً في صحة أمها • ثم شربنا في صحة كاتيا ، ونجاحها في أن تغدو
- أعظم ممثلة في اوربا • ثم تركنا أمر الانتخاب لكاتيا ، وقد زهاها أن تبكر
- ماتشاء من أنخاب • وكانت لنا تدعوني خطيبها مازحة :
- فيم انت تفكر يا خطيبي ؟ فيم هذا الصمت كله ؟
- وجعلت من خطبتي لها نكتة • وكنت أضحك ، احياناً ، بالرغم مني •
- كيف لأضحك وهي تقول بأرق لهجة ، لكنها متهمكة وممتلئة حبا في الوقت
- نفسه :
- انظرا •• أي شقاء ان يكون خطيبي متجهماً كالسحابة •

أو تسأل عائدة من المطبخ :

— لكنكما لم تتركا خطيبي وحيدا لا أنيس له ؟

وتقول أمها مؤكدة :

— هذا يعني انها تحبك مادامت تناكدك هكذا .

كانت كاتيا تضحك مبتهجة ، وقد راقها المزاح . وكانت أم لينا معجبة بلطفها ومرحها ، وبهذا الضحك الصافي ، منبعثا من نفس رائقة شفيفة .
وسمعت لينا تقول :

— وانت .. هلا قلت شيئا ، بيت شعر في حبك لي مثلا ؟

— سأدفن قلبي في ثلوج موسكو واستريح .

— لكنها ستذوب .

— سيخضر قلبي ، أذن ، كل ربيع مع أشجار الارصفة .

— سأقبلك جزاء لهذا البيت الجميل وستقبلك كاتيا .

— بالطبع سأقبله .

كانت كاتيا منطلقة . ورأيتها مسرعة في شربها تقريبا . لكنها مسرورة .

كانت لينا تعرف أنني سأوصلها في التكسي فلا خشية عليها . ورأيت أخيرا أن

قتهض . كانت الساعة الثانية عشرة . وفي التكسي كانت كاتيا صامتة . ووجدت

رأسها الجميل ملقى على كتفي . كانت غافية . لكنها صحت قريبا من منزلها :

— عذرا .. لقد اتعبتك .

وتركنا التكسي وهي تترنج . فأخذت بذراعي .

— سأوصلك حتى بابك .. لا عود مطمئنا .

— شكرا .. أنا ثملة تقريبا .

ولم تزل ممسكة بذراعي حتى أوصلتها عند بابها .

— طيب . ها أنت عند بابك . الى اللقاء .

كانت تبحث في حقيبتها عن المفتاح • ووجدته • ومددت يدي لاودعها •
فأخذت يدي مصافحة ، وفي وجهها تحير • كان المصعد واقفا في مكانه فأتجهت
إليه •

وسمعتها تقول :

— انتظر •

فأقتربت منها • كان صوتها دافئا ، صادقا :
— لكن الجو قارس • وقد يطول انتظارك في الشارع • تعال معي • لن
ادعك تذهب في هذه الساعة المتأخرة • • تعال •
أغلقت الباب وراءنا في هدوء • وكانت الشقة صامتة •
— اعطني ، من فضلك ، معطفك لاعلقه •
— لا بأس • سأعلقه أنا •

— تعال من هنا • في هذه الغرفة تنام أمي واختي الصغيرة • وهذه هي
غرفتي • تفضل • اجلس حيث ترغب • سأعود بعد لحظة •

كانت بهوا وغرفة لكتايا • هنا التلفزيون والمكتبة والارائك الصغيرة •
وكان سريرها واطنا • ورأيت صورا كبيرة لكتايا معلقة على الحائط • هنا
فوق طاولة صغيرة حوض زجاجي مغلق ، في قاعه تلوح صخور بحرية جميلة ،
وفي مائه تتحرك اسماك صغيرة حمراء • وحيال واجهة الشرفة أصص يعليها
صبار أخضر • وعادت كاتيا بقنينة وكأسين • قلت :

— لكنك متعبة • لن تحتلمي مزيدا من الشراب •

— لن اشرب غير قدح صغير • انت ظريف حقا • انت تخاف علي أن
اسكر • كلا • أوكد لك • لن اسكر •

— لكنك متعبة • • ونعسى •

— كلا • لم اعد راغبة بالنوم • وغدا عطلة •

كنت اخشى أن تسكر ثانية • وكانت تصب الخمرة واقفة • وكنت اتطلع الى قامتها الجميلة في بنطلونها الضيق • وتركتني لتعود بأنيّة برتقال •

— لم تقل لي أليك في غرفتي •

— انها بديمة •

— انت لطيف • بالطبع هذا ليس سريرا تماما ، بالرغم من انه مريح • هو

سرير واريكة معا • كل صباح أجعل منه اريكة • فتعود الغرفة بهوا لاغرفة نوم •

فكرة واحدة تدور في ذهني : شكر • ورأيها ترفع الزجاجات لتسكب •

ولست يدها برفق :

— كاتيا • • لاضرورة لان نشرب بعد • نحن مرهقان • وانت نعسى •

— أوكد لك انني صاحبة تماما •

— مايموزنا هو الشاي أو القهوة • • لا الشراب •

— بالطبع ساعد لنا قهوة • • سأعدها حالا •

وانترعت كأسينا ضاحكة :

— أنت صديق يعتمد عليه • • انت لطيف • في صحتك • هذا آخر

قدح • أوكد لك • • آخر قدح • لكنك لانشرب • اوه • • كلا • • اشرب

ارجوك • • لاجلي أنا • وبعد ؟ قلت لاجلي • أقسم أنني سأغضب منك •

الست صديقة لك ؟ اشرب •

أي شيطان يدفعها لان تسكر ؟ كنت أشرب مرغما • ونهضت معتذرة •

هاهي ذاهبة لتهيء القهوة • وتذكرت فجأة زحاجة الخيار المملح • لم يكن

مع كاتيا غير حقيقتها • كان علي أن احمل الزجاجات ، فلم اتيه • هل نسيها

كاتيا في التوكسي أم في شقة لينا ؟ وعادت كاتيا بلا قهوة •

— كنت ادري أنك ستسبين •

— أنسيت شيئا
 — نسيت القهوة •
 — سأعدها حالا •
 — انت مرهقة يا كاتيا • • سأعدها انا •
 — كلا • سأجيء بالقهوة حالا •
 لكنها لم تتحرك خطوة باتجاه الباب • ظلت واقفة كالحائرة • ثم جلست
 لتكمل كأسها • وكانت تبسم في شروود • قلت :
 — لنذهب الى المطبخ •
 — طيب • سنعدها معا •
 كانت تترنح قليلا ، أخذة بذراعي •
 — أظن القهوة هنا • اجل هاهي • سأعدها انا • انت ضيفي •
 — اسمعي • انت متعبة جدا • سأعود بك لتستريحى •
 وعادت طائفة • أجلستها في مكانها • ورجعت لاهيء القهوة • اشعلت
 النار تحت الابريق • ووقفت منتظرا حتى اغتلى الماء • وجعلت القهوة قوية
 مرة • وملات فنجانين • كانت كاتيا غافية في مقعدها ، ووجهها منحرف فوق
 صدرها • وكان شعرها متهدلا •
 — هاهي ذي القهوة • • كاتيا •
 وكأنما اخاطب الجدار • امسكت بها بلطف وواقفتها • وقدمتها الى
 فراشها • ودانت تغنم بين يدي •
 — انت لطيف •
 أجلستها فوق سريرها • وقلت :
 — سأتركك تنامين •
 — شكرا • سأزعم ثيابي اولا •

لم تكن واعية تماما . غير انها تعرف كيف تلقي عنها حذاءها وبنطلونها وبلوزها الثقيل . ورأيتها تستلقي تحت اعطيتها . كان وجهها جادا وعيناها مغمضتين . قلت : سأشرب القهوة اولا . ثم جلست فوق حافة سريرها . كانت مستغرقة في رقاد كطفلة . فأنحنيت الثم وجهها .. وعدت الى مقعدي .

ماذا ترى . سأفعل ؟ سأطلع اليها من هنا ، وقوامها مستلق بالتفافه ، وتحت الغطاء البني يتنفس صدرها الشهوي ؟ سأنتظر حتى تصحو . ينبغي أن اتسلى بشيء سأدخل لفافة واقفل الباب بعدها .

كان قدحها فارغا . بالطبع لقد شربته . وكان قدحي ممثلا لمايزل .. لن اسكر ، بعد القهوة ، بكأس نبيذ . بالطبع لن اسكر . انت لطيف . وضحت . كانت ترددها في تدلل . فعلا انها فتاة ظريفة . انما هل سأقضي الليلة جالسا ؟ لا اظنها ستصحو بعد ساعة أو ساعتين . هاهي تتنفس عميقا ، متوردة . لا بأس بكأس ثانية . لن اسكر . هاهو وجهها يطل علي ضاحكا متدثرا بالفراء في هذه الصورة الكبيرة . أي جمال ! لكنها فائمة . كانت جالسة فوق فراشها ، وكنت أراها في قميصها وحده . حتى . بي نسيت أن اخرج حين جعلت تنزع بنطلونها . وهذه الخمرة اللعينة ؟ أي مذاق متع لها ! لكنني صاح تماما . والوقت يمر بطيئا ثقيلًا . سأبدد قلقي بكأس اخرى ، وسيمر الوقت سريعا . ورأيت كاتيا تتحرك قليلا . كانت نائمة على ظهرها في رقاد عميق . لكنني بعيد عن دفنها ولينها . ساتمدد قربها ، والثم وجهها في الاقل . وأي جدوى في أن اقبل فتاة غارقة في نومها . لن يصحها عناق أو قبلات . ولماذا أزعجها ؟ سأنتظر . سأكل برتقالة واشرب .

اخيرا رأيت ان اتمدد قربها وانتظر . لكنني نمت . بعد انتظار طويل نمت . حين صحوت لم تكن كاتيا معي . كانت الستائر مزاحة لنور الشمس الباهته . وكان الباب مغلقا . وكنت اسمع حركة خفيفة في الشقة . لن اغادر فراشها .. فقد تعود بعد حين . وغفوت ثانية .

كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة حين افقت • وسمعت اصواتا هادئة ، فأسرعت بارتداء ثيابي • وفتح الباب برفق • هذه كاتيا ، عيناها تسعان زرقة تحسبها سوادا • وضحكت حالما رأتني :

— طاب نهارك •

ثم قادتني الى المائدة • وعرفتني بأما :

— لقد حدثتها عنك • اجلس من فضلك • سأتي بافطارك • جعلته خفيفا لاتنا نعد غداء رائعا لنهار الاحد •

كانت اشبه بأما • غير ان امها بنظارة ، وكانت تسألني برقة الامهات ولطفهن • واقترحت كاتيا أن تتسكع في البولفار حتى تحين ساعة الغداء • وكانت تمسك بذراعي قائلة :

— لن تظل السماء صاحية طويلا • لكن قل لي ماذا دهاك البارحة فافرغت الزجاجاة كلها ؟ بالطبع ستغرق بعدها في رقاد عميق مثلي • حاولت ايقاظك حين افقت ، انما عبثا •

كانت الثلوج تجلج الشجر ، ملتمة ناصعة • واخذت تضحك :

— حين افقت من نومي وجدتك بين ذراعي • كنت احتضنك وأنا نائمة من غير أن اعني • وهزرتك لتفريق • انما عبثا • قلت : هو ذا رجل يستهين بقبلائي وعناقلي له • كنت اقبلك • وكنت مضحكة وانا اهزك بلا فائدة •

ومطقت تضحك ثانية •

— ليتني كنت واعيا •

— ماكان عليك ، اذن ، ان تفرغ الزجاجاة •

— لكنك ستأتين معي •

— كلا • ليس هناك • ستكون الشقة خالية بعد الغداء • ستذهب أُمي

واختي الى السينما كما اعتادتا كل احد •

حين غدت الشقة خالية الا منا .. لم تقل كاتيا شيئا ، ولم تتحرك ..
كانت جالسة ، غاضة بصرها . فأوقفتها برفق ، ورحت أقبالها . واتجهنا معا
صوب فراشها .

كان علي ان التقي بلينا في السابعة . فنهضت لارتدي ثيابي . وكنت أرى
كاتيا في ضوء مصباح الطاولة الازرق مشوشة الشعر . وكانت مشتعلة الوجه ،
جميلة جدا . فعدت لأقبالها .

— متى ستجيء ؟

— في أي وقت تحين .

— في الثلاثاء .. في السابعة .

— لكننا سنشاهد الملك لير في الثلاثاء . انسيت ؟

— اذن في الاربعاء .

— في السابعة ؟

— اجل . وجيء بكتبك معك لانك ستبيت هنا . ويمكننا أن نقرأ معا .

لاتنس لانني سأنتظرك .

— بالطبع سأجيء .

وكنت افكر بلينا . وفي السابعة كنت واقفا ، متدرا عند رصيف المنزل .

ورأيتها آتية من ناحية البريد . واخذت يدها مصافحا . كنت اتأمل وجهها

الشاحب ، بانخاسة خديها ، ووجنتيها الشفقتين ، فأدركت أنني احبها . ورأت

لينا نظرتي هذه فأبتسمت ، واطرقت قليلا . كانت في فرائها الباهر ، وعلى

شفتيها حمرة خفيفة ، موحية بسمرتيها الاخاذة . كنت اتأملها بعينين معجبتين .

وكانت ترى وتبتسم في غير غرور .

— اين تودين أن نذهب .

— سنتجول قليلا .. ثم ندخل السينما .

- ووجدتني مترددا • فسألتني مازحة :
- أم انك زاهد بالتجول معي ؟
- مع مليكتي ؟
- كيف وصلت كاتيا •
- نامت طوال الطريق تقريبا • وهذا مااعانها •
- نسيت ان اعطيها خيارها •
- سنأخذ الزجاجة معنا ليلة الاحد •
- وحيتنا امرأة عابرة • وكانت تبسم لينا راضية بارتياح •
- أرايت نظرة جارتي اليك ؟
- لعلها تظننا في شهرنا العسلي •
- انك لمحق • ان مااعجبها هو اختياري لك مع فارق العمر بيننا •
- بل مااعجبها هو اختياري لامرأة في مثل روعتك •
- ثم سألتني فجأة :
- الاحظت شيئا على كاتيا امس ؟
- فارتبكت قليلا :
- لم الاحظ شيئا • كانت مرحة كالمعتاد •
- ألم تر التماعا في نظرتها وشرودا ؟
- كانت منطلقة • فشربت أكثر مما تحتمل •
- لم يكن هذا بتأثير الخمرة • بل بتأثير رجل • انها تحب • رأيت هذا في وجهها حالما سمعنا رنين الجرس • كانت قلقة مختلجة العينين • وسرعان ماالتبتهت • فهي ذكية •
- أي جرس تعنين ؟
- كاتيا متيبة بك •

— حمدا لله انك تغارين .. وتتخيلين .

— انها ذائبة رغبة .

قلت مازحاً :

— ليتك تدوين مثلها . غير ان هذا غير صحيح .

— نحن نرى هذه الامور افضل رؤية منكم ، معشر الرجال .

— لينا .. انك تظلمينها .

— انت لم تفهمني .. أي شر في ان تهواك ؟

— هذه ظنون .

— أنا لا اظن .. انما اعرف .

— يسرني كثيرا ان تغاري .. قتليني .

— أنا لا اغار من كاتيا .. لانني ادري انك لاتحبها . ثم انني اودها .

لا اجد أي ضرر في ان تحبك . هذا شيء ينبثق انبثاقا من اعماق قوسنا .

لا ارادة لنا في ان نحب شخصا معينا . وستلقاني محبة لها مثلما كنت قبل حبها المفاجيء لك . لن يغير هذا شيئا من التقائنا بها . الا يبهجك أن نحبك

نحن الاثنين ؟

— أنا لا يهمني الا حبك انت .

— انت تعلم انني احبك .. وهذا خطأ لم استطع اصلاحا له .

— اغفري لي حين اقول انك تتكلمين كطبيبة .

— لكن هذا مديح لي .

— لنفترض ان كاتيا كما تتصورين .. فكيف ترتضين صحبتها لنا ؟

— قلت لك انك لاتحبها . فاذا احببتها سأتركك لها .

— حقا انا لا افهمك .

— ستفهمني .

- لكن كاتيا لا ينقصها المعجبون .
- مع هذا .. انظن ان احدا لم يسألني مودتي غيرك ؟ لكنني احببتك
- انت دون غيرك . هذا يحدث .
- وانطلقت ضاحكة :
- الم اجتذبتك بساقي في الحافلة ؟
- اسألك وحدهما اغرتاني ؟
- مابك ؟ أنا امزح .
- وتعرفين أي حب يشدني اليك .
- اقرأت اليوم جيدا ؟
- انت تدرين انني أقرأ .

وكنا ننتظر كاتيا ، عند المسرح ، مساء الثلاثاء . وجاءت متبرجة ، متألقة . ورأيت عينيها تختلجان مرة . وسريعا ما أمسكت بأمر نفسها . فكانت هي كاتيا المرحمة الملائمة ، كاتيا التزلج والرقص . ورأيت جمالها ساطعا في المسرح . مع هذا فلقد كنت أبتين في عينيها غيرة خفية من لينا . في لينا شيء لا نمتلكه هي : شيء يشع اشعاعا باللذة القصوى مع امرأة في مثل جمالها الجسدي الرهيب ! وكنت أتصرف معهما ، في كل شيء ، كما اعتادت أن ترياني . وحدثت لكاتيا رقتها مع لينا . وكنت أحس أنني أكذب . وهذا ما ازعجني .

لم تثر هذه المسرحية لفظا أكثر مما أثارت « عطيل » . ولقد رأى النقاد ، كما ا تذكر ، في اخراج « عطيل » تفسيرا غير شكسييري . كان لورنس اولافيه ، في تمثيله ، زنجيا بسيطا لا أكثر . كان عطيل ، هنا ، مفرغا من عظمتة الشكسيرية .

و كنت عند كاتيا مساء الاربعاء . وسألني :

- كيف اعتذرت لينا عن جولة الليلة ؟
- قلت انني مدعو عند اصدقاء في الجامعة .. وسأأخر .
- وسألتها ونحن نقرأ :
- الا ترين ان تعتذري عن دعوة ليلة الاحد ؟
- ولماذا اعتذر ؟
- سأشعر بأحراج .
- لكنك لم تكن محرجا في المسرح .. أي ضير في ان تزورني وتلتقي بي ؟ السنا صديقين ؟ لاشغل ذهنك بأمر اعتيادي كهذا .
- اترينه اعتياديا ؟
- بالطبع .
- فاذا عرفت لينا ؟
- عندئذ سنعتذر لها .
- لن تقبل منا عذرا .
- اوه .. دعني اقرأ من فضلك .
- لكن لينا جادة .
- وبعد ؟ هذا أمر يخصنا نحن الاثنين .
- ولينا ؟
- لكن .. مابك ؟ مادمننا نستطيع ان نلتقي في غرفتي .. فلماذا لا نلتقي ؟
- واضافت بعد تفكير :
- واحب ان اقول لك شيئا .. مادمت معي فلا اريد ان تفكر الا بي .
- حين كنت عارية بين ذراعيك ، وانت تقبل جسدي كله ، أحسست لأول مرة انني أحب وانك اول رجل يحبني .. لكنني اشغلك عن قراءتك . سأتي لنا بقهوة .

بعد ساعة قلت :

— الا ترين اتنا نمثل ؟

— نمثل ؟ أي دور ترى اتنا نمثل ؟

— في أن نقرأ •

ضحكت كاتيا :

— نحن مرغمان • لابد من ان تنتهي من هذه القراءة اللعينة • اتجدني

مغرية هكذا فيصعب عليك ان تقرأ ؟

— معك انت ؟ بالطبع • أم تظنين ان هذا الكتاب في تاريخ أوروبا الاحدث

أكثر فتنه واغراء منك ؟

فضحكت ضحكة صافية • وعادت مرحة ، رائعة المزاج :

— بعد العاشرة سنشرب كأسا ونلهو •

— معي في حقيتي زجاجة •

— لكنني احضرت قنينة قبل ان تجيء • أي صنف عندك ؟

— بلغاري ابيض •

— أنا جئت بنوع افضل •• نبيذ مولداڤيا الاحمر الحلو قليلا •

— لا ضرر من كأس مع القراءة •

— هذه فكرة ! سأحضر خمرتي فهي امتع •

— وهذه ؟

وأخرجت قنيتي • قالت كاتيا :

— سأحتفظ بها بعيدا عن أيدينا •• في غرفة أُمِّي •• كيلا نفرى بها بعدئذ

فنتعب • هاتها من فضلك •

وخرجنا صباحا معا • وكنت مضطرب النفس مساء السبت • سألتقي بيما

معا • شد ماكره الكذب والخداع ! وهأنا اكذب واخدع امرأة طاهرة

الثؤاد • ما كنت مغرما بكاتيا • مع انني اودها • وهي شابة ساحرة بطبعها
المرح • كنت أحب لنا • وهي اشعال جلدي الابدي • كنت انتظرها في
السابعة ، في مدخل المترو قبالة بهو الاعمدة • فلقد رأيت أن اقضي زمنا في
مكتبة الاداب الاجنبية ، مواصلا قراءتي في « حديث الاربعاء » • ومرت
الدقائق دون ان تصل • مرت خمس عشرة دقيقة فأحست بالقلق • ربما هي
الحافلة متوقفة في زحمة مبالغته • ومرت عشر دقائق أخرى • ورحت اشغل نفسي
بخارطة المترو الكبيرة المعلقة •

— مرجبا •

والتفت اليها معتكز النظرة • وكانت تبسم ابتسامتها الساخرة المحبة ،
هي تتأمل عيني المتجهتين • فأقبلت عليها مبتلئًا جبا وفرحا • ونسيت تأخرها
نصف ساعة عني • قلت مقاطعا اعتذارها لي :

— لينا •• لن نزور كاتيا • سأعتذر لها في التلفون •

— أجننت ؟ هالك عني زجاجة الخيار هذه • ألم تلاحظها ؟

— لندخل أي مطعم • أريد أن اسهر معك وحدك •

— انهم ينتظروننا •• لنمض •

— سأقول لها انني متوقعك •

— لا يصح ان تفعل هذا • لنذهب • واتبه لزجاجة الخيار •

كان المترو مزدحما هذه الساعة • وكان الناس مسرعين في اتجاهات
متباينة • كانت المصاطب ، عن جانبي المحطة ، مלאى بالمتنظرين • والمترو يمر
خافقا صافرا • والهواء يهب مكيفا ، دافئا على الوجوه • وكنت أحمل
الزجاجة في كيس قماشى صغير بيدي • ولم نق مكانا فارغا في عربة المترو •
فظللنا واقفين بين غيرنا من الواقفين • وكنا نمسك بالعارضة • وعند كل
محطة تندفع موجة بشرية خارجة وتدخل أخرى • فرأينا ان تكفي على

الباب المقفل الآخر • ثم شققنا طريقا لنا لنخرج • ينبغي ان نغير الخط • كانت
لينا تتقدمني ، والزحمة تدفعني نحوها دفعا • وكنت أحس بامتلائها الدافئ ،
الباذخ • وارتقين سلما مرميا لنوغل في ممر طويل • ثم هبطنا سلما متحركا
طويلا آخر • فدخلنا محطة ثانية • وركبنا مترو آخر • اتذكر أن احدهم كان
مسرنا ليدخل ، وكان حاملا طبقة بيض ، فافلتت من يده وتكرست • كان
الضحك عاما • فأخذ يضحك مع الضاحكين • وخرجنا من المحطة الى الليل
البارد ، وعبرنا الشارع • قالت لينا :

— هوذا البيت • وهاهو الممر اليه •

فتحت كاتيا الباب طائفة فرحا :

— كدت أياس .. اين كنتما ؟

— لاذب له في تأخرنا • كنت انتظر مخابرة من أوديسا فتأخرت •

وناولت كاتيا زجاجة الخيار •

— شكرا لكما .. شكرا لينا •

لم أراية اختلاجة في وجه كاتيا هذه المرة • كانت في بنطلون احمر ضيق
وبلوز صوفي ابيض • وكانت لينا في ثوب أزرق داكن ، لم اره عليها من
قبل • وخیل لي الا رداء يدي مفاتنها الخطيرة خيرا من ثوبها هذا • وحول
المائدة كانت كاتيا في مواجهتي • ورأيتها تتأمل لينا ، مرة ، متأججة العينين •
وكانت لينا منشغلة مع أمها • وكانت لينا هادئة تتحاشى عيني التافقتين •
فرأيت وجه كاتيا يتكدر • كانت ترى عيني المشتعلتين رغبة بلينا • فأسرت
قائلا :

— أي فرح في وجه كاتيا ! انظري لينا • انها مسرورة بك •

— أقسم انك ستكتب قصيدة عن كاتيا • ولعلك كتبتها منذ كنا في

الضاحية ولم تخبرني • أي شاعر لايهزه مثل هذا الجمال ؟

والتفتت فاحية كاتيا :

— اتعلمين ؟ انه معجب بك • بالطبع ان له عيني شاعر •

قالت أم كاتيا فجأة ، متأمة لينا باهتمام ، ملتفتة الي :

— اني اهنتك • ان لك صديقة ، واية صديقة !

وكانت تبسم ابتسامة من يقول : هو هذا ، اذن ، مايعجبك في المرأة ،
هذا الجمال الجسدي ! وأي جمال ! ولم تكن علاقتك بكاتيا الا رغبة عابرة •

— لينا •• انت لاثيرين •

قالت كاتيا هذا ملاحظة •

— أنا أشرب •• لكنني لأأحب ان اكثر • علي ان انهض مبكرة •

— اوه لينا •• غذا الاحد •

— تنتظري مشاغل منزلية عديدة •

— مع هذا •

أي خاطر يدور في ذهنها ؟ قلت : هي وشأنها • أما انا فساأشرب •
ودفعتني الخرة لان العب لعبة مع لينا • فأخذت اغازل كاتيا غزلا خفيا أولا
الامر • ثم أبنت قليلا • فاتسعت عينا كاتيا ، وافهمتني بنظرتها ان اكف • غير
انني لم اطعها • بل ازددت مكاشفة • فأحتملت الامر ساكنه • واخذت
تدخن • وفجأة راحت تضحك • وكانت لينا وأم كاتيا في انشغال عنا • لكنهما
فطنتا اخيرا • وضحكتا • فرمتي كاتيا بنظرة محرقة • ورأتها لينا فأسرعت
تحدث عن كاتيا ودورها في فلمها • واصغت كاتيا اليها منصرفة عن الشرب •
وبدأت الامر ركبتها بركبتي فأزاحتها عني • فأقربت بالحاح ، أخذت ركبتها
بين ركبتي • فتركتها لي حين • ثم غطت وجهها بيديها ، وقد اشتعل حمرة •
وضحكت عاليا ، منهزمة الى غرفتها • وكنا نضحك معها ضحكا صافيا •
وعادت بعد قليل ، ولم يزل وجهها محمرا :

- لينا .. اعذريني من فضلك •
- ولماذا ؟ الانك تبعين السرور في نفسي ؟
- قالت أمها مازحة ، متواضعة مع لينا :
- كاتيا عاشقة •
- فأضافت لينا :
- سأخطبها لخطيبي •
- فأشار هذا ضحكا عاليا .. زاده اندفاع كاتيا خارجة مرة أخرى •
- فصاحت بها معا مبتهجتين :
- تعالي .. تعالي • نحن نمزح •
- وعادت كاتيا قائلة :
- بالطبع اتما تمزحان •
- كانت نظرتها غريبة الي • ولم تحاول اخفاءها • أهى نظرة شك ؟ كنت
شرب فلم أعر الامر أهمية • وكنت افكر بلينا : لم تكن لتشرب الا رشقات
متباعدة • حين أن لنا ان تغادر أصرت كاتيا أن توصلنا حتى الشارع • •
- فأينا • فودعتنا عند المصعد • وكانت شبه سكرى ، ناسية مزاحنا منذ ساعة •
- كان الثلج يتساقط • وكانت لافتة المترو تتوهج حمراء عبر الشارع •
- كنت اريد أن اوقف تكسيا • فأصرت لينا :
- مهما تقل فلن نركب التكسي • دعنا نعد في المترو • أنا أحب المترو
- ليلة الاحد • سرى اوضاعا بشرية متنوعة •
- لكننا ستأخر عن جولة الليل •
- فات أوان النزهة • لن نتجول بعد الحادية عشرة على أية حال •
- فأتجهنا صوب المحطة • وقبالة • الإعمدة أصرت أن تنتظر الحافلة •
- ولم تقل كلمة واحدة عن كاتيا طوال الطريق • كانت صامتة صمتا غريبا لاعهد

لي به معها • وكانت تتأمل الامزجة البشرية باهتمام ، في هذه الساعة من الليل ، وما اشد تباينها حقا ! وكان يقلقها شيء في نظرتي اليها • فهي تعرف جيدا فيم افكر • والليلة هي ليلة الاحد • أي عذر ستبكر ؟ واية مشاغل منزلية في انتظارها غدا ، تسعها من أن تبیت الليلة معي ؟ وهي حرة ، غدا ، طوال النهار ؟

ونزلنا من الحافلة اخيرا • فأمسكت بذراعي صامته • واجتزنا الشارع • فأرادت أن تتجه ناحية بيتها • لكنني توقفت • فتأملتني قلقة :

— مابك ؟ الا تريد أن توصلي حتى بيتي ؟

— اسمعي لينا •• انت لم تشربي هناك الا جرعات • تعالي معي • سنشرب كأسا وتحدث • أحب أن اسهر معك الليلة •

— اتظن انني سأتركك تشرب بعد تلك الاقداح كلها ؟

— طيب • لن نشرب • سنجلس وتحدث لاغير •

— في هذا الوقت المتأخر ؟ لست جادا بالطبع •

— تعرفين انني جاد •

كنا واقفين • فرحت افكر قليلا :

— طيب • سأوصلك •

فتأملتني متشككة :

— اترى ؟ انت لا ترد لي طلبا • انت أطيب من ان ترد لي طلبا •

لن ترضخ لتوسلي بالطبع • وستهرب من قبلاطي في الشارع • فأنحدرنا معا في الزقاق • وكانت تحدجني قلقة • وفي عينيها تساؤل وتفكير • وتوقفت عند بيتها منتزعة قفازها لتصافحني :

— شكرا على أنك اوصلتني • أراك غدا في السابعة •

واتجهت لتفتح الباب • والتفتت باسمة ملوحة بيدها • وكنت واقفا

مزمعا أمري على شيء • لم اقف الا قليلا • ودفعت الباب الثقيل وتبعتها •
كانت ترتقي الدرجات الى الطابق الاول ، طابقها • فالتفت الي :

— انسيء ، نَ تقول شيئا ؟

قالت هذا ، متكلفة المرح تكلفا •

— كلا • لم انس شيئا • سأوصلك حتى بابك •

وتوقفت متفكرة في الفسحة • كان قصدي واضحا •

— فيم انت واقفة • سأوصلك حتى بابك واعود •

— أي ابتكار بديع ! لكنني وصلت •

— مع هذا •• اريد ان اطمن •

واخذت تصعد متباطئة • ووقفنا عند شقتها صامتين • لم أرد ان اقول

أي شيء • وأي جدوى في ان اتكلم • وكنت اتطلع ، متعمدا ، الى الجدار
المواجه •

وسمعتها تقول مؤكدة :

— انا اعرف انك لست ثملا •

وظللت صامتا •

— الا تتكلم ؟

أخرجت علبتي لادخن • وكنت هادئا تماما •

— الا ترى انني مرهقة جدا ، واريد ان انام • ان مشاغل كبيرة تنتظرني

غدا وعلي ان اصحو مبكرة ••

اشعلت لفافتي ، ورحت ادخن •

— الا ترد علي ، اخيرا ؟ ماذا جرى لك ؟

تأبعتدت عن بابها متكئا على الحائط :

— ليئا •• انت عند شقتك • افتحها وادخلي •

- وانت ؟ بالطبع ستذهب .
- اعلمي انني سأظل واقفا هنا حتى الفجر . لن اتحرك من هنا .
- هل جنت ؟ فيم وقوفك ؟
- قلت ادخلي انت . سأظل واقفا .
- أجاد انت ؟
- انت ترين انني جاد . ادخلي انت . ماذا تنتظرين ؟
- كيف ادخل واتركك واقفا ؟ انت تمزح . الى اللقاء .
- وفتحت الباب واغلقتة وراءها . كنت استطيع ان ادخل معها . لكنني سأزعجها عندئذ . ستكون حركتي غليظة ، جافية . أنا اعرف طبعها . يكفي ان اقبلها واضمها في غرفتها فتكون لي . لن اسلك معها هي غير طريق الرقة والحنان .. فما هي بالمتصنة حتى أخذها عنوة . وأنا ادري انها لن تغمض جفنا حتى تتأكد من انني ذهبت . وهي الان عند النافذة تتطلع لتعرف .
- أخرجت لفافة ثانية . ورحت . ادخن . كنت اتصور وجهها الشاحب ونظرتها الزرقاء القلقة الى الزقاق . لكنها لن تفتح بابها قريبا . فهي تعرف أنني لن أبرد هنا .. فالدفءة تحت نافذة الفسحة . سأظل منتظرا . بعد خمس دقائق سمعت بابها يفتح . فلم التفت أو اتحرك .
- ماذا تنتظر ؟ ادخل .
- فلم أجب بكلمة .
- اوه .. اقول لك ادخل .
- كانت عيناها ضاحكتين . فدخلت . وكان البهو مضاء . قالت :
- ساعد لنا سايا .
- لترك الشاي الان . تعالي .. اجلسي .
- طيب . قلت انك ستحدث .

- لم كنت تقتصدين في شرابك ؟
- كنت تشرب في غير اعتدال • ينبغي على احدنا ان يظل صاحيا •
- أليدك شيء نشربه ؟
- فضحكت ضحكة خافتة :
- لم اكن انتظر ضيفا بعد الثانية عشرة • لكنك شربت كفايتك •
- لم يبق شيء في رأسي •
- هناك بقية من تلك الليلة • ولن تشربها كلها • • فتعجب •
- سنشربها معا •
- بالطبع سأشرب معك • لن اتركك تشرب وحدك •
- وجاءت بزجاجة نبيذ ابيض ، شبه ممتلئة •
- سأتي بشيء تأكله • انت لم تأكل جيدا هناك •
- لكنني اكلت •
- مع ذلك سأتي بشيء •
- شكرا • لست جائعا • اجلسي •
- لا بد من أن تأكل •
- وعادت بصحن مثقل باطعمة متنوعة • • هي السلطة الروسية الشهيرة
- باللحم والبيض والخضر • وجعلت اصب الخمرة بمتعلا •
- كنت احبب أنك ستياأس وتذهب •
- وكنت تتطلعين من النافذة •
- كانت تتأملني باسمة :
- اندري لو انك ظللت واقفا في الزقاق لما تركتك تتأخر هكذا • ماكنت
- لادعك تبرد بالطبع •
- كنت مخطئا قليلا اذن ؟

- الم تفكر بهذا ؟
- وانت ؟ اكنـت تتخيلين انـني سأربط عند بابك ؟
- هذا شيء لم يخطر لي • انما خطر لي شيء آخر •
- وهو ؟
- انك ستصر على ذهابي معك • وكنت سأعـتذر بالطبع • لكنني سأدخل شقتي حزينة جدا لانصرافك غاضبا كـثيـا •
- فلماذا هذا ؟
- هذا لانـني احبك •• ولا أريد أن تـلـني بعد لـيال •
- أمل منك انت ؟
- كانت ترتشف خمرها متفكرة :
- كنت قلقة كيف سأصرف معك • لكنك نسيت خوفي عليك ان تبرد في هذه الساعة المتأخرة • لو ظلمت واقفا في الزقاق لهرعت إليك • ربما لاقتـمك أن تذهب • أما ان اتركك في الصقيع فلا • كنت سأمضي معك أو ادخلـك معي • اما أن تبقى منتظرا في البرد •• كلا • لكن كيف عرفت انـني سأفتح
- لن تتركيني واقفا على أية حال •
- وسألـتني فجأة :
- قل لي •• اينـك وبين كاتـيا شيء ؟
- كلا •
- اكنـت تريد اغاظـتي •• فأخذت تتقرب منها لاهيا ؟
- ربما •
- انا اعرف انك لا تحبها • لكنها تريدك • هذا أمر واضح •
- وأنا اريدك انت !
- اترى ؟ لـابغية لك في الـاجسـدي •

— مهما أقل انني احبك فلن تقتني • طيب • لست مرغبة على البقاء
معي حتى الفجر • مع انني اود هذا كثيرا • يمكنك ان تذهبي الى غرفتك في
أية لحظة •

— واتركك وحيدا مع هذه القينة اللعينة ؟

— لن اثرب بعد •

— وهذا ابتكار آخر !

— ليكن • لكنني ارى الناس يداعب عيني الفتاتين • أن لك ان
تنامي • لا تقلقي علي • اذهبي الى غرفتك ، واقلمي بابك بالمفتاح • لا تنسي
ان تقليه • أما انا فأحب ان اسهر •

واشعلت لفاية :

— اسمي نصيحتي واذهبي • وانت تعلمين أنني لن ادق بابك أو
أناديك • لو كنت وحدك لفعلت • لكن امك نائمة ، ولا أريد ازعاجها بشيء •

— حيلة أخرى !

— اتسين نصيحتي حيلة ؟

— الاتكف عن تحايلك هذا ؟ لماذا تريد اغاظتي ؟

— لن أرد عليك بكلمة • قلولي ما يحلو لك أن تقولولي • لكنني أذكرك
أن من الخير لك أن تنامي وتقلبي عليك •

كنت أنامل وجهها معجبا بانفعالاته المتقلبة • وكنت أبتسم لها ، راغبا
أن اقبلها • لكنني لم أحاول ان امس حتى يدها • وهي ترى انني اتعمد هذا
معها تعمدا • بالرغم من تحرقي اليها •

— وبعد ؟ أنا نعسى واريد ان انام • سأترك لك غرفتي •

— وأين ستنامين ؟

— في غرفة أمي • هناك سرير سفري •

- قلت لك اذهبي ونامي •
- وأنت ؟
- سأبقى هرا حتى الفجر •
- واية متعة في ان تسهر وحدك ؟
- سيظل طيفك ماثلا امامي •
- وعنيد ايضا ! طيب • سأكون عنيدة مثلك • وسأسهر حتى الفجر •
- لن تستطيعي •
- سترى • اسكب لي خمرة من فضلك •
- كنا نشرب صامتين • ونهضت اتصفح مجلة فوق التلفزيون •
- ماذا دهاك ؟ اتقرأ وانا اشرب معك •
- وعدت لاقول :
- ستزيدك الخمرة ناعسا •
- أنا نعسى بدونها •
- قلت انك ستسهرين •
- فأخذت تضحك بالرغم منها :
- نسيت انني قلت هذا • انت انسيتني •
- ورأيت من العبث ان اعاندها • قلت •
- طيب • سأنام في غرفتك • سأشم عطرك في اوسادك في الاقل •
- وسأنعم بدفء فرائشك الوثير • تصبحين على خير •
- تركته متحيرة ، واقفة في البهو • ودخلت غرفتها • ألقيت عني ثيابي ،
- والتفتت باعطيتها • وسمعت نقرة خفيفة • وفتح الباب • ورأيتها تدخل في
- ضوء الغرفة البحري الحالم • واقتربت مني فلم اتحرك •
- كن لطيفا واستدر • اريد ان اغير ثيابي •

فأهملتها . كنت ادري انها ترقبني ، فلم التفت . . بالرغم من اني كنت متشوقا لان اتفرج . واحسست ، بعدئذ ، بشعرها العبق متهدلا فوق وجهي . فاستدرت . كانت تنحني علي لتقبلي . فلثمت جبينها . كانت في ثوب حريري سماوي طويل ، عارية الذراعين ، منكشفة الصدر قليلا . وخرجت لترد بابها من ورائها في هدوء تام . غير انها رجعت ثانية لتقول :
— ارجو المذرة . نسيت ان اخذ غطاء لي .

واخرجت من الخزانة بطائيتين ملتفتين . وانصرفت متأودة . وسعت صوت أمها . كانت تصيح متذمرة :

— فيم هذا التدلل كله ؟ انك تزعجيني . اذهبي من هنا .

وفتح بابي قليلا . كانت امها تهتف بي :

— اقل الباب في وجهها . لاتدعها تدخل .

وتطلعت فاتحا بابها قليلا ، فرأيت لينا حائرة باغطينها فأخذت أضحك .

واقفلت كما أمرت . وعدت اتمدد في فراشها . لاملجأ لها غير أن تتوسل بي .

ان تجد في البهو غير الكراسي . فهل ستنام فوق كرسي ؟ وكنت اضحك

متكتما . ومر وقت . وسمعت نقرا خفيفا . فلم اتحرك . ومر وقت آخر .

وسمعت نقرا آخر ، مثابرا خافتا . فنهضت . قلت هامسا :

— من الطارق ؟

— لاتكن عنيذا . افتح الباب .

— ألم تجدي متسعا في البهو ؟

فردت علي بهمس يشتعل غضبا :

— قلت افتح الباب . افتحه اخيرا .

— اصبري قليلا . دعيني ارتد بنطلوني في الاقل .

وارتديت بنطلوني وفتحت . وتركتها تمر . واقفلت الباب في هدوء .

كانت هيئتها منقلبة تماما • طارت فلسفتها وخططها • ورمت اغطيئتها بغضب
واقنعت حافة السرير • فأتجهت الى الناحية الثانية • ونزعت بنطلوني وأنا
في فراشها • كان شعرها الاشقر الكثيف متهدلا • قلت :

- خير لك أن تدخلني الدير •
- فأسرعت ترد بالتفاته حردة :
- قل هذا لكاتيا • ماأنا بأوفيليا •
- كنت اضحك بالرغم مني •
- ستثور أمني ثانية • لاتضحك •

كانت تتأجج غضبا • فلم أقل شيئا • ولم اقم بأية حركة • كنت هادئا ،
مطمئنا • وسمعتها تقول بعد تفكير طويل ، مغيرة نبرتها العصبى :

- بالطبع ستدعني انام في هدوء •
- وهل قلت أنا شيئا آخر •
- والتقطت اغطيئتها لتفتحها •
- ماذا تفعلين ؟
- كما ترى •
- فيم حاجتك لاغطية اخرى ؟
- سألتف بها لاناام •
- لن يتسع السرير لهذه الاغطية كلها •
- سيتسع لو سمحت فأبتعلت قليلا •
- وأين ابتعد ؟ اتريدين ان اسقط على الارض ؟
- لكنه يتسع لنا لو تنصفي ، وتبتعد قليلا •
- قلت لك بأسقط • اعيدي اغطيئك الى مكانها • انت ترين جيدا ان
السرير سيضيق بهذه الاغطية كلها • ماكان علي ان افتح لك •

— لكننا ستدبر الامر •

— لأفائدة من النقاش معك • ابعدي اغطيتك • أريد ان انام •

فأعادت الاغطية الى الخزانة • وجلست على حافة السرير • وتركها
لشأنها • تركتها وأنا اكاد أضحك • فألتفت الي بابتسامة منهزمة :

— انت عاقل •• لن تزعجني بشيء •

وتسللت تحت الاغطية في حذر • وتمددت متعمدة ألا تلامسني • كنا
تحت غطاء واحد • وكانت حارة وجميلة جدا • وهي تعلم انها الليلة لي • منذ
ازعجت امها وطردها وهي تعلم انها لي • فأقربت منها • ورحت الامس وجهها
بشفتي • كنت ألامسها واقبلها في هدوء وتعبد • فألقت عنها ثوبها بعيدا • أية
لدونة فائقة لانتهاؤها لها • تلك الليلة كنت معها في أنها لذة على الارض •

صحوت في العاشرة • ولم تكن لينا معي • كان دفتها لما يزل في
الفراش • وكنت اشم شذاها فيه • وكنت افكر بها • أية نعومة ! وغفوت •
وحين استيقظت كانت لينا تأمل نفسها في المرأة • فدعوتها الي • كانت في
ثوبها السماوي • وكان ذراعها الممتلئان الجميلان عاريين • وجاءت لتجلس
على حافة السرير • فأمسكت بذراعها وقربتني • كانت تعرف ماذا ابغي •
فأبتسمت لي • ورفعت الغطاء لتتمدد بامتلائها الرائع • واخذت تتجرد • كان
الفراش ممتلئا ، مترعا بفيضها الجسدي اللؤلؤي الناعم الدافئ • وسبحت
بين ذراعها ساعة • ثم قلت :

— لينا •• لا بد من أن اتزوجك •

— أنا زوجتك •

— أريد ان أقترن بك •

— لكنني زوجتك •• ارتد ثيابك وتعال لتفطر •

— سأتبعك •

لكنني نمت • نمت نوما هادئا عيقا • حين صحوت ثانية • رأيت لينا على حافة السرير ، في • بها المنزلي الأحمر الداكن •

— اتدري ماذا لاحظت عليك ؟

— ماذا ؟

— بعد • • هذا • • تبدو أصغر من عمرك ، تبدو صبيبا تماما • كنت

أقبلك وأنت نائم • لكنني نيت أن اخبرك • كاتيا تلفت لي •

— كاتيا أيضا •

— ستنتظرنا في الساعة عند مترو ماركس •

— كان عليك ان تعتذري •

— كلا • ستكون لطيفا معها •

جاءت كاتيا متأخرة قليلا • كانت متبرجة كما رأيناها لأول مرة في

المقهى • ولم تكن مرحلة هذه المرة • قلت :

— أين ترغبان ان نمضي •

قالت كاتيا :

— لافرق عندي •

فأقترحت لينا :

— لنمض الى المقهى • انما انتظرا قليلا • سأتلفن •

فتحت الكشك ، واغلقتة بعدها • واعطتنا ظهرها متعمدة كما لاح لي •

فأسرعت كاتيا تهمس لي :

— لدي تمرين غدا • وسأأخر • تعال في العاشرة •

قلت متسائلا :

— صباحا ؟

فاشتعلت عيناها بنظرة مستنكرة • ولم تقل شيئا • واشاحت بوجهها

عني متكلفة الكبرياء • قلت موضحا :

— قلت انك ستتأخرين • فحسبت انك تريدان ان اراك صباحا •
اراحها تفسيري قليلا ، فلان وجهها :
— كنت اعني العاشرة مساء •
— سأجيء •

كان لابد من ان اقول هذا •• تجنبنا لاي تبدل في نظرها الي • وكنت اعلم
انني ساعذر في التلفون • وعبرنا النفق • كنا نقصد مقهى « موسكو » أو
« الفضاء » • وكان الصف عندهما طويلا • فأقترحت ان نجرب في الرصيف
الاخر من شارع غوركي • فدخلنا مقهى لم اعد اذكر تسميته • ولعل لإفته
لم تحصل غير مفردة : مقهى •

جاءت النادلة بكونياك وشكولاته وقهوة • وكانت لنا نتحدث • وكنت
اتأملها صامتا • ورأيت كاتيا تحدجني بنظرات قلقة • كان الشراب قويا ،
حادا • وكنا نرتشفه ارتشافا • واردنا أن نوصل كاتيا حتى المترو • قالت :
— شكرا • لا أريد ان تتأخرا •

— لكننا سنركب الحافلة من هناك •
وافترقنا عند المترو • كانت نظرتها تقول لي في جلاء : سأنتظر • واسرعت
تدخل المحطة • ورأيت لنا بتبسم ابتسامة ذات معنى • قلت :
— اسمعي لنا • هل تبين لي طلبا صغيرا ؟
— أي طلب لديك ؟

— أرى من الخير لنا ، نحن الثلاثة ، الاتصال بكاتيا •
— بالطبع لن اتصل بها قبل ان تتلفن لي • لم تعد كاتيا تريدنا معا • هذا
واضح • انها تريدك وحدك • وستصل بك • أوكد لك •
— ساعذر •
— كلا • ليس هكذا •

قلت مازحا :

— اتريدين ان التقي بها ؟

— لاتمزح • دعنا نفكر •

— وهل يتطلب الامر تفكيراً ؟

القت علي نظرة طويلة مستكرة :

— اهكذا ؟

واضافت بعد تأمل :

— على أية حال انت حري أن تراها • انما عليك ان تخبرني •

— ولماذا أراها ؟

حين هبطنا من الحافلة قلت :

— مازال المخزن مفتوحا • لنخرج عليه •

— ماذا تريد من المخزن ؟

— سأزود بشيء •

وابتعت أنا ناسا وموزا وقينة فودكا • وسألتني :

— هذا كثير • الديك ضيوف •

— هذا لوالدتك • ازعجناها البارحة كثيراً •

— انا أزعجتها • انت لم تزعجها بشيء •

— كنت أنا السبب •

— لو كنت حذرة لما افادت • لكنك ستغضبها بهذه الكمية الكبيرة من

الفاكهة • ستثور عليك • ستري • ستؤنبك •

وجرى الامر مثلما توقعت • حالما رأيتني أمها داخلا بدمولتي انقلبت

ساخطة علي مؤنبة • • صائحة :

— اتفق مالك على هذه المتدلة المتفلسفة ؟ اترك امرأة تضحك منك ؟

أين عقلك ؟ ومثقف ايضاً !

كانت لينا مستغرقة في الضحك . لقد وجدت لها فرصة لنشأ مني .. جاء دورها لتضحك كما ضحكت منها البارحة .. حين وقفت متحيرة بأعظيتها . 'وسريعا ما التفتت أمها اليها . كان سخطها على لينا أشد وأعنف . وكنت أخشى ان اضحك فتقلب ثانية علي . فأخذت الفاكهة ودخلت المطبخ . كنت اسمعها معنفة :

— كيف تسمحين له ، وهو طالب ، بأنفاق ماله عليك ؟ ألم تخجلي من نفسك ؟ أين كان ضميرك ؟ أين كان ؟

— لكنني اعترضت ولم يقبل .. أسأليه .

— أسألي نفسك أولا .

مع هذا كانت لينا تبسم . كانت فرحة بانقلاب أمها علي . وعدت لاهمس لها بأن نخرج حتى تهدأ أمها . قالت :

— كيف نخرج ؟ بلا عشاء ؟ ستتعشى أولا .

فالتفتت أمها ناحيتي :

— انزع معطفك واجلس . بدلا من ان يقرأ .. يتجول .

— كان يقرأ طوال النهار .

— اسكتي انت . منذ اول يوم معه وانت لاتريدين ان يترك لحظة .

ومضت الى المطبخ . فأمرت لينا الي :

— حاول أن تقنعها بقدح فودكا . ستقبل بعد الحاح منك . انها

تودك . لن تأخر عنك طويلا . سأساعدك في تهيئة العشاء .

كانت مكتبتها في البهو . فتناولت مجلدا لجيخوف ، ورحت اقرأ .

اجل ! « فولوديا » و « الساحرة » .. وتذكرت مجموعة مترجمة من هذه

القصص قرأتها صيفا في قريتنا ، وكنت في الرابعة عشرة من العمر . لاطعم

أكثر امتاعا مع الفودكا من الرنجة ! هذه السمكة الصغيرة البيضاء المملحة .

كنت اقطعها بالسكين قطعا صغيرة • وكانت أم لنا تلح علي ان أكل مزيدا •
فلقد أرضاها ان تجدني مستغرقا في القراءة • وسألتها ان تشرب قدحا
صغيرا آخر •

— لكنني سأنعم بعد قدحك هذا •

واضافت باسمه :

— أم اتما راغبان في ان يخلو لكما الجو سريعا ؟ انا لأحب السهر

عادة • نادرا جدا ما تأخر حتى العاشرة •

— أنا اريد ان تبقي معنا •

— لأبأس • سأشرب بعد حين •

بعد العاشرة كنت ولينا في جولتنا الليلية منعطفين حيال مبنى البريد •
وكان الهواء باردا نقياً ، منعشاً بعد الفودكا ، فلم أحس بلذعة البرد • ودرنا
حول شارع دوبرولوفوف حتى المطعم مرتين • ومن هنا قطعنا الساحة الصغيرة
بأتجاه البريد ، قاصدين منزل لنا •

وفي فراشها كانت مستقلة مشبوبة الخدين • وكنت أمسح بشفتي ندى

عرق عن وجهها ، ويدي لاهية بشديها الممتلئين •

— كنت خائفة من انك ستملني بعد أول ليلة •

فانحدرت بشفتي ويدي لائما كل موضع من جسدها •

— اتعلمين أنني احس بروحك تحت شفتي وأنا اقبلك •

— لا تني أحبك •

وتضيف ممسكة بيدي :

— قل لي •• لن ازعجك حين انهض مبكرا ؟

— ابدا • أنا أحب ان اصحو قبلك لارى وجهك وألثمه وانت نائمة •

أي نعيم ! اية بهجة ان ارى وجهك أول ما أرى كلما فتحت عيني صباحا !

ورددت علينا الغطاء سائلا :

— ألم تقتنعي ، بعد ، بفكرة زواجنا ؟

فأجابت ضاحكة :

— ستملني زوجة بعد شهر .

— ألم ترى أنني أحبك ؟

— أنا لك في أي وقت تشاء . أنا زوجتك .. أأست زوجتك ؟ أتريد

حبا أكثر من حبي لك ؟ فعلا أأست زوجة لك ؟ معا ، هناك ، في سريرك ،

أحس أنني خيلة لك . أنا هنا ، في فراشي ، فأنا زوجتك . هنا أحس أنك

تجنبي وأنا عارية معك . أنا لم أحب احدا حبي لك . أية سعادة ! أنك اصغر

مني بعشر سنين .. ولأنه آخر حب لي . لأأظن ان احدا غيرك يقبل امرأة مثل

هذه القبلات . فعلا .. أنا اشعر أنك تقبل روحي وانت تقبل ساقي وكتفي

وشفتي . وأظن أنك لم تقبل امرأة غيري مثل هذه القبل . سأكون لك عارية

في فراشنا هذا كل ليلة . لكن لا .. ستمل مني سريعا هكذا . بلى .

ستملني . ستبيت معي كل ليلة احد . هذا أفضل .. أو مرتين كل اسبوع .

لكن ماذا تريد ؟ انت تقبلني ثانية هنا . أنك تقبل روحي هنا . انت تقبل

جسدي كله هنا . اوه .. أتريد أيضا ؟ أنا مرهقة .. وانت تريد . انت

تجنبي . أنا لك . أنا جاريتك . أنا عبدتك . دعني اقبل قدميك . ✓

كان اصطراعا وعناقا معا . كان وجهها على قدمي . كانت تلثمها مرتجة

شبه باكية . أي انين ! وأية أهات ! وصباحا حين خرجنا الى الشارع لم تقل

لينا كلمة عن كاتيا .. تاركة الامر كله لي . وكان واضحا لي كيف سأفرغ

منه .

مررت على المنزل لاتي بحقيبة الكتب . وكانت لينا تنتظرني عند زليوني

دوم . وعدت اليها لتركب الحافلة . كان الوقت مبكرا . فأوصلتها حتى

المسرو .

ستعود كاتيا الى بيتها حوالي العاشرة من الليل • فاتصلت في التاسعة •
كانت امها ترد علي • قلت • اننا سنتظرها غداً عند المسرح • وصعدت
لاواصل قراءتي حتى العاشرة •

كانت اشجار الغبيراء مثقلة بالثلوج ، والزقاق خاليا • وكانت لينا أتيه
متأقلة الخطى • قالت متأملة وجهي ، باسمة :

— مرحبا •

فأسرعت الثم وجنتيها •

— أتدري من تلفن لي قبل خمس دقائق ؟

— كاتيا •

— حزرت • كنت اتوقع ان تتصل بك أولا • كانت تعتذر عن لقائنا

غدا • قالت انها مشغلة بالتمرين • وستتصل في الاسبوع القادم •

— مارأيك ان ندعو والدتك الى المسرح غدا ؟

— سيرها هذا • اتشعر ببرد ؟

— كلا • لتتجول •

والخذنا تمشي حوالي نصف ساعة • وكنت الف ظهرها جذراعي :

— لنمض اليك •

— غدا سأروك أكثر •

— أترك هذا الثراء كله وانا وحيدا •

— لكنك ستلني سريعا هكذا •

— مع غيرك ربما • • انما معك انت ؟ منذ سنين وانا احلم بك •

وتوقفت لي ا محذقة بعيني :

— وبالنبرة نفسها ! اكنت جادا ، اذن ، تلك المرة ؟ انني اكتشف نفسي

في عينيك وبين يديك • لم أر نفسي ، من قبل ، مثل هذه الرؤية • أنا اعلم

ان لي جسدا وساقين • غير انني اشعر انني جميلة حين تنظر الي • واحس
أنا خلقنا لبعضنا أنا وانت • أنا لم اخلق الا لآكون لك • وهذا ماأحسست
به حين رأيته لأول مرة • فأردت أن اجتذبك الي • كنت جادا ، اذن ، حين
قلت لي هذا بعد الحافلة •• بعد ان تركت تلك الفتاة الضاحكة وتبعني •

— ماذا قلت آنذاك ؟

— قلت انك تحلم بي منذ سنين •

— اكنت تشكين ؟

— لم اكن متيقنة • لم يكن الامر واضحا مثل هذا الوضوح • الم
تهجر كاتيا من اجلي ؟ لكن هذا غرور مني • انا امزح • لا ترمني بالغرور من
فضلك • لكنني أحسست برنة الاسى في صوتها منذ حين • احسست بها
متألة أسيه • يشق عليها بالطبع أن تستخف بجمالها من أجل امرأة اكبر منها •

— ربما هو ميل عابر •

— لكنها تحبك •

— طيب • لنفترض هذا • ماذبنا نحن • ستنسى بعد يوم أو يومين •

ستنقل فؤادها ماشاء لها من الهوى •

— بالطبع ستنسى • لكنها ستتألم فترة •

— مااكثر اصدقاءها !

— لن ينسها هذا سريعا •

— ليا •• لنمض اليك •

— اسع ، أُمي نائمة • ولا تريد أن يزعجها احد حين تنام • اتذكر

غضبته تلك الليلة في وجهي ؟ سندخل في أتم هدوء •

— لا تخشي من ناحيتي شيئا • ربما جاء الخطر من ناحيتك •

— ستطردنا كلينا •

- — وستنضي الليلة في غرفتي •
- — ما حاجتنا لغرفتك ولدي شقة ؟
- وكدت اضحك ونحن تسلسل كلسين • فأشارت بإصبعها على فمها
- منذرة • ودخلنا البهو وكان مضاء • واقترحت لنا :
- — مارأيك بقدح فودكا صغير بعد صقيع الشارع ؟
- — رأيي انك اسمى مقاما من ملكة بريطانيا •
- — أمازالت في العالم ملكات متوجات ؟ كنت أحب انهن انقرضن
- منذ زمن بعيد •
- — وما ارتضي وصيفة لك غير سميتك هيلين •
- — اضف اليها اسبازيا صديقة الفلاسفة من فضلك •
- قالت هذا منحنية على المنضدة الصغيرة واطعة كأسين • وكنت أتملى
- انحناءتها الباذخة متأججا • وكانت كتفاها الرحبتان تخفقان مرتعشتين ترفا
- ولدونة • فالتقطت لنا نظراتي باسم • وجاءت ببقية الفودكا :
- — ستكون عاقلا وتكتفي بكأس •
- — سأكتفي بالتعبد في حضرتك •
- — اتعبد جارية بين يديك ؟
- — انت كاترينا الاولى والثانية •
- وضحكت لنا ضحكا متكما ، خافتا :
- — اتدري أن اخر عشيق لكاترينا الثانية كان في عمر حفيدها ؟
- — أتدري انني سأجن •• ان لم تنزعي الجورب وتدعيني اقبل ساقلك
- في هذه اللحظة ؟ اتضحكين وانا اكاد أجن ؟
- — بل انت جننت فعلا •
- — أساقلك وحدها ؟ سأقبل قدميك •

- لكننا كنا في غير هذه الحال .. أنذاك .
- لافرق . هنا أو في سريرك . سأقبلهما .
- أي عناد ! قلت لا . لاتلمسني . أنت تدغدغني . سأضحك . اوه لا .. ليس هنا . قلت لا . اجلس .. دعني أغير ثيابي في الاقل .
- وتأخرت لينا . كان بابها مفتحا قليلا فدخلت . كانت واقفة في ثوب حريري طويل ، عارية الذراعين .. تسرح شعرها ، وتبتسم لي في المرأة . فأحطت ظهرها بيدي . ورحت الثم شعرها وارفعه لاقبل جيدها وكتفيها . وأخذت ييدها لتنطرح . وكشفت باطراف اصابعي المبتهلة عن ساقها الطويلتين البضتين الممتلئتين . وانحنيت ألثم ساقها وقدميها . وعدنا الى البهو .
- كنت مفتتنا باتساقها العسدي ، وقد ران علي وجهها طيف حزن . وارتشفت من كأسها ، وهمست في شروء .
- لماذا لم التق بك قبل عشر سنين ؟
- واضافت باسمه :
- ماكنت لتجني وأنا فتاة .
- ومررت عليها مساء الثلاثاء لاصحبهما الى المسرح . وأبصرت في الاستراحة باستاذتي فيشينفسكايا . فأبتسمت ابتسامة الرضا ونسي ترى لينا معي . واقتربنا منها نحيتها . وتركتنا لينا لتقف في الصف عند البوفيت . كانت ظمأى . فقالت استاذتي باسمه :
- أراك أخذا بنصيحتي .
- وتذكرت فابتسمت . ودعوته لتشرب شيئا . فشكرتني قائلة :
- ستحدثني عن رأيك في العرض فيما بعد .
- وقبعت لينا ، فسألني هامة :
- عن أية نصيحة كنتم تتكلمان .

— سأخبرك عندما نجلس .

مرة ، في الكورس ، كنا نطرح افكارنا عن الجمال الاثوي .. وكانت
استاذتنا تقول : مع المرأة الممتلئة الصدر يحس الرجل بلذة اكثر .
واخبرت لينا . فضحكت :

— لو لم يكن صدرها ممتلئا لما تحدثت هكذا .

في الامسية التالية ، وكنت عائدا من المعهد ، وجدت خبرا من كاتيا :
ستصل ثمانية بي في السابعة . ورجوت المناوبة ان تخبرها انني لم اعد بعد .
غير انها طلبتني بعد يوم . وكنت هابطا لانتظر لينا في العاشرة كما اعتدنا .
كانت المناوبة تهتف بي :

— كنت أهم بارسال احدهم اليك .. هذه المخابرة لك .
كانت كاتيا :

— اردت ان اعتذر لك عن تخلفي مساء الثلاثاء . انت تعلم انها
التمارين . اخبرتك لينا بالطبع . لكنني أحب ان اعرف شيئا واحدا . قلنا
لي انك ستجيء .. فأني أمر اعدك ؟

— كنت أظن . انني ساجد عذرا تقنع لينا به . فلم اجد ألم تقل
والدتك انني اتصلت ؟ هذا يعني انني لم اجد عذرا .

— لم تجد عذرا ؟ كيف ؟ أنت ملزم بالتزهر معها كل ليلة ؟
حرا في تحركك ؟ هل افهم من هذا انك لم تعد تريد رؤيتي ؟

— انت تعلمين اننا نحبك انا ولينا .

— أنا اسألك انت . اتريد رؤيتي ؟

— بالطبع أريد .

— تعال ، اذن ، الان .

— لكنني لا استطيع . لينا تنتظرني .

— انت تحيرني • ترد ولا تستطيع ! لكنك تجي، غدا ؟

— وماذا اقول لينا ؟

— اتسألني أنا ؟ قل أي شيء •

— سأحاول •

— كلا • سأنتظر •

— أليس من الأفضل ان اتلفن لك اولاً ؟

— أيهمك ان أظل اترقب التلفون متى يرن ؟ أيهمك هذا كثيراً ؟ أي

شيء فعلت لك لتعذبي ؟ لو انني اعلم انك لم تكن صادقاً معي ، لو انني
أجهل حقيقة نفسك الطيبة لما اتصلت بك • قل لي أخيراً اتجي، غدا أم لا ؟

الا تريد ان تتكلم ؟ كنت لطيفاً جداً معي • فماذا جرى لك ؟ فيه هذا

التبدل الطاريء المفاجيء ؟ أنا لا افهمك • قل انك لا تريد ان تجيء حتى افهم •

قل انك لا تريد • اكنت تظنني واحدة من العابثات الطائشات ؟

— كاتيا •• اتحسبن أنني رديء لافكر هكذا ؟

— لو كنت احسب انك رديء لما وهبتك قبلة • ألم تترفق بي وأنا

غائبة من الوعي في فراش واحد معك ؟ وهل سأصل بك لو انك غير ما اعلم ؟

مايحيرني هو انك اكثر رقة وطيبة من ان تتخلي عني بعد هذا كله • أم انك

سئمت ؟ اسمع • لن اقول شيئاً آخر • سأنتظرك غدا •

— كاتيا ••

— الى اللقاء •

واغلقت تلفونها • فأسرعت للقاء لينا • كانت واقفة في الزاوية •

— لينا •• أنا أسف •

— ما بك ؟ انت قلق •

— أسف انني تأخرت •

— لا بأس • هذا يحدث • انما اريد أن اقول لك شيئا • أنا احب ان
اجدك في انتظاري كل مرة اتجه فيها لالتقيك • أحب ان اراك من هناك حين
أنعطف من ناحية البريد • اتفعل هذا من اجلي ؟

— بل ستجدينني واقفا عند بابك • هناك سأنتظر •

— كلا • لا اريد هذا • لاشاعرية في ان تنتظر هناك • احب ان تنتظرني
هنا • أريد ان افكر بك وأنا في طريقي اليك • أريد ان اتعب قدمي قليلا من
اجلك • انا نجد متعة وجمالا في توجهنا لمن نحب • سأخص نفسي بهذه
المتعة من دونك • اسمح بها لي ؟ بالطبع سيتسمح • متى رددت طلبا لي ؟
لكنك قلق • ما بك ؟

— كنت اتحدث مع كاتيا قبل لحظات •

— ألم أقل لك انها ستصل بك ؟

— كاتيا تريد أن اراها •

— لا تقل أي شيء لي •

— كلا • ينبغي ان تعرفي كل شيء •

— ما بك ؟ لا أريد ان اعرف شيئا الان • سترها وتخبرني •

— لن التقي بها •

— لا يجوز ان تركها تنتظر •

— لينا • • فيم تفكرين ؟ اتظنين انني سألقاها وهي تريد أن تراني

منفردا ؟ حاولت أن أفهمها انني احبك • وتحدثت معها حديثا لطيفا • فلم

تفهم • لم ترد أن تفهم • من الخير الا اتصل بها •

— سألهم •

— وانت • • الن تتألمي حين التقي بأخرى ؟

— أنا اكبر منها ، واعرف انك لاتحبها •

- اسمعي • لا اريد أن تتحدث عنها • لن اترك لها خيرا • هكذا
- افضل • • وأظن انها ستفهم • بالطبع ستفهم •
- طيب • ماذا كنت تقرأ ؟
- في « الفردوس المفقود » •
- أنا لم اقرأ هذه الملحمة • اهي متعة ؟
- انه لشعر عظيم • غير انني ارى أن شعرنا العربي القديم أعظم
- قوة • • سأحاول أن انقل لك ابياتا منه • واحسب انك ستحبه •
- لكنك ستثقل لي ابياتا مختارة • انما لا بأس • أريد ان اطلع على
- شي منه • قل لي من فضلك • • ا هناك نماذج منه مترجمة الى الروسية ؟
- اجل • غير انها ترجمة لاروح فيها • • هذا مايلوح لي •
- لا بد من انه شعر صعب •
- كان غوته من اكثر الشعراء اعجابا به •
- وبوشكين أيضا • • نسيت ان اخبرك • صديقتي تلك صاحبة
- النصيحة ، تود ان تزورها غدا أو السبت • مارأيك ان نمر عليها غدا ؟
- وتوقفت لينا متحيرة ، متسائلة : كنت اضحك ضحكا غير متوقع •
- مابك ؟
- اسمعي • • هذه المرة سأصاب انا بحب صديقتك • سأحبها ،
- سترين • فاذا عرفتك بصديق لي ستقعين في حباله • من الخير الا نلتقي
- بأحد •
- أنا اريد ان اهيء لك جوا لطيفا •
- لا اريد الا ان اكون معك وحدك •
- كيف ؟ انعيش بمنزلي ؟ لا بد من صداقة الاخرين • كيف نرفض
- مصاحبة الناس ؟ كنت احدها عنك فأجبت ان تتعرف بك • وهي مغرمة
- بالشعر •

— لتكن اخماتوفا نفسها • لن اذهب • غدا سنشاهد فلما بولونيا في
« أريول » •

— « رماد وماس » ؟ يقال أن فيه جديدا • طيب • سندخل السينما
غدا ، ونزورها ليلة الاحد • انت طيب • لن ترد لي طلبا •
— لست طيبا • أنا رجل مريض • رجل حقوق أنا •
— وتعيش في قبو ؟ كلا • سنزورها •
— مهما تقولي فلن اذهب • واغفري لي •
— اتحدث جادا ؟
— أليس لها يعل أو صديق ؟
— بالطبع لديها اصدقاء •
— لن اذهب •
— وبماذا سأعذر لها ؟
— لن يعوزك عذر • أنت فيلسوفة •
— قل مثل أمي : انت متفلسفة • لن اغضب •
— سنقضي أمسية السبت في أي مطعم تريدن •
— قلت لك أنا لا أحب المطاعم •
— سنسهر عندي اذن •
— كلا • في شقتنا •
— أخشى ان تضيق والدتك ذرعا بنا • ، بعد هذا كله •
— لكنني زوجتك • انسيت ؟ ومع هذا فأمي تريدك عندنا كل يوم •
وهذا ما يسرها كثيرا • اتدري ؟ انها تصفني بالعاقلة لأول مرة • لانتني
أحببتك • أمي طيبة وتحبك • انها تتحدث عنك باحترام •
كنا نلتقي في العاشرة من كل ليلة ، وفي السابعة مساء كل سبت • احيا

كنا ندخل السينما ، ونعود متأخرين في الثانية عشرة من الليل تقريبا . وكانت الثلوج تذوب . والخضرة بادية والبراعم تتفتح . وكانت السماء تتلبس بالغيوم ، والأمطار تنهمر وابلا فنلزم الشقة . وسريعا مامر الربيع مطرا باردا .

واقبل الصيف . كانت امها في بيتها الخشبي الصغير في الضاحية . وكنا نزورها لنبيت هناك . وكانت الخضرة الندية متفجرة في كل مكان . وكنت ألح على لينا أن تتمتع بإجازتها جنوبا . كنت اراها مرهقة شاحبة . فأصررت أن تقضي عطلتها حيث البحر والشمس والهواء الجنوبي الرائق . وكانت تعرض مازحة : انت تريد ان تتخلص مني .

وسافرت لينا . فأحسست بالفراغ القاحل ، بعدها ، منذ اول ليلة .. وكانت غائمة مطرة . وكنت وحيدا . كنت أقرأ ، طويلا ، في منزواي من مقهى الشباب أو في مكتبة الاداب الاجنبية . والعشايا لا طعم لها غير طعم الحساء البارد ، حساء الفاكهة النحيل . وشراب كل أمسية هو هذا القدح الكبير من الكفاس . هل مر اسبوع أم عشرة أيام ؟ لا تذكر . وذات صباح ، في الحادية عشرة ، كنت في المعهد . كان علي ان انجز اوراقى لارحل جنوبا خلال يومين . ورأيت الاستاذة الشابة هناك . كنت واقفا في الممر أتتظر الموظفة . فابتدرتني الاستاذة بتحية مندفعة ، وبابتسامة مرجبة . وكانت متهيجة لان تخرج . فسألتها ان ارافقها ، قليلا ، في الطريق .

الوكنات

- سألتها ان ارافقها قليلا .
- ألم تسافر بعد ؟
- كلا . وانت ؟
- لم يزل زوجي في هلسنكي . . سيعود بعد أسبوع .
- وعرفت أنني لن اسافر . كانت نضرة عبقة في رداها الصيفي
- الخفيف . كنا على رصيف غوركي نمشي في غير عجل . ودعوتها لأن تقضي
- ساعة في المقهى وكنا حياله .
- لا بأس . مع ان الوقت مبكر .
- وأردت ان أوصي على شمبانيا . وسألتها :
- أم يعجبك شيء آخر ؟
- أنا لا أفضّل شرابا على الشمبانيا .
- وفي الشتاء ايضا ؟
- لكننا في الصيف .
- كانت الشمبانيا باردة .

— أتدري ؟ أنا لم ادخل مقهى منذ زمن بعيد ؟

— أهى مشاغل البيت ؟

— كلا . أنا احب السير في الهواء الطلق .

— لكم أود ان اسير معك عبر موسكو كلها .

— ألن تعب ؟

— معك انت ؟ لن أشعر بأي تعب .

وتجمع حبي القديم كله في عيني . كانت ترى هذا جليا فتفض بصرها
باسمة ، وتعود تتطلع الي . وانصرفنا من المقهى في الواحدة . فأخذنا نسير
في غيرما اتجاه معين . ومررنا بمكتبة ، فدخلنا تنفحص الكتب . وسألتهما
أن تغدئ فقالت انها ليست جائعة . فأقترحت ان نشاهد فلما . وبعد
السينما كانت أخذة بذراعي بلطف . قلت :

— مارأيك أن تغدئ الان ؟

— كنت أريد ان امر على أمي . لكن لا بأس مادمت راغبا .

— أي مطعم تفضلين ؟

— لافرق عندي . في أي مطعم تحب .

وتذكرت المطعم العائم قبالة متنزه غوركي . فركبنا اليه . كانت فرحة ،
خالية البال . وشربنا زجاجة . فأردت أن ازيد . قالت انها تود أن تتجول في
البارك . واخذنا تنتقل من بقعة مزهرة لآخرى . واكترينا قارباً في البحيرة .
كنت اراها رائعة المزاج ، منطلقة في اعتدال . وكنت حذرا في تحركي معها .
وخرجنا في العاشرة من الليل . ماكنت أعلم أين تسكن . فسألتهما لاوصلها في
التكسي .

— ولماذا في التكسي ؟ مازال الوقت مبكرا .

كنا منحدرين في حدائق الضفة . والنجوم الياقوتية تتوهج فسوق

ابراجها • واجتازنا الساحة باتجاه الكوم • • وكانت مأهولة بالمتنزهين •
وعبرنا الشارع ناحية المحطة • وسألناها أن نمر على مخزن الاطعمة • وكان
قريبا من المترو في جانب من الفندق • فأبتعت زجاجة نبيذ • قلت •
— مارأيك ان نشرب شيئا • نحن في عطلة • ولدنا وقت •

فردت ضاحكة :

— كيف ؟ في الشارع ؟

— أمن الممكن عندك ؟ أعني قليلا •

— ممكن • طفلي عند أمي • سأتلفن لها •

دخلت كشك التلفون • ثم جاءت الي :

— لا بأس • لنذهب •

في شقتها كنت أحس بارتباك • غير اتنا كنا نشرب • وكانت مرحة •
مبتهجة • وكنا معا فوق اريكة واحدة تتجرع الخمرة الطيبة • وامسكت مرة
بذراعها العارية فتركها لي زما • ثم سحبتها مني في هدوء لترفع كأسها •
فجأة اخذت الامطار تهطل قوية • وكانت النافذة مفتوحة • فنهضت
لتوصدها • وتبعتها • • فأخذت بكتفيها الرحبتين برفق ملامسا ظهرها
الرائع • ثم هبطت بيدي فأحطت ثقلها الشهي المبتغى بهما • فأستدارت بين
ذراعي نحوي • وكنت أضمها والتم وجهها وفمها • ولم تكن تتمنع • انما
تقول هامسة ، وفي عيونها رغبة وذبول :

— لا • • ارجوك • • دعني •

وكنت اقبل عنقها وذراعيها •

— لا • • لايجوز •

واخذت شفتها السفلى بفمي • كانت حارة ، طرية جدا بين ذراعي •

وكانت تقربني منها وتشدني وتقبلني هامسة :

— اين كنت عني ؟

وفي فراشها كان عريها نهرا مترعا متقلبا ، مائلا سعة السرير كلها . كانت
الفرس الجموح تنتهب الارض . وحين تبلغ الفرس حافة الطريق ، حافة
الهوة الفاغرة الوثيرة . . . تظفر ظفرتها الاخيرة ، لتتطرح مسيلة اهدابها ،
مطلقة آهة طويلة دفيئة ، محتبسة منذ سنين . وطوال ساعات طويلة . . . كانت
خافقة ، دافقة متأوهة بالزغبة العارمة . وكانت افخاذها المديدة الملأى نهبة
ليدي وشفتي . وكان صدرها الثلاثيني المتلي العريض مرتجا منسحقا ،
مبددا . كانت رطبة مبتلة الشعر والوجه ، مأخوذة متغفرة . حتى اذا الفجر
لاح كانت تن متضرعة ، موجوعة ، مضغضة مهدودة الكيان .

كنا نلتقي كل يوم في الثامنة مساء . فنتجول طويلا في الحدائق أو
البولفار . أو نقعد ركنا من المقهى . ونقصد شقتها في منتصف الليل مع
زجاجة خمر . وسريعا مامر اسبوعنا العسلي . وكانت تقول :

— اين كنت عني طوال عامين ؟ اين كنت ؟

كانت غرفتي موحشة ، خالية . وكانت ليما تبعث لي برسالة كل يوم .
وكنتم أجعل من رسائلها كراسة لنقرأها فيما بعد . ولقد اخبرتها في اول جواب
انني غير مسافر . قلت انني شغلت ، فجأة ، بقراءة بروست . كنت قد
استمرت « الزمن الضائع » من صديقي علي الاذريجاني . وكان مترجما
في ستة مجلدات . كنت أقرأ طوال النهار . وأعود لأقرأ في الليل . . . بعد
جولة في الحديقة أو ساعة في المقهى . وفي طريقي الى مخزن الحي . . . كنت
اتوقف عند بائعة الكفاس منتظرا دوري في الصف ، لتلاء لي قدحا من
صنبور البرميل الخشبي . طوال الصيف كنت أجد هذه البراميل ، فوق
عجلاتها ، على ناصية الشارع . وكان يدعى قديما بيرة الموجيك .

كان المنزل مقفرا تقريبا . . . الا من زائرة أو اخرى ، تحل ضيفة في غرفة

ما ، قادمة من جهة ما من جهات البلاد الاربع . . لتقضي في العاصمة اجازة قصيرة وترتحل .

مرة كنت عائدا من المخزن . كان الوقت مساء . فرأيت عند المصعد امرأة فتية من هذه الزائرات العابرات . كانت خارجة ، توا ، من الحمام . كان شعرها مبتلا ، وفي قميصها نداوة . وكان يشد قامتها الهيفاء العالية بنظلون ضيق . فأجريت معها حوارا . كانت شاعرة استونية من تالين . فأقترحت أن اترجم بعض قصائدها الى العربية . وكنت اروم وصالحها بالطبع . قالت انها ليست بالشاعرة المهمة . واغلقت دوني السبيل . فأتيت غرفتي قانطا . وبعد أقل من نصف ساعة سمعت نقرا فوق بابي . كانت هي الاستونية وفي هيئتها تلك . جاءت تسألني قبضة شاي . كيف اهتدت الى غرفتي ، وهي في غير طاقي ؟ فلقد واصلت صعودها حتى السادس . هذا ما لم اتوصل لمعرفته . ولم أسألها عنه . فدعوتها مرحبا لان تجلس . ورحت أعد لها الشاي . وكنت افكر مبتهجا : فيم كان انقلابها هذا ؟ تصدني جافية وتسرع الي بقدميها ؟

كان باديا عليها انها باقية . فلقد فرغنا من الشاي ولم تتحرك . كان وجهها لطيفا ، وكانت نضرة ، شذية بعد اغتسال . ورجوتها أن تنتظرنني حتى اعود من المخزن بشيء .

— طيب . اعطني أي كتاب اقرأ فيه حتى ترجع .
— هذه الكتب كلها بين يديك .

وعدت سريعا بالخمرة والزاد . كان الهواء يهب بليلا من النافذة . وكان المطر يتساقط بين حين وآخر . وبعد منتصف الليل ، وقد ارتويينا حبا ، كنا نقف عارئين عند النافذة المفتوحة لنبرد . وكنا نكسر الفستق باصابعنا أو بأسناننا ، ملقين بقشوره في منفضة وضعتها عند النافذة . وباغتتنا زخة

مطر . فاغلقنا النافذة . وعدنا متعاقبين ، في العتمة العابقة بالليل ، وكان الشرف الابيض يتراءى فوق الفراش في غموض .

كانت لنا تريد أن تقطع اجازتها بسرعة الي ، باعثة لي صورة كبيرة لها ملتقطة تحت شجرة مشمش منعزلة . فأصرت ، في جوابي ، ان تنهي اجازتها حتى آخر يوم . وكانت تتساءل في خطاياها : اترى هو بروسست وحده حال دون ان تسافر ؟

واكتشفت وجها عابرا آخر . في الغرفة اللواعة لغرفتي تحل ضيفة رائعة . هي هذه المرأة الاوزبكية الشابة ، ذات الملامح الروسية والعينين الخضراوين والشعر الاسود . في وجهها سمة خفيفة ، وقوامها الريان يملأ الذراعين . كانت تحدجني بنظرات متأججة . فأقتربت منها :

— مساء الخير . أنا جارك في الغرفة المقابلة .

— بلى . اعرف هذا . فلقد رأيتك .

— وشرقي مثلك .

فأبتسم عارفة نيتي منذ اول خطوة .

— انت عربي ؟

— أجل . . وانت اوزبكية كما يبدو .

— بلى . أنا اوزبكية .

— من طشقند .

— أنا من سمرقند .

— أخرجة انت في نزهة ؟

— كنت أود ان ادخل سينما روسيا . أنا لم ارها من قبل .

— اتسحين لي يرافقتك ؟ ان ماجرأني هو اتنا جاران .

— لطف منك ان تصحبني . اتنا اخشى انك شاهدت الفلم من قبل .

فتضجر . لأأريد ان اغدو سيبا في سأمتك .

— أنا لم ارتد السبحة منذ زمن بعيد .

كان الفلم هو « عطلة في كاري » فخرجنا مرحين . ودعوتها لان

تتعشى في مطعم . فركبنا الحافلة لم يكن المطعم مزدحما . انه الصيف .

— أنا اسمي نظيرة . أنا جارتك منذ يومين .

— لو كنت اعلم !

— أما انا فلقد رأيتك . كنت داخلا . . وكنت اتحدث في التلفون . ألم

تزن اوزبكستان ؟

— سأزورها بالطبع . أنا متشوق لزيارة بخارى وسمرقند وطشقند .

غالبا ماتغدى في مطعم اوزبكستان لاشرب الشاي الاخضر .

— اتجبه ؟

— وكيف لا ؟

— ستشربه الليلة معي . جئت بعلبة كبيرة منه . وسأتركها لك . عندنا

في المقاهي . . تفضل الشاي على غيره .

— وعندنا ايضا . الشاي وليمون البصرة .

— أهو حامض . . هذا الليمون ؟

— أجل . . ويحضر كما يحضر الشاي .

كان وجهها مكثما ، وصدرها ممتلئا عامرا .

— انك لك وجهها أسمر وعينين خضراوين . وكأنك عراقية .

— يسرني ان اشبه نساءكم . من يدري ؟ فلعل جدي الاقدم كان

عربيا . فلقد كنا ، قديما ، طرقا منكم . لكن العيون عندكم عادة ماتكون

سودا كميون الشرقيين عامة . أم انا مخففة ؟

— ان ماتذكرينه هو عين الصواب . انا صدف ان تجدي عراقية

سراء بعيتين خضراوين .. أو تجديها بيضاء ناصعة بشعر اشقر قليلا .
كانت الساعة الثانية عشرة حين انصرفنا من المطعم . فركبنا التوكسي .
ورغبت نظيرة ان تشم الهواء العبق تحت اشجار الغبراء . فأخترنا آخر
مصطبة وراء الاشجار . كانت طيبة شأن المسافرة العجلى . كنت اقبلها ،
وأهمس لها بأرق الكلمات . وداهمننا المطر غزيرا . فقررنا الى المنزل .
ورأتنا المناوبة آتيتين متأخرين ، وعلى اثوابنا بلل . فأشارت لي باصبعها ، في
غفلة من نظيرة ، مؤكدة انني احسنت اختيارا ، صاحبا معي هذا القوام
الشهي المتليء الشرقي . في المصعد كنت اقبلها وهي تضحك هامة ان
القبلات في الحداثق لافي المصاعد .

— سأعد لك شايأ أخضر .

ودخلنا غرقتها .

— انتظرنى قليلا . وسأعود بالشاي .

— بل سأذهب معك .

— أليديك غدا وقت ؟

— اتظنين أننى سأضن بوقتي عليك ؟

— ربما لديك عمل .. أو مايشغلك .

— سنمضي اينما تودي .

— اننى لاود أن اتجول في المدينة لاغير .

— لن اتركك لحظة واحدة .

ورحت اقبلها في المطبخ . فانقلت ضاحكة :

— ليس هنا . سيرونا .

— لأأحد غيرنا في الطابق .

— مع هذا .

وسألتها في غرفتها ، وكنا تتجرع الشاي الاخضر ، والامطار تهطل
قوية ملحة ، وتضرب الزجاج :

— أنت كاتبة ؟

— أنا اترجم القصة الاوزبكية الى الروسية .

وتذكرت حفلا صاخبا أحياء فكرت في هذه الغرفة نفسها . كان طعم
الشاي حلوا في شفاها . وكنت أقبل فمها ووجهها . واحمد صدفة جعلتها
جارة لي . وخطوت لاطفيء ضوء السقف . فأوقدت هي مصباح الطاولة .
ورجتي أن استدير لتغير ثوبها .
— الان يمكنك ان تراني .

كانت في رداء حريري عريض ، منسدل فوق امتلائها المثير . في رداء
من هذه الاردية الاوزبكية الخفيفة . فأحتضنتها مقتربا بها من سريرها ،
وهي تتسنع قليلا وبلطف . كانت الامطار تضرب النافذة طوال الليل . وكانت
تنطق بالذ الهسات عارية ، متأوهة بين ذراعي . ولقد سرها انني راغب
بجسدها رغبة قوية . كانت آسيا الروسية عارية جامحة تحت يدي .

وكنا معا ثلاثة أيام . وكان « الزمن الضائع » منتظرا جانبا . وكانت
لينا تبسم لي معاتبة تحت شجرة الشمس . وكنت اعتذر بالصف
والوحدة . بالمرح والشباب . وكانت نظيرة تحزم امتعتها . ستركب
التكسي بعد دقائق لتلحق طائرتها . وصعب علي أن تنطلق وحيدة في
التكسي . مع اني اكره ساعة الوداع . وتذكرت قبلاتها واحتضانها لي .
فركبت معها . وعدت وحيدا في باص المطار الازرق . ونزلت في المركز ،
في آخر موقف : فانددرت لاشرب القهوة المرة في الطابق الاول من فندق
موسكو . وكنت استعيد هسات نظيرة :
— سأكتب اليك . وسأعود وانزل هنا .

ستصل لنا بعد عشرة ايام • ينبغي أن أزور امها غدا في الضاحية •
سأحمل معي بطيخة أرجو ان تكون حمراء • لن تزعجها هذه الهدية
الرخيصة • سأتغدى معها واتجول ، ساعة ، في الغابة ، وأمر على البركة
لاسبح •

وعاد جيلي وجون •• وعدنا نشرب الشاي في ساعة متأخرة • كنت
أقرأ طوال النهار • واتغدى في مطعم الحي مع قدح بيرة • ثم يعد المنزل
مقفرا • جاء اولا طلبة الكورس الاول ليؤدوا الامتحان • ثم جاء الآخرون •
كنت أتنزه ساعة مع اندريه ، الشاعر الحزين ، في ليالي الشارع المزدانة
بالصبايا والزهور • واتمتع بقدح الكفاس كلما مرت على المخزن •

صباحا كنت انتظر لنا في المحطة • ورأيتها آتية متناقلة الخطى •
فأسرعت لاقبلها وأحمل عنها حقيبتها • كانت الشمس الجنوبية قد لوحت
وجهها الشاحب تلوحا طفيفا • وجعلت تتأملني في ارتياب • غير انها سريعا
ما أعطت وجهها بسمة عذبة ، ملتقطة الي في حنو :

— هاأنا ذي عائدة • أنت سعيد بعودتي ؟

— أهذا سؤال • انت تعلمين انني كنت اتحرق انتظارا •

— لكنك قلت انك ستسافر •

— وأي فرق ان ابقى أو اسافر •• مادنا بعيدين عن بعضنا ؟ ماكنت

لاقدر أن احجز في مصيفك • فما هو في عداد الامكنة المخصصة لنا •
ووجدتها فرصة لان انصرف للقراءة •

— كنت أريد لك ان تقضي اجازة ممتعة • كيف هي أمي ؟

— بخير • وهي متشوقة لرؤيتك •

— سنزورها حالما اضع متاعي في الشقة •

وعادت تحدجني بالنظرة المتشككة • ونزلنا من التاكسي عند منزلها •

قالت متفحصة حجرات الشقة :

— أمي كانت هنا • كل شيء مرتب ونظيف •

وكنت أقبل وجهها وجيدها • وأردت ان ندخل غرفتها • فألقت علي

نظرة مشتعلة • وألزقت مني :

— لا أظنك مشتاقا الي كثيرا •

— أنا أريدك في هذه اللحظة كما لا أريد أي شيء آخر •

— اتري ؟ أريدك !

— أنا أريدك فأنا أحبك •

— كوجيتو آخر !

كنت اضحك محتضنا قوامها المتأود اغراء • فأخذت تتوسل :

— ارجوك • ليس الآن • لن يكون الامر جميلا هكذا • لقد مر

شهر وأنا بعيدة عنك • لا بد من أن استحم وأخذ زيتتي • دعنا نطلق لنرى

أمي أولا • كن لطيفا وانتظرنني في البهو • سأغير ثيابي • هيا • انتظرتني

هناك •

وقصدنا الضاحية في القطار الكهربائي • كانت أمها في انتظارنا • وكان

الغداء رائعا : حساء اللهاة الروسي والبطاطا المهروسة ولحم الضان •

وانسلت لنا لتستحم في مغطس الداجا • وجعلت اتسلى في الحديقة

الصغيرة : أقطف التفاح وحب الكبش : المالينا القرمزية أو الشهباء بلون

العنب الأبيض • هذه الاسيجة الخشبية تذكرني بالمدن الريفية الصغيرة

عند دستوفسكي • وكنت اسمع وسوسة الغابة عن قرب • واشمم

أعاس الخريف في نائم الصيف الندية بالمطر ، وأراها متموجة بالصور

والبتولا • ولما تزل الخضرة كثيفة ، محمرة ، مصفرة هنا أو هناك في المروج

والأحراش • وابصرت بلينا آتية الي •

كانت في ثوب حريري أزرق منفتح قليلا عند صدرها ، وكانت عارية
الذراعين حتى كفيها • كان جمالها الاخاذ ملء عيني ، فكنت ابتسم اعجابا
ومحبة • فأقتربت منها • ولم تقل أي شيء • ودخلنا معا لبرتقي السلم
الخشبي الى غرفتها • كنت أقبل جسدها المتليء العاري الجميل كله •
من الرأس حتى أصابع القدمين • وكانت عيناها الدامعتان ضاحكتين •

ثم انطلقنا نتنزه في الغابة ونجمع الكمامة • وابتعدنا ، متوغلين ، تحت
أشجار الصنوبر والثريين العتيقة • ومررنا بأشجار البلوط الهائلة • وبعيدا
عند البركة يتعالى لغط المتزهين • وعثرنا على قذيه من بقايا الحرب مرمية
تحت الاعشاب • وكانت السلة ممتلئة • فتمددنا فوق الاوراق اليابسة
المتكومة • وجعلت اقبل وجهها واكشف عن صدرها • وكانت تضحك •
واردت منها أن تنضو ثوبها • والريح تهز أعالي الغابة المتهامسة • وكانت
تتمنع :

— أجننت ؟ هنا يرونا •

— لا أحد هنا •

— قد يمر بعضهم فجأة •

— لن يرونا • نحن بمنجى عن الانظار في كهفنا الشجري هذا •

— لكن لماذا هنا ؟

— انت حورية الغابة وأنا بعلك •

— انك لمجنون • وأنا أحبك • انتظر لحظة لانزع •

واطبقت سترتي السفرية وسادا لها • وبسطت قميصي لاقبي ظهرها

الناعم من خشونة الورق • لم تكن حافلين بشيء • وفي غمرة اضطراعنا
كان رأسها بعيدا عن سترتي متمرغا بالعشب والاوراق •

وخرجنا من بين الاشجار المتقادمة • وكانت الاوراق اليابسة عالقة

بشعرها • فأخذت التقطها واخبئها في جيبي •

— لماذا تحتفظ بها ؟

— سألون بها كراسة رسائلك .

وعند البركة اكتشفت اوراق البردي الطرية الزرقاء . وكنا نقطف الزهر البري النبات أعوادا عالية في المرج حيال حافة الغابة . وعدنا مثقلين بأكوام متاونه منه . كان الوقت مساء ، والسماء صاحية . وكانت السلة ملأى بالكماة . وكان وجه لنا مخضبا بحمرة الحب . وابهج الام ان نوفر بهذه الكمية الكبيرة من الكماة . وقالت انها ستظفها حالا ، وتعد منها وجبة طيبة مع فطائر الشوشبرك والفودكا .

لم تعد نظرة لنا متشككة . انما هي نظرة محبة خيول هادئة . وكان الزجاج متوقفا بأشعة الشمس الغاربة . وعند المائدة طفقت لنا تقص اخبار رحلتها الجنوبية . وفجأة اخذت السحب تتجمع ، والرياح تهب قوية . وسريعا ما انهمر المطر وابلا . قالت لنا :

— ستسقط الرياح كثيرا من تفاحنا . سنجعله صباحا .

كنا نسمع خفيف الغابة المتكاثف . والسماء مبرقة مرعدة . والشجر عابق بروائح . وانهزمت الزوبعة مبتعدة ، موله لة بعد قليل . وفتحنا النافذة لهواء الليل .

وفي الغرفة الخشبية كنا نسمع وسوسة منتصف الليل . كانت مستلقية هادئة . وكنا متدثرين بالشرشف الابيض الكبير حتى صدرينا . وكنت أزيحه لالثم ثديها المتكورين الناعمين . والنافذة منفتحة لروائح الحدائق المثمرة المبتلة . وكانت تناهي الينا اصوات المتزهين المتأخرين . واغنية « أنا اذرع طرقات موسكو » تدندن في مكان ما . بعد غد ستعاود لنا عملها . وسيبدأ العام الدراسي ايضا . وكنت الامس يدي جسدها الطري الساكن . — كنت قلقة عليك في المتجمع .

- اكنت تخشين شيئا ما ؟
- ماأقلقني هو تخلفك عن السفر •
- لكنني اوضحت لك في رسائلي •
- كنت أظن انك تخلفت بسببها •
- بسبب من ؟
- كاتيا •
- اتفكرين بها وقد نسيته منذ زمن بعيد ؟
- وما أدراني ماذا كنتما تدبران !
- انا لم أرها منذ آخر مرة في المسرح •
- ألم تحصل بك ؟ بعد سفري ؟
- ولماذا تتصل ؟ تلك كانت رغبة عابرة •
- لكن مالي ازعجك بوساوسي وانت تغطيني بشفتيك •• بقبلاتك ؟
- وعدنا في قطار الضاحية محملين بهدايا الغابة والحديقة المثمرة • لم يبق
- احد من اصدقائي الاذريجانين • فلقد تخرجوا وسافروا • ولم نعد نراهم
- الا زائرين •
- وفي السابعة مساء كنت انتظر لينا • كان معطفها الرمادي الصيفي منفتحاً
- عند صدرها • وكان شعرها الاشقر متكوما تحت قبعة خفيفة •
- أين يعجبك أن نذهب ؟
- لتجول ساعة • وبعدها تتعشى في الشقة •
- مارأيك •• في احد المطاعم ؟
- قالت مبتسمة في عيني :
- ألم تسأم من مطاعم الخانقة ؟ لا بد من انك دخلتها مرارا في غيابي •
- أنا افضل عليها •• هذا الهواء •

- لنمر على المخزن اذن •
- اعرف ماذا ستشتري • لدي مايعجبك • جئت لك ، من هناك ، بنيذ
- بنوبي رائع ، نيذ احمر •
- وفي شقتها ، حوالي الثامنة ، كانت تقول :
- سأتححر اولاً من هذه البدلة • في ثوبي المنزلي أحس بارتياح •
- كنت في البهو اتصفح كتبها • وعادت في ثوبها الاحمر الداكن • وكنت
- أحب أن ترتديه ، فهو يظهر شحوبها الشهي متألقا كما يظهره الازرق الداكن •
- قنهضت لاقبل وجهها •
- انت تقبلي وكأنك تلتقي بي لأول مرة • أهو ضميرك يؤنبك ؟
- الاتي متيم بك ؟
- طيب • اتدري من رأيت في المتجع ؟
- قلت متمعضا :
- أهو زوجك ؟
- مابك ؟ أي زوج ؟ انت زوجي •
- وهو ؟
- بالطبع لم اشأ في حينها ، أن اخبرك • لقد هجرته تلك الصبية اللعوب
- قبعث من يتوسلون بأسمه الي • فاسرعت بالحصول على وثيقة الطلاق • رأيت
- هناك فتاة تعرفك • احزر من هي ؟
- وأناى لي ان اعرف •
- اسمها تانيا • وهي تذكرك بخير •
- أهى ناحلة قليلا ؟
- اجل • كانت لكم امسية شعرية في مصنعها •
- وكيف عرفت ؟

- كنا في الحديقة • وكنت اكتب رسالة لك • ورأيتها خارجة • فرجوت منها أن تضعها في صندوق البريد • ولاح لها اسمك وعنوانك ، فراحت تسألني عن انبائك • لم تقل عنك الا خيرا •
- واردت ان اغير الحوار :
- متى نلتقي غدا ؟
- في العاشرة •• مثلما اعتدنا في غير ليلة الاحد •
- كان النيذ طيبا باردا •
- قل لي من فضلك •• تلك الفتاة تانيا ••
- لينا •• الابد من فتاة في احاديثنا ؟ كانت رغبة أن تتزوج • فما كان الا ان تترق في هدوء •
- وسألتها فجأة :
- الم تفكري باقتراحي ؟
- أي اقتراح ؟
- ان اتزوجك •
- وكأنك لاتفكر الا بيومك • تصور ماذا سيكون من أمرنا بعد عشر سنوات ، وكيف سأبدو لك !
- لن يتبدل شيء منك ، في عيني ، حتى بعد مائة عام •
- هذا مايخيل لك •
- انت لاتريدين •
- لو تعلم !
- فيم رفضك اذن ؟
- لانني احبك •• ولا اريد ان تشقى معي بعد حين • ثم انني لن احتسب حبك غيري لحظة واحدة • في هذه الامور أنا متكبرة •

— ولماذا أحب غيرك .. وانا احبك ؟

— لن يدوم حبك لي أبد الدهر • ستسأم هذا الصدر وهذه الساق •

ستجد رغبتي في جسد آخر • اما أنا فسأظل متعلقة بك ، متشبثة بأذيال حبك ،
لأنك آخر حب لي • بل حبي الوحيد • أنا لم اعرف طيبة مثل طيبتك • وانك
لتحب الاثني في كما لا يستطيع ان يحبها اي رجل آخر • انرى ؟ انني لاشعر ،
وانت تلمس عربي وتلثمه ، أنني اجمل امرأة •

— وانك لاجمل امرأة حقا •

— هذا لانك مازلت راغبا بي •

— اسمعي • أنا اعرف نفسي • واعلم انني لن اهنأ ، يوما ، مثلما أنا
هانئ في نعيمك هذا • وسأظل اتشوق اليك حتى آخر لحظة • وستندمين يوما
لأنك أبيت ان تقترني بي • لكن مابك ؟ فيم هذه الدموع ؟
— كلا • كلا • لاتحدث هكذا •

كان الخريف ذهبيا هذه السنة • كانت الريح تتلاعب بالاوراق اليابسة
المتهاوية فوق ارصفت دوبرولوبوف • فوق المصاطب في المر العريض • وكنا
نرتدي المعاطف الخفيفة حذرا من المطر ولذعات البرد • واخذ الليل يهبط
مبكرا • وكنت اعود من المعهد ساعة الغروب • فأقرأ حتى العاشرة لالتقي
بلينا • فنتجول ساعة أو نشاهد فلما • وكنا ننتظر الشتاء والثلوج • وحين
يصبحو النهار مشرقا ، صباح الاحد ، يطيب لنا ان تمشي في المريين
الاشجار وهي تتعري من اوراقها • كان البرد خريفا ، متعا ، لاذعا قليلا تحت
السماء الزرقاء • وحين تتجمع السحب وتكاثف قاتمة منخفضة • نحس
بالنداوة في الهواء • وبعد المسرح ، ليلة الاحد ، تود لنا أن ندخل المترو •
ففسير غير مسرعين حتى محطة ماركس • كان شعرها المنفلت من تحت
القبعة • يتخافق في الهواء المكيف الدافئ • وكنا نغير الخط ، في آخر

الجملة ، باتجاه نوفو سلوبو دسكيا • وتحب ، احيانا ، أن ارافها حين تتسوق
من الكوم • وكنا نتوقف قرب نافورة المخزن الهائل ، والزحمة في أوجها
أول الليل • كانت الاشجار تتجرد • • فنحن نحس بالورق الهش المتكوم
تحت اقدامنا في الماشي • • بين الاشجار العالية ، في الحديقة العامة أو
البولفار • وكلما عرض فلم شيق في متروبول أو روسيا أو السينما
المركية • • كنت اقتطع تذكرتين واتلفن لها • واسعى قاصدا مكتبة الاداب
الاجنبية لاقرا ثلاث ساعات • وانتظرها قبيل العاشرة عند مدخل السينما ،
واقفا بين المنتظرين • فتجيء في معطفها الرمادي أو الاخضر الفاتح • وقد
تباغتني محمدا بفتاة رانية الي • فتقف أمامي ناظرة الي نظرتها الضاحكة
المؤنبه الساخرة :

— مرحبا •

واسألها ان تأكل شيئا في بوفيت السينما فترد :

— لماذا ؟ سنتعشى في البيت •

وتحدر ، بعد الفلم ، ماشيين حتى الحافلة • • لننزل عند زليوني دوم •
عندئذ تكون امها نائمة • فندخل في هدوء • ونعلق معطفينا • وتبج ناحية
المطبخ جائعين • وتقول :

— أظن ان لدينا بقية من الفودكا • سيكون مذاقها سائفا مع الرنجة •
خذ معك قدحين الى البهو من فضلك • وسأتي بالعشاء •
— لاتنسي خيارة مملحة •
— أهذا شيء ينسى ؟

وأعود لاحيط ظهرها الباذبذراعي • فتلتفت الي بوجهها الشاحب
الجميل ، وفي زرقة عينيها خفق برق بعيد • وتقول ضاحكة :
— دعني اعلم من فضلك •

- لن ادعك •
- مع هذا كنت تغازل غيري عند السينما •
- كنت اتسلى •
- رتعترف ايضا ؟
- اني لاحس بلداتك خافقة ملء ذراعي •
- لاني اشعر وكأنك تمريني بيدك •
- كل عضو من جسدك ملكة بذاتها •
- أوه لا •• لاتلمس ثديي •
- أي سر في تكورهما وتوثبهما المعجزين ؟
- وما أدراني انا ؟
- أي سر في تكورك واتساقك ورحابتك •• وامتلاء اكتافك وساقيك وفخذيك وذراعيك ؟ وانبساطه بطنك مع انه رحيب •• وكأنك غير ممثلة ، مع أنك خير المرأة ممثلة رائعة ؟ أي سر في انبساطه بطنك هذه ؟ وهذا الوجه الجميل •• أي سر في شحوبه وغسقية وجتيه وحدهما ؟ وأي سر في امتلاء شفتيك ؟
- اوه •• قلت لاتلمس ثديي •
- أي سر في اشتعال وجتيك ؟
- ومن أين لي ان اعلم ؟
- واسرار شفتيك هذا •• أي سر وراءه ؟ وكأنهما مرسومتان رسما •
- قلت لادري • اوه •• أنت تدغدغني • سأضحك •
- حين اجتمعنا عند المائدة الصغيرة في البهو ، وكنت اقطع الرنجة الصغيرة ، واتذوقها متلذذا بعد جرعة فودكا •• سألتني :
- أي سر في انك تحب الرنجة ؟

— لأدري .

وكانت تعرف أنني افضل الخبز الاسود ، وقد جاءت بقطع منه . ورأتني أضع فوقه نقاطا من صلصة الخردل . فقالت متكلفة في احتفال ، وكأنها تسألني عن معضلة :

— أي سر في أنك تحب الخبز الاسود لا الابيض ؟

فيحت أكتهم ضحكة عالية . وكانت تتطلع الي متسائلة ، منتظرة . فلم اتمالك طويلا حتى ضحكت . فأسرعت تقول :

— انسيت ؟ ستصحو أومي وتطردنا .

ورأيت فوق التلفزيون مجلة فأردت ان اتصفحها . كانت مجلة « الشباب

التكنولوجي » وكان استاذي زخارجكو رئيس تحريرها . قالت :

— بالمناسبة .. قصيدتك اليوم في « الصحيفة الادبية » جميلة .. ولقد

أعجبت اصدقائي . بل سألت عنك اكثر من فتاة جميلة .

ثم غيرت نبرتها فجأة :

— أي سر في أنك تحب حساء اللهانة .. وليس الكرتب ؟

كنا نتظر الشتاء والثلوج . وكان غازي مبتلى بالحائط الاصم . كانت

زويا فتاة رائعة . وكانت تتفهم ظروفه ، وتصمت كليمة الفؤاد .. ولما أزل

أحب في غازي صفاءه وطيبته . غالبا ما أجد زويا عنده كلما زرته في الجامعة .

وكانت زويا تعد لنا الشاي . وكان غازي فرحا باكتشافه الجديد : أسياخ

الشي . لأدري أين عثر عليها . أهدي لي ثلاثة منها . فحملتها الى لينا .

قالت : هذه ستكون نافعة في رحلة با .. في الصيف عبر الضاحية . قلت :

لابأس من أن نهيء بها وجبة شرقية وكأنا في مطعم شواء .

وكنا نتظر العيد . والثلوج لم تتهاطل بعد . وكنت افكر بهدية لينا .

كان هذا في أمسية سبت . فطلبتها في التلفون . قالت أمها :

- لم تعد لنا بعد • أتود ان اقول لها شيئاً ؟
- أرجو ان تخبريها انني سأنتظرها ، في الساعة ، عند المترو قبالة
بهو الاعمدة •
- طيب • سأعرج على المقهى في الطابق الاول من الفندق • كان عبد الله
هناك • وكان غائب وآخرون • وسألي عبد الله مازحا :
- أراك انيقا •• أنت على موعد ؟
- وسألقاها بعد ساعة •
- أهى ممرضة أخرى ؟
- كنت أضحك متذكرا سخريته القديمة • وفي الساعة كنت عند مدخل
المترو • وجاءت لنا • قلت :
- سأشتري حاجة من الكوم • أمن الممكن ان تأتي معي ؟
- بالطبع • وهل اتركك تسير وحدك • انت غريب الأطوار فعلا •
- وفي المخزن وقفت عند واجهة الارضية النسوية ، فأدركت غرضي :
- فيم وقوفنا هنا ؟
- هذا الرداء الاخضر الداكن •• أترينه ؟
- بلى أراه •• ما به ؟
- سأأخذه لك •
- هل جنت ؟
- اجل • انا مجنون بك • وسأخذه •
- وما حاجتي له ؟
- رأيته مرة فأحببت ان ترتديه •
- أنت تعلم ان لدي الكثير من الثياب •
- مع هذا •

- تكفيني منك ، هدية ، قنينة عطر .
- بل سأهديك هذا الرداء .
- هذا اغلاها كلها . فيم هذا التبذير ؟
- أقسم بربي، ان لم تدخلني وتجريه .. سأفترق عنك هنا .
- طيب . سأخبر أُمي وتؤنّبك .
- كنت انتظرها عند البائعة . وعادت به لتلفه البائعة بالورقة العريضة .
- وخرجنا . وكانت لينا صامته . ومررنا ببائعة العطور ، فأخترت قنينة اعرف
- أنها تفضلها . ولم تقل شيئا . كانت تتأملني وكأنني أمزق نقودي وألقي بها
- في الرياح . لم تكن ليعوزها شيء من هذا . وخزانتها مكتظة باثوابها . وكانت
- ثرية جدا مقارنة بي . حين صرنا حيال فندق موسكو قلت :
- والان أرجو أن تتفضلي بالدخول .
- لا بأس . أريد ان احتسي قهوة . هنا يعدونها جيدا .
- وتركنا معطفينا عند الشيخ ذي اللحية الطويلة البيضاء الناحلة .. ووقفت
- تسرح شعرها الاشقر . وكانت ترمقني في المرايا غير مبتسمة لي . واتجهت
- صامته ناحية المقهى . قلت :
- سنشرب القهوة بعد العشاء في المطعم .
- فردت علي بهمس غاضب :
- قلت لك انني اختنق هناك .
- لكنك لم تختنقي حين كنا هنا لأول مرة . بل كنت مرحة .
- أنا لم ادخل الا لاشرب قهوة .
- ستعشى اولا .
- كانت ترتقي الدرج المرمري الاشهب مغمضة :
- أله اعلم اين سينتهي بنا جنونك هذه الليلة !

كنت أضحكاً وهي تتأفف غضبا . فالتفت الي وعيناها تتقدان شررا .
و كنت أزداد مرحا كلما ازدادت غيظا . كنت اعرف فادلة هناك . فحييتها
عن بعد . فأعذرت يديها عن انشغال ركنها كله . وأومأت لجارة لها ،
فأجلستنا عند مائدة خالية . وجاءت بالقائمة . ولم تخر لنا غير سلطة ونيذ
وعشاء وقهوة . وأضفت أنا الكفيار والفودكا والفاكهة . فقالت بعد أن ابتعدت
النادلة :

— هي تقودك وانت حر في اتفاقها .

قالتها متكلفة نبرة غير مكرثة . وعادت النادلة بزجاجة النبيذ الوردي ،
وبفودكا في اناء فاحل ذي عنق . ثم جاءت بالكافيار والزبدة والسلطة . وكان
الخبز على المائدة . كانت لنا تأخذ القطعة من الخبز الاسود ، وتغطيها ،
بسكينها ، بقليل من الزبدة ، وتنشر الكفيار فوقها . وتقدمها صامته لي .
وكانت ترتشف خمرتها ببط . قلت فجأة :

— هل سمعت بحكاية الراعي والجرة ؟

— كلا . ماهي حكايته ؟

— يحكى أن راعيا فقيرا كان متمددا في خيمته . وكانت جبرته الملاي
بالسمن معلقة فوق رأسه . فأخذ يحدث نفسه : غدا سأشتري بضمن الجرة
نعجة صغيرة . وستكبر النعجة وتلد لي نعاجا . وستكبر النعاج وتلد نعاجا
آخر . ولسوف تتكاثر .. وتجمع في ذهنه قطيع هائل يتعالى غباره وثقاؤه .
وفقد السيطرة عليه وهو يسوقه . فأراد أن يؤدب اكثرها تمردا . فرفع عصاه
عاليا ليهوي بها فوق ظهورها . فأصاب الجرة وحطمها . فسال السمن فوق
صدره ولحيته .

فأخذت تضحك متكئة أول الامر . ثم انطلقت ضاحكة بالرغم منها .
وكانت النادلة ترمق كتفيها الرجتين معجبة . وسريعا مانسينا أننا في شبه

خصام منذ قليل • ورحنا نتذكر عددا من حكايات كريلوف • قالت فجأة :

— هذه رقصة تعجبني • هلا تفضلت بمراقصتي ؟

— اتصدقين ، سي اسمع الموسيقى غافلا عنها قبل أن تسألي • • • وكأنما

هي تعزف في مكان بعيد آخر ؟

— لكن لنقم قبل أن تنتهي •

كان الرقص هادئا رخيا • وكنت الامل لدوتها وكأنني اعرفها لأول

مرة • وتشير بعينها أن اعقل كلما مست وجتها بشفتي • وكانت وجتها

في توهج متعظم •

كانت الثلوج تنحدر هشة ناعمة ، متطايرة في الرياح • وكنا سائرين في

غيرما عجل قاصدين ساحة مايكوفسكي • سركب الحافلة ٢٣ من هناك •

كان الشارع مرحا ، ضاحكا بعد السهر في المطاعم والمقاهي • وكانت تقول :

— من حسن حظك أنا سنجد أمني نائمة •

واندفعت تضحك بغتة :

— لكنها ستؤنبني اكثر حين تعلم بفعلتك الجنونية الغريبة • ليكن •

سأقول لها صباحا • سأحتمل شتائمها مادمت سأضحك من تهجمها عليك •

أأفوت فرصة مثل هذه ؟ بل سأذكر العشاء في المطعم وسخاءك مع النادلة •

— لن تضحكي • سأصرف مع الفجر •

— لكنها تصحو قبلنا • ولن ادعك تخرج قبل أن اخبرها •

— لا بأس • سأكون هادئا • لن انطق بحرف • كلا • بل سأؤنب نفسي

أشد تأنيب • سأقول اني في ضلال عظيم • • • حتى تغفر لي هذه الهدية

الاعتيادية •

— لن تقتنع • ستري •

وفتحنا الشقة في تكتم • قالت :

— سأدخل غرفتنا قبلك .

كانت تفضل ان تغير ثيابها بعيدا عن عيني . فانتظرت في البهو . وتبعها
بعد حين . كان بابها شبه مفتوح فدخلت .

كانت الثلوج تدور خفيفة عبر النافذة . والساعة تدنو من الثالثة ، ونحن
تحت الاغطية الزرقاء الوثيرة . وكان شعرها الاشقر الاثث فوق صدرها
فأزحته بيدي جانبا . وسألتها :

— أين سنحتفل ليلة العيد ؟

— ألدك اقتراح ؟

-- أرى ان نحتفل في مركبة فضاء .

— انا احبذ الارض . سيقم اصدقائي حفلا صغيرا . مارأيك ان
نشاركهم حفلهم ؟ سيهجم كثيرا ان تكون معهم .

— أنا افضل ان احتفل بين هذين الذراعين .

— هذا بعد الحفل .

— فاذا حصلت من الأستاذي على تذكرتين في سهرة « النورية » ؟

— انا لأحب هذه الامكنة . وانت تدري . أي شيء هذا لك غير

الصخب ؟

واحتفلنا عند اصدقائها .. في شقة صاحبة لها . كانت المائدة مقدسة
بالاطعمة والاشربة . والموسيقى تصدح بين حين وآخر . اجلسني صاحبة
الشقة جوارها لتغدق رعايتها علي . فأنضت لنا لاصدقائها مطمئة ، تاركة
أمري لصاحبها الطيبة الكريمة . وكنت أشعر ، أول الامر ، بشيء كالجدار
يفصلني عنهم .. عن الفتيات خاصة . كنت أحس بأجنبيتي بينهم . وبعد أقل
من خمس دقائق ، بعد أول نخب معهم زال ما بيننا من كل حجاز . وكانت
الفتيات أول من اقبل علي . كن يغمرني بألفة مباغته ومودة صافية . ورأيت

بينهن ثلاثا بلا اصدقاء وكانت اجملهن متبرجة كمثلة • ووجدتها تكاد تختص
بمراقبتي • وتذكرت تهامسها مع لينا منذ حين • فأدركت انها متفقتان • لم
تكن لينا لترقص الا نادرا • فأجبت أن تزيدني بهجة بصحبة شابة لا تكاد تتوقف
عن الرقص •

وسألتي فتاة منهن :

— أحقا انت تعرف زخارجنكو •

— انه استاذي •

— اذن كنت قادرا ان تحضر حفل « النورية » •

— لم تشأ لينا ان نذهب •

قالت المتبرجة :

— اتفطين بهذه السهرة الممتعة ؟ لو قلت في الاقل •

فأجابت لينا :

— سنحصل لك على تذكرة الى هناك • • ليلة رأس السنة •

— حقا ؟ أه لينا • كم أود ان اسهر معكما هناك !

— لكنني لا اسهر تلك الليلة في غير شقتي • يمكنك ان تذهبي معي • أنا

لا أريد أن احرمه بهجة الحفل هناك •

— كيف ؟ بدونك ؟

— سأقنعه • • ستريين •

قالت صاحبة الشقة ضاحكة :

— مازال الوقت مبكرا حتى رأس السنة •

فردت المتبرجة :

— لكنك لن تجدي تذكرة قبل الحفل بشهر •

— مع هذا

قالت لينا :

— أوكد لك انك ستحضرين السهرة معه • اطلباني •

— لكن كيف ؟

— اوه رايآ •• ما الفرق !

أكانت لينا جادة ؟ أهو اختبار آخر ؟ وانصرفنا في الواحدة تقريبا • اسم
ترد لينا أن تتأخر أكثر • انها تود ان نخرج صباحا لتجول • حيث الموسيقى
والرقص في الميادين العامة • غدا تمتليء الساحات الفسيحة بالوجوه المرحّة
المحتفلة ، وتعالى الموسيقى الراقصة ، وتعدو الساحة حفلا راقصا هائلا •
وكان بيننا ، في الشارع ، هذا الحوار :

— كنت تتحدثين عني وكأنتي غائب •

— أنا ؟ كيف ؟

— ألم تقولي انني سأصبح صديقتك الى السهرة ؟

— أكنت تريد أن تذهب وحدك ؟

— ومن قال انني سأذهب مادمت لا ترغبن ؟

— اتريد ان احرمك سرورا مثل هذا ؟ مادامت هي راغبة فلماذا تذهب

وحدك ؟ ولماذا سنفرط بذاكرة ثانية ؟ سنقدمها لصديقة ، ونبعث في نفسها

السرور • أبخل أن تسر صديقا ؟

— ماهذه هي بغيتك •

— فما هي بغيتي في رأيك ؟

— انت تريدين ان تعرفي هل امضي معها أم لا •

— وأي ضرر في ان تصحبها ؟ اليس صديقة لي ؟

— اسمعي لينا • أهنالك امرأة تترك صديقها لامرأة اخرى في رأس

اللسنة ؟

— وهذه هي الصداقة • انت لا تريد غير أحرابي • أنت تعتمد هذا
تعهدا • من السهل ان تحصل على تذكرتين وتذهب معها • غير انك لن تفعل
هذا الامر الهين الا لتحرجني • لالشيء الا لتحرجني • • ولا بدو كالحائشة
بالوعود • هذا ما تسعى اليه • هذا ما يزيدك فرحا •

— كيف اذهب مع امرأة غيرك وأسهر معها طوال الليل ؟

— وأية غرابة في هذا ؟ ستكون مع صديقة لي •

— أنت لاتقصدين هذا •

— أنا لاقصد شيئا غير أن ابعث السرور في نفس صديقة • انت تعرف

هذا • تعرفه جيدا • لكنك تعتمد اغاظتي •

— لي • • ارجو أن نكف عن جدلنا هنا • لن نزعج أمك بشيء •

— ومن قال انني سأجادل ؟ من قال انني سأتكلم معك ؟

— طيب • لن نتكلم •

— انتظن انني سأتكلم معك بعد ؟ انتظن انني سأقول لك كلمة واحدة ؟

لن انطق معك بحرف • لن اتحدث معك بعد هذا •

ودخلنا الشقة صامتين • واتجهت لامكث في البهو حتى تغير ثيابها • ولم

تقل كلمة حين لحقت بها بعد فترة • كانت جالسة فوق حافة السرير ، في ثوبها

الحريري السماوي عارية الذراعين • وكان شعرها المحلول متهدلا متلامعا ،

وجميلا في تشوشه • ونزعت ثيابي وتمددت تحت الاغطية • وطال صمتها

وجلوستها • وأنا أدري انها ستظل معاندة حتى الصباح أن لم أقنعها أنا لتنام •

كان ظهرها ناحيتي • فلمست ذراعها الممتليء البديع فأبعدته في هدوء •

— اسمعي • ينبغي أن تنامي مادمت راغبة بالنزهة صباحا •

فلم تتحرك أو تقل كلمة •

— لاتكوني غنيدة • ستفوتك جولة الصباح • سيكون الرقص غدا

ممتعا حافلا في الساحة •

واضفت بعد قليل :

— طيب • لا تقولي شيئا مادمت لا تريدين • انما تمددي ونامي •

وظلت جالسة ، مطرقة برأسها الجميل • فأمسكت بذراعها بلطف • •
فأبعدته عني ايضا • قلت ضاحكا •

— طيب • فامي في سريرك السفري • سترحب بك أمك كثيرا •

ونفضت لاقبلها • كنت أقبل وجهها وشعرها وذراعيها • فلانت بين
ذراعي • وبقيت الثمها حتى أذعنت وتمددت جوازي • لكنها اعطتني ظهرها •
فرحت اقبل اكفافها طويلا • وكدت أياس منها واعرض عنها حين اقبلت فجأة
علي • وبحركة واحدة منها كانت عارية بين يدي •

وشكوتها صباحا لامها :

— لينا تريد أن أسهر مع صديقة لها ليلة رأس السنة •

— اتصدق هذه الانانية ؟ انها تمثل • بالطبع تمثل • كيف تنظلي عليك
حيلها بعد هذا الزمن الطويل معها ؟

كانت لينا تصر :

— لم اكن اعني شيئا مما تظنان •

— بل تعنين • أنا اعرفك • منذ طفولتك كنت مأكرة •

ثم التفتت الي :

— اتدري ماذا يحل بها حين تتأخر عنها يوما ؟ تظل ساهمة ، شاردة

اليال ، قلقه ، مسرعة لاوهي طرقة على الباب أو رنة تلفون • يحسن بك ان
تصحب تلك الفتاة ، وتترك لينا وحيدة ، مهمومة هنا • بعدها • • ستفكر الف

مرة قبل أن تبكر حيلة اخرى لتوقع بك • لاتنس ان تعمل بنصيحتي

وسنضحك عاليا منها أنا وانت • سراها منقلبة الهيئة صباحا ، نادمة ندما

مريرا • سأكون مستنة لو تتيح لي مشهدا مثل هذا •
 - اقول لك الحق ؟ هذا 'مالا' استطيع أن اعدك به •
 - كيف ؟ ايصعب عليك ايذاؤها مرة في الاقل ؟ انت مخطي، في هذه
 النقطة • ستزيدها تدلا وتحايلا •
 أسرعت لينا قائلة :
 - اترين ؟ مهما تقولي فلن تدفعي به لان يقف ضدي •
 - وهذا مايحيرني منه •
 وذات ليلة ، وكنت انتظرها في العاشرة كما اعتدنا ، وكانت الريح باردة ،
 والسماء داكنة ، متجهة فوق المدينة الهائلة ، جاءني ببطاقة :
 - وصلتني هذه من كاتيا • وهي تحييك وتدعونا لنشاهد العرض الاول
 من فلمها الثاني ، باعة بتذكرتين •
 - أظن ان من اللائق أن نذهب •
 فأتستع عيناها بنظرة متفكرة • كانت تنتظر اعتراضا مني اتلح علي حتي
 أتقبل الدعوة • ولم تقل لامها أي شيء • وانطلقنا بعد يومين • وكانت كاتيا
 تنتظرنا عند مدخل المترو • كانت مرحة ، تتعبد بالتلف معي ، وكأن شيئا لم
 يكن • غير أنني كنت أرى في عينيها تساؤلا خفيا • وتركنا لينا لتقرأ لوحة
 تعلن عن عروض مسرحية • قالت كاتيا : ولم تعد متكلفة :
 - كيف حالك ؟
 - بخير • وانت ؟
 - كما ترى • أحب ان اتزلج معك ، مرة ، هذا الشتاء • ارجو ان
 تنباني حين ترمعان • انني اعتد عليك •
 وغيّرت من نبرتها ، فجأة ، وعادت مرحة ، متلطفة • وكان دورها صحفية
 هذه المرة • وكل ما تذكره انها كانت كالدمية بين التلاحات ، متلطفة الوجه
 بالاصباغ • كانت تمسك بيدي هامسة :

— اترى كيف فعلوا بسحتي ؟

وتخلفت كاتيا مع اصدقاءها • وعدنا وحدنا في المترو • وكنت واقفا •
كانت لينا جالسة ، واجمة • كانت جميلة ، في شحوبها واشتعال وجنتيها ،
جمالا غريبا أخاذا • وكان وجهها نقياً وكأنها في العشرين ، مع انها في الثالثة
والثلاثين تقريبا • كان خداهما منخسفين قليلا ، ووجنتاهما بلون البنفسج • وفي
الحافلة كنا جالسين معا :

— فيم تفكرين ؟

— بلا شيء • ينبغي أن ترتدي معطفك الثقيل • نحن في الشتاء •

— اتدريين ماذا قالت كاتيا عندما تركتنا وحدنا ؟

— ولماذا تخبرني ؟

— اسمعي • انها تريد ان تتصل بها حين تنوي التزلج •

— كنت اعلم انها تحب ان تقول لك شيئا • ولهذا ابتعدت • كنت

سأخبرها برحلة التزلج لو انها سألتني • أما ان تطلب هذا منك منفردة بك ••

فلا • وما اظنها راغبة بالتزلج معنا • ان قصدها هو ان تتلفن لها فتلتقي بك •

لن تنسى يوما أنك اعرضت عنها رغبة بي •

واوقفتني قائلة في الزقاق :

— دعني انظر في عينيك •

— اتسكين ؟

— كلا • انت لاتحبها •

— انت تعرفين من أحب •

— متى تنتهي غدا ندوة الثلاثاء ؟

— لن احضرها •

لماذا ؟

— سيقراً علينا احدهم ملحمة ثقيلة •
— لا يصح أن تتأخر عن قراءة زميل •
— ليس من زملائي • انه شاعر ضيف لأعرفه ولم أره •
— طيب • انا مجازة غدا • واحب ان نخرج معا صباحا • أريد ان أزور
معك متحف الفن الروسي • أنا لم ادخل متحفا منذ زمن بعيد •
وكنا ننتظر الثلوج ورأس السنة • لن تحلو ، في اعيننا ، ليلة رأس السنة
بلا عاصفة ثلجية تكوم الثلج تلالا في كل مكان • وكان الثلج يتساقط خفيفا
بين فترة وأخرى • وقبل حلول العيد بيومين جاءت الثلوج متكاثفة ، مغطية
كل شيء ، متجمعة اكواما عالية •

وفي ليلة رأس السنة كانت لنا مشغلة في تهيئة الزينة والمائدة • كان
علي أن اصل في الثامنة • وكنا ننتظر ضيوفا من اصدقائها • وكنت قد حصلت
على تذكرتين لصاحبتهما المتبرجة •• لتحضر الحفل الشهير مع زميلة لها من
صبايا السهرة السابقة • كانت الثلوج تتكوم فوق ناصية الطريق ، متلاوية
متهاوية في الرياح • وكنت منطلقا اليها ، حاملا في لفة ورقية ، شالا أزرق
فاتحا ، مخرما كما تحب ، ومنديلا مولدافيا أهدب ، حرته وصفرته
ساطعتان •• شأن اغطية الرأس القروية •

كانت لنا في ثوبها الاخضر الداكن ، معقوصة الشعر من وراء • كان
جمالها مشرقا ، وشفتها السفلى مثقلة كالثمرة الدانية • ودخلت غرفتها
لاضع هديتي فوق فراشها • وفي الركن من البهو كانت شجرة الشربين
الصغيرة تعبق برائحة الغابة الروسية • وكانت أمها في المطبخ • فحيثما قائلنا :

— ماكان ينبغي أن نرهبك باحتفالنا هنا •
— وأين نكتما تريدان ان تحتفلا ؟ في المطعم ؟
وعدت لاقول لينا :

— قيم هذه القناني كلها ؟

— كيف ؟ ان لدينا ضيوفا • وسيمر غيرهم عابرين •

— طيب • غير انني افتقد شيئا •

— ماهو ؟

— أود ان تحزري انت هذه المرة •

— أهو في الاطعمة •

— أجل •

— آ • • الرنجة • سأتي بها حالا •

كانت هديتها لي مجلدا قديما مازلت احتفظ به : أعمال الكساند بلوك

في طبعة نادرة • وكان ابتهاجي كبيرا به • قلت :

— أين وجدته ؟

— كان هذا هدية من معلمة الادب • • يوم كنت في المتوسطة • وكان

قديما نادرا آنذاك ايضا • فأجبت ان اقدمه لك • ستجد فيه صورة لي ،

صورة تلميذة في المتوسطة • كنت الاولى في صفي •

— انت دوما أولى • • في الجمال والتزلج •

كنت أقول هذا متسللا قسماتها ، وفي صوتي رنة هذيان • فرأت روعتها

كلها في نظرتي ، فأتستع عيناها عجبا وسرورا • وابتسمت لي • ثم أطرقت

برأسها البديع قائلة ، وكان صوتها خافتا :

— وصلتي بطاقة تهنئة من كاتيا •

— كاتيا ايضا !

— ألم تصلك بطاقة منها ؟

— كلا •

جاءت أولا صديقة لنا وزوجها • • صاحبا لشقة حيث احتفلنا تلك

الليلة • وبعد ساعة حضر آخران لاعرفهما • ولم يكن لالتذوق شيئا غير
الرنجة • فزادهم هذا مرحا ، وهم يروني مقبلا عليها دون غيرها من الاطعمة
الشهية العديدة • وكنا نقترح فحبا بعد آخر • وقامت لنا لترد على التلفون •
وعادت وفي وجهها وجوم • وسريعا ما استرجعت مرحها ، رافعة كأسها بنخب •
كنا ننتظر الساعة الثانية عشرة لنطفيء الضوء • وفي العتمة اخذت شفتها
السفلى الممتلئة لاقبلها • لم تكن لنا لتشرب الا قليلا • فجعلت أعاندها متجرعا
مزيدا من الفودكا • ولم تكن لتعرض • أية فكرة في ذهنها تدور ؟ وحين دق
الجرس رجتي ان افتح الباب • كانت الطارقة هي كاتيا مع زميلة لها •

كانت لنا محتفية بهما احتفاء عظيما • ولم تكن لتمثل كما بدا لي • أذن
هي كاتيا • كانت هي المتحدث في التلفون قبل ساعة • قالت كاتيا :
— كنا محتفلين في المعهد • واحبنا أن نهنئكم وننادمكم ساعة •
قالت لنا مرحة :

— ليتك تعلمين كم أنا فرحة بحضوركما !
كان المرح متزايدا • وكنا جميعا نرقص عدا لنا • وكنا نطلبها فتعذر •
فأخذت يديها لاراقصها • فأقلعت ضاحكة • وتبعتها الى المطبخ :
— اسمعي لنا • ماذا تقولين في زيارة كاتيا ؟
— ليس لدي ما أقوله •
— أهذا رأيك حقا ؟

— اوه •• اذهب وكن لطيفا معهما • سأعود بعد قليل • ألم تر أنهما
شبه شلتي ؟ كاتيا لاتسعى لشيء آخر غير ان ترح • اذهب وارقص معها ومع
زميلتها • أنا اطلب هذا منك •
وسألتنني كاتيا :

— أين لنا ؟ أن لنا ان نصرف •

— مازال الليل في أوله •

— كلا • لأريد ان اتأخر فأسكر •

ولم تكن صاحبها لتفعل شيئا غير ان تبتسم • ولم اسمعها متفوهة
بكلمة ما • واقبلت لينا ورجتها أن تبقيا • ولم نعد نشرب تقريبا • كنا نرقص
أو نتحدث وقوفا • ورأت الفتاتان أن تخرجا • وكان علي أن اوصلهما حتى
التكسي • ونهض الاخرون ايضا • قالت لينا :

— اكلكم تنصرفون مرة واحدة ؟

— سنحيي اصدقاء آخرين •

— طيب • سأخرج معكم لامر على صديقة في المبنى المجاور •

واتجهنا ناحية الشارع • وعند اول منعطف رأيت لينا تصافح اصدقاءها •
كانوا يتبادلون التهاني باصوات مرحة ، تتعالى في السكون الليلي الابيض •
وكان الشجر مجللا بالثلوج الصافية • وأوضحت لي لينا أين تقطن جارتها
لاعرج عليها :

— لن تتركهما حتى تركبا •

بعد الثلوج الغزيرة لم تعد الريح لاذعة • كان الجو مواليا لنزهة طويلة
في الطرقات البيض الصامته • وأثار اقداما تتقاطر من ورائنا واضحة متناثرة •
وكانت كاتيا متعلقة بذراعي هامة :

— أين كنت في هذه الفترة كلها ؟

— وأين كنت انت ؟

— انت تنسى سريعا • فعلا لم اكن متوقعة •

— وأنا ايضا •

— كيف ؟ أنت تعرف أين اسكن • أم انك نسيت هذا ايضا ؟

— وهل يُسى المرء فتاة رائعة مثلك ؟

— لكنك نسيت •

— كلا كاتيا • أنا لم أنس شيئا •

— انت فتى لا يعتمد عليه • سريعا ماتتخلي • غير انك لطيف مع هذا ••

حين تريد أن تكون • كنت ضجرة جدا في حفلنا • أجل كنت سئمة • غير ان الامر عندكم يختلف • شد ما كنت ضجرة هناك •• فرأيت أن ازوركهم • لاشيء يهمهم مني غير جسدي • لاشيء غير السرير • أما انت فأنتسان آخر • أنت تحب لا للجسد وحده •• حين تحب • انهم لمضجرون فعلا • فيم هذا التهافت كله ؟ انا انتظر تلفونا منك • ليتك تعلم كم أنا سئمة ! بالطبع هم السبب • أنا أعني هذه الزمرة المتملقة الزائفة • لاشيء غير هذا الجسد • وكأنما الحياة ليست الا شراشف • اغبياء هم حقا ! أليسوا اغبياء ؟ وحمقى تافهون ايضا • فيم هذا كله ؟ فيم هذا البهرج وهذه الدناءة ؟ أنا انتظر تلفونا منك لتتزلج • اتذكر صبيحة الاحد في الضاحية ؟ أنا ابغضهم • بل احتقرهم •• لانهم حمقى • معك انت أحس بارتياح ، أحس بقلبي ينبض حبا • لكم توسلوا بي اليوم لاناام معهم ! لاشيء غير هذه الرغبة المبتذلة • لانهم اغبياء • بالطبع اغبياء • فعلا كنت أود ان اتزره معك طويلا هذه الليلة •• حتى الفجر في هذا الطقس البديع • لكنني مرهقة جدا • فلقد شربت كثيرا • وهم السبب بالطبع • أضجروني بتزلفهم فأخذت أشرب • جميل منك ان توصلنا • لكن أين هو التكسي • اغبياء •• بالطبع اغبياء • لاتنس ان تتلفن لي • ليتك تعلم أي ملل كنت أعاني في هذه الليلة هناك ! لا بد من ان تتلفن لي • لو كنت ادري لما شربت •

اخيرا اوقفنا تكسيا فركبتا • وعدت • تلك كانت شقة الصديقة الناصحة • وكان مرحهم في أوجه • فأصروا أن أتناول كأسا ثانية قبل ان نخرج • ووجدت لنا مبهجة جدا • وكانت تبسم لي • ولقد سرها ان أجد

صحابها متمعين • أيهمها أن يروني اصفر منها ؟ هذا ماخيل لي ساعتها باديا في
ابتسامتها وزهو جبينها النقي • وحوالي الرابعة أردنا أن نودعهم • فألحوا
أن نشرب ايضا • فأقترحت لينا ان يكون هذا آخر نخب معهم • ولم أكن
لاعرف أيا منهم من قبل • انهم لجماعة ظريفة ، طيبة • وكان السكر بينا على
بعضهم • وحين احتوانا الليل ، والثلوج تنهاوى رذاذا يابسا مائلا ، أحببت
لينا أن تتجول قليلا • كانت الاشجار في ارديتها الناصعة ، والجو ملائما
بالرغم من الساعة المتأخرة • كانت النوافذ مضاءة هنا أو هناك • وفي الطريق
مجموعة من الشباب تعود متأخرة • فحيثنا فتاة منهم بتحية العام الجديد
هاتفة ، ضاحكة • كان بعضهم حاسر الرأس ، وبعضهم يتغنى • وكنت احتضن
لينا واقبلها ، تحت الثلوج ، فتزلق مني متدلة •

ثم فتحنا باب الشقة في تكتم • لم تزل المائدة مثقلة • فجلست • واخذت
لينا تضحك • فأشرت باصبعي مذكرا بأمرها النائسة • قالت :

— لكن فيم جلوسك ؟

— اريد أن اشرب قدحا وأكل شيئا •

— طيب • كل ماتشاء ولا تشرب الا قدحا واحدا • سأغير ثيابي

وأعود •

وعادت في ثوب لم أرها فيه من قبل • كان شعرها الاشقر الكثيف
محلولا ، ممشطا • وكان جمالها الجسدي يتأود خافقا ، مرتجفا تحت الحرير
المنسدل • فبهت • ورحت أتأملها متأججا •

— ما بك ؟ ألم ترني من قبل ؟

— هوذا الجمال المتجدد •• كما قال الشاعر النواصي •

— لكنني نعتى وانت تشرب •

— وأنا الآخر يقتلني النعاس •

ونفضت لاقبلها • كانت الاغطية جديدة تلك الليلة ، وأية ليلة ! فتكومت

مهيلة ، تحت اقدامنا ، بعد حين • ونهضنا من نومنا ساعة الغداء •
وفرغت ، مرة ، من عشائي في مطعم الحي • وخرجت أسير تحت
الثلوج المتهاطلة حيث • وكانت الرياح تهب رخية حينا ، قوية حينا آخر •
وفوق هذه الرمال الثلجية المنبسطة هنا ، والتموجة هناك •• تلوح أثار
اقدام ندية سريعا ماتغمرها الثلوج • كان البياض الوثير يغطي كل شيء •
واعالي العمارات ضائعة في القبة البخارية الداخنة البيضاء • والليل أبيض •
وعند الناصية من الطريق رأيت صبية واقفة ، ملتفة بفرائها الاحمر
الداكن وعيناها تشعان زرقة ندية ناعمة • فأقتربت منها محببا • فأخبرتني
انها تنتظر احدهم منذ ثلث ساعة • ولقد بدا لها أنه متعمد في تغيبه وتهربه
منها • فأتفقنا أن نتجول معا في هذا الكون الثلجي الراقص المتطاير • وكان
البرد يشتد لذعا ، ويداي في قفازهما توشكان أن تتجمدا • فعلمتني كيف
ادفئهما • فأخذت حفنة من هثيم الثلج المتكوم ، وعصرته بين راحتي
اعتصاما • ثم رميته وادخلت يدي ، ثانية ، في القفاز •

كنت اطوقها فتضحك ، واسترق القبلات من وجنتها المتوقدة • كنت
أحب أن الهو ساعة معها •• عبر هذا الستار الكثيف من الثلج • ودفع بنا
البرد الرهيب لان نسرع الخطى ، لان نركض ركضا • وفتحنا أول باب
خشبي ثقيل • باب عمارة ما • ووقفنا عند الدفاعة الكبيرة في المدخل منه •
كانت الانابيب الغليظة ساخنة • فشرنا أيدينا فوقها • ثم خرجنا الى
الشارع ، حيث تتراكم الثلوج كالتلال الرملية في البرية البيضاء • والرياح
القوية الغاضبة تطير بهثيمها • وفي الشارع تسر الحافلات خافقة صافرة في
البواء الصفيحي الأبيض •

كنا نحس بالثلوج ، تحت اقدامنا ، هشة ناعمة اول الامر • ثم اخذت
تتصلب • ولم يعد بوسعنا البقاء في الشارع ، في الصقيع المتعاطم • وكان بيتها

- يا • فأوصلتها حتى باب • واتفقنا على لقاء •
- غدا في الساعة مساء عند هذا المنعطف •
- وانطلقت شبه مهلول • ماعلي الا ان اعبّر الشارع المتدثر بالثلوج لاصل •
- فأبتدرتني المناوبة لائمة :
- أين كنت ؟ انتزه والصقيع في الساعة والثلاثين تحت الصفر ؟ كيف ؟
- ألم تخف أن تتجمد ؟
- كان هذا نبأ جديدا علي • وأنا ؟ اكنت جادا في مواعي مع الفتاة ؟ ولعلها
- هي الاخرى ، فتاة الثلوج المتوردة ، لم تكن جادة • فلقد كتبنا موعدا فوق
- الثلوج ، وستذهب به الثلوج والرياح في منتصف الليل •
- وطلبت لي في التلفون •
- أهذا انت ؟ كنت سأصل بك بعد قليل • اسمع • ابق في غرفتك •
- لا تخرج • ان في الشارع بردا رهيبا لا يحتمل • كنت افكر بك •
- سأجيك في العاشرة •
- في هذا الصقيع اللعين ؟ كلا •
- بل سأجيء •
- كلا • سأزورك أنا •
- لكن لماذا ؟ ماهي الاخطوات • وسأشرب قدح فودكا •
- مادمت مصرا • هات كتبك وتعال الان • تدثر جيدا • وان كنت
- افضل أن تبقى في غرفتك • اسمع • لا تنتظر حتى العاشرة • سيكون البرد
- مقيتا عند ذلك • ارتد كل ماتستطيع أن ترتدي وتعال حالا • ماكنت لاقبل أن
- تجيء • لكنك عنيد •
- وفي الطريق كنت أغد الخطى بأسرع ما يمكنني • وحيدت معطني الثقيل •
- بل كنت أحسه خفيفا • ولكم ضقت ذرعا به من قبل • ولقد أعانني قدح

الفودكا اعانة بيته • أطلقت أم لنا ضحكة حين رأته :

— أفى مثل هذا الصقيع ؟ أمور • أمور !

و كنت أقبل لنا هامسا :

— أتريدن أن انزوي بعيدا عنك في هذه الليلة القطيئة ؟

— لكنني كنت سأسرع اليك •

وجلس في البهو لاقرا • ثم جاءت لنا قائلة :

— دع كتابك الان • ستقرأ بعد العشاء •

— لقد تعشيت •

— أين ؟

— في المطعم • لم اكن ادري أنني سأتي مبكرا •

— طيب • سأعد الشاي بعد قليل •

— مارأيك في زيارتنا غدا مساء ؟

— أديكم حفل في المنزل ؟

— كلا • أعني ان تمرى علي في المعهد •

— وأي جديد هناك ؟

— ستشاهدن معرضا فنيا رائعا • معرض نيتز فيستي • هو معرض

خاص بالرمادية عند دستوينفسكي • لالون غير الرمادي الخابي • وسيتحدث

الفنان عن تجربته الفريدة • هذه لوحات لاتشاهد الا في مرسه •

— بالطبع سأجيء • ومن أتاح له هذه الفرصة ؟

— زخارجنكو •

وجاءت بالشاي بعد العشاء • كانت جالسة قريبا مني • فأحطت ظهرها

بذراعي • فأقفلت ضاحكة :

— لن تقرأ جيدا هكذا •

— سأقرأ .

— كلا . سأجلس قبالتك وأحولك .

ورأيت الارمتياج لأول مرة . كانت ندوتنا في رحلة الى لينينغراد . وفي محطة موسكو كان الصباح ضبابيا كايما ، غامرا زرقة المدينة الرمادية واقنيتها وجسورها . وفي اول الليل قرأنا أشعارنا في التلفزيون . وكان النهار جولة طويلة . دخلنا قلعة بتروبافلوفسكي حيث أوقف دستويفسكي وسجن جيرنشيفسكي . وابصرنا بنافذة الغرفة حيث شق يسيتين نفسه في الفندق . وزرنا غرفة راسكولنيكوف الضيقة : يحتل نصفها عمود حجري تراجيدي ثقيل ، وشقة المراية حيث ارتكب جريمته . وفي الارمتياج كنت أتجول من قاعة الى قاعة . وفي الليل ، في الساحات المتدثرة بالثلج والضباب ، خيل لي أنني أرى طيفا هزيلا مرتمشا : أكاكي أكافيغ في معطفه المهلهل تتناهبه الرياح .

كانت الاشجار خيوطا ناحلة سوداء ، مجللة بالثلوج . والزوبعة الثلجية تتأوى في طريقي الى مطعم الحي أو شقة لنا . وغالبا ماتداهمنا في نزهتنا الليلية ، نابحة ، مدومة تهيل في وجهنا هشيم الثلج المتطاير . احيانا يمر علي أندريه ، الشاعر الحزين . فأعد لنا الشاي . وأصغي اليه وهو يقص اخبارا طريفة عن بوشكين وبلوك واخमतوفا . عن شعراء اتتحروا أو هلكوا اوائل القرن ، وآخرين مابرحوا أحياء هرمين ، منعزلين في الزوايا من الادب والحياة . والثلوج تدور .

وبعد الحادية عشرة من ليلة الاحد ، كنت أعود مع لنا في الحافلة . كان يهمننا أن ندخل المسرح حيث الراقصة الاولى مايا بليستيسكايا في الباليت ، وساينا في الاوبرا . بعد ذاك كان سهرنا في فراشها . وحين تظلم تلف نفسها بالشرشف وتنهض . لم تكن تحب ان تظهر عارية الا بين يدي وفي فراشها .

وتعود لتمدد قربي • فأقبل وجهها وذراعيها وتديها • واشدها ثانية الي •
فتقول هامة متأوهة :

— هذا انت ايضا ! هذا أقصى ماأتمنى •

وتمرغ وجهها بصدري • وحين نهذاً كانت تضم وجهها عندي ، ساكنة •
وفي انفعالها الدافق تقبلي هامة بألد التعابير وارقها • كانت تمنحني عريها
برحابته كلها مادامت بين يدي • وحين تثيق من سكرتنا تسحب الغطاء في
هدوء فوق جسدنا • فأظل أشمها واتلمسها لاعود اليها ، فتهمس متضرعة ،
وفي صوتها أهة ، وفي عينيها ذبول :

— أتريد ايضا ؟ دعنا نسترح قليلا •

كنا نسمع الزوبعة الثلجية تنتهب السطوح والطرقات • وفراشنا دافيء
وثير • وكنت امسح بشفتي جبات العرق عن وجهها الجميل ، الاخذ
بالاحمرار • وأحس بالندادة الخفيفة في شعرها الاشقر الفزير المتشوش •
وكان صدرها الرائع الرقيب ينكشف لضوء المصباح الخافت .. فألثمه :

— لينا .. أي جمال غريب في وجهك وجسدك !

— هذا لانني أحبك • ولانني أحس بالبهجة العظيمة حين أراك معي ..
في فراشنا وفي ايما مكان آخر •

— حتى في هذه الزوبعة الثلجية ؟

— وفي قلبها الابيض •

— مارأيك أن نقيم عرسنا في مهب الزوبعة ؟

— كلا • ستجمد بردا • مارأيك أن تتزلج غدا ، وتتغدى في مطعم

الضاحية ؟ سترى الغابة بديعة مدهشة •

— وتتبع أثار الثعالب والارانب •

— ولربما لن نجد أثرا • لانها نادرا ماتزور هذه الامكنة •

ثم تقول مصيخة سمعها ؟

— ابروئك صغير الزوبعة الثلجية ؟ انها تئن وتنتحب وتقهقه .. انها

تنوح وتضحك . اتسمعها ؟

— ماأجمل أن اسمعها وانت بين ذراعي !

— انها تبكي للحزاني المتوحدين .. لمن ينام وحيدا في هذه الليلة .

وتضحك للاحبة المتعاقين .. للاحبة في اسرتهم الدافئة الضاحكة .

— أهى شقراء زرقاء العينين ؟

— كلا يا عيني السوداوين . هي باردة ، باردة جدا . ويخالها المتجمد

في العراء فراشا مريحا . فأذا أغمض عينيه ، مرة ، وكف عن الحركة .. لن

يفيق بعدها . اتسمع خيلها الصاهلة ، المندفعة في جنون ؟

— كنت اسمعها صغيرا ناحلا فوق السطوح . وتندق علي النافذة ،

فأتذكر لوسي جراي : طفلة وردزورث الضائعة في سهوب العاصفة الثلجية .

خرجت بقنديلها لتضيء الطريق لامها العائدة من المدينة . فضلت دربهـا

تائهة وحيدة . وظل الوالدان يتادبان في كل مكان . وفي الصباح وجدا

أثارها منتهية عند الجسر الخشبي المنهدم .

— هذه اغنية كئيبة . اكنت وحيدا تلك الليلة ؟

— كنت وحيدا وحدة النار المنطفيء في ليلة البحر العاصفة .

— وأين كنت أنا عنك ؟ لو كنت أعلم لطرقت بابكم على المناوبة ،

وايقظتها لتقودني اليك . لكنك لن تكون وحيدا بعد الآن .

وقصصت عليها قصة أحمد القفقاسي ، وصعوده فوق سلم الاطفاء في

منتصف الليل . فأخذت تضحك ممسكة بذراعي . وكانت الثلوج تنهمر ،

والزوبعة تنأى شاكية ، لتعود قوية متلاطمة . وتكلفت لنا الانتباه قائلة :

— اتسمع طرقا على نافذتنا ؟

— لا اقلنه أحمد .

— فمن تظن ؟

— هذه وحدتي القديمة تطرق عليك .

— طيب . لن ادعها تنتظر . سأفتح لها .

— كلا . لا تفتحي . انها تستطيع أن تسلل . انها آتية . هاهي ذي .

ها هي وحدتي المتشوقة كلها تضحك وتقبلك .

— ماذا تفعل ؟ أوه كلا . فيما بعد . انتظر . قلت لك فيما بعد . انك

تؤلني . كلا . ليس كثيرا . بل هو ألم لطيف . انت تعرف كيف . . انما

يهلوء . هكذا . هكذا يا عيني الوحيدتين . اوه . . هكذا . . هكذا .

وفي اول يوم من العطلة الصغيرة ، وكنا في سينما اريول ، فأجأتها

بخمسة تذاكر الى المسرح . فأمسكت بيدي قائلة :

— لكن هذا كثير . هذا يعني اننا سندخل المسرح كل يوم تقريبا طوال

عطلتك . كيف حصلت على هذه التذاكر كلها ؟

— انسيت صديقتي بائعة التذاكر ؟

— ماألطفها ! ابسن وبرناردشو واوسكار وايلد !

— وروزف وبغودين !

— سيكون اسبوعا مسرحيا حافلا !

كنت أقرأ طوال النهار . واتعدى في مطعم الحي مع قدح بيرة . واعود

لاقرأ حتى السادسة . واخرج لانتظرها عند ناصية الشارع . وحين أقضي

النهار في مكتبة الاداب الاجنبية . . كنت اترقبها في الساعة الا ربعا عند

المسرح . أو اجدها منتظرة جوار المدخل . . أو في المدخل نفسه ، متأملة

صورا من المسرحية معلقة فوق لوحة . وحين نرتقي الدرج المرمري يعجبها

ان تأخذ بذراعي . كان يسرها ان ترى الآخرين ناظرين الينا باهتمام ورضا .

ووصلتني مكافأة جيدة عن قصيدة لي ترجمها صديق اوزبكي • فأر
أن نسهر في مطعم • فانطلقت تتهكم ، متخذة نبرة امها :
— أين عقلك ؟ أنتفق مالك على النساء ؟

ولم تشأ ان تتعشى في المطعم • بل أصرت ان انتظرها قرب مطعم
صغير قبالة مترو ايسمايلوفسكي ، حيث تعمل على مقربة منه • • • • •
تتغدى كل يوم عدا عطلة الاحد • كان هذا نكايه بي • ومضيت لاقف
هناك • ورأيتها قادمة بين صاحباتها • وكن بلا معاطف ، في روب العس
الازرق وحده • • • وحاسرات الرؤوس في البرد القارس • وكن يغذذن الخطى
ضاحكات تحت الثلوج المتهاطلة • ولم تدعني ادفع • كانت تقول مبتهجة
بي :

— أنا اتغدى هنا كل يوم • هذا مطعمي •
واحطن بي ، عند المائدة ، فرحات • وجعلن من رحلتي الطويلة هذه
فكاهة يتندرن بها ضاحكات :
— هكذا اذن • جئت تقطع هذه المسافة كلها مرغما •
— بل سأجيء غدا وبعد غد • هذا مطعم ممتاز • وسأجيء كل ثلاثة •
أين اجد مثل هذه السلانكا • • • وهذا الفينكريت ؟
قالت لينا ضاحكة :

— أظن انك ، بقولك هذا ، ستحرمني من ان ابتهج بتغلي على رغبتك
المكينة ، رغبة التسكع في المطاعم الفاخرة ؟ يكفي ان اتصور ركوبك الحافلة
والمترو ، ووقوفك ، هنا ، في الصقيع • • • تنتظرني من اجل غداء في مطعم
صغير •

— بل فعلت خيرا • فلقد اكتشفت مطعما جيدا •
قالت رايا ، وكانت اكثرهن تهكما :

- في هذه الحالة ستكون هي الرابعة •
 — كيف ؟
 — سيتوجب عليك ان تدفع عنها كلما جئت •
 فأزداد مرحهن • قالت لينا مازحة :
 — ارأيت ؟ سأتعدى مجانا كل يوم •
 قالت رايا :
 — سرى كيف تلتزم بوعدك •
 — سأجيء • وسترين •
 — وكل ثلاثاء ؟
 فأعترضت لينا :
 — ولماذا نرهقه ؟ يكفي ان يجيء غدا • • وحتى تنتهي عطلة •
 — ومن أجبره ان يعد ويصر ايضا ؟
 ووجدتها رحلة شاقة في اليوم التالي • كانت الريح لاذعة ، وكنت واقفا ، منتظرا مقدمهن • واقبلن تحت قبة الممر الثقيلة • ورأيتني فأخذن بالضحك والتندر • وهتفت لينا لائسة :
 — ألم اقل لك لاتأت ؟ فيم هذا العناد ؟
 كانت رائحة المطعم شهية ، طيبة • وكان دافئا جدا بعد انتظار في مهب الريح القارسة • وكان حساء البورتش ممتعا ، بمذاق البنجر والكرنب واللحم • غير انني كنت افكر بعودتي وحيدا • وكانت رايا المتبرجة فرحة بمحتني مع الصقيع والطريق • وقالت لينا ، وقد سرها أن اتعدى معهن :
 — اتقطع هذه الطريق كلها من أجل حساء ؟
 — أو ليس اكتشافا ان اجد مطعما كهذا ؟
 وترد رايا متهمكة :

— ولا اكتشاف كولومبس !

وكنت راجعا مساء ، مرة ، الى البيت • فوجدت ورقة بأسمي :

« سامر عليك في السابعة • انتظري •

لينا »

موعدنا اليوم في العاشرة .. فاي جديد ؟ وخرجت في السابعة لانتظر •

كانت لينا واقفة ، في فرائها ، تبسم لي :

— اردت اخبارك قبل يومين • غير انني لم أشأ ان أزعجك • سأغيب

عناك عشرين يوما ، وربما تزيد • لا تكتب • لم استطع اعتذارا • هذا أمر •

— أهى مهمة عمل ؟

— أجل • سأسافر في بعثة عمل عبر الاورال • اوه .. قلت لانتجهم

سأكتب اليك يوميا •

— ومتى تسافرين ؟

— غدا •

— غدا ؟

— أجل • ولهذا جئت في السابعة • أوصيت صاحباتي بك • يمكنك أن

تلتقي بهن وتزورهن • وستصحبك رايا الى السينما • اترى كيف أهتم بك ؟

والان اريد أن نقضي أمسية رائعة • أين تقترح أين نذهب ؟

— الى ذلك المطعم .. مطعم الحي •

فأخذت تضحك ضحكا خافتا :

— كلا • لن اعانداك هذه المرة • اختر أي مطعم تحب •

— بل اقترحي انت •

— كلا • انت من يقترح • لانك ستكون ضيفي •

— أهو مزاح جديد ؟

— ألن تتيح لي إن ابتهج ، مرة ، بدعوتك ؟ بالطبع ستيح لي ..
مادمت راحلة غدا . لنمض . وسركب التوكسي ايضا . اترى كيف أدلك ؟
قلت لاتحزن .. أنس الامر . ودعنا نمرح . وفكر أين سنسهر .

واتتحينا ركنا في الملطم الجيورجي . وجملت لنا تكلف المرح تكلفا
باديا . كانت غائمة العينين وهي تتطلع الي . فأخذت بالتسرية عنها حتى
انجلي الغم عن وجهها . وكنا نرتشف خمرة وردية رائقة . وكنا نحس بمذاقها
حامزا قليلا . وخرجنا ، بعدها ، تحت الثلج المتراقص حثيثا .

كان الليل يعتم مبكرا . وفي الحافلة الممتلئة الخافقة .. كنت أعاني
كأبة ووحدة ، والوحشة تكتنفي في الطريق . وعلى جدار غرفتي أرى لنا
تبتسم لي تحت شجرة المشمش المنعزلة . وعدت أمر على جيلي وجون متأخرا
لشرب الشاي . ووحيدا كنت اذرع الرصيف الى السينما لاعود وحيدا
بين العشرات . وكنت أعلل النفس بعودة لنا وضحكها الصافية ، ونظرتها
الباسمة الساخرة . واتذكرها في ثوبها الطويل المنكشف عن الذراعين
البديعين فأحن .

كان اليوم هو السبت . أي أسى أن تسير وحيدا في أمسية السبت !
كان شارع غوركي يعج بالفتيات . والصفوف طويلة عند مداخل المقاهي .
هنا يمكنك ان تحظى بوقت ممتع مع ثلاث أو أربع من الصبايا الغريبات .
تجد مقعدا خاليا ينهن ، فتسألهن راجيا وتجلس . ويدور حديث . وقد
تتفق مع احدهن على لقاء غدا مساء . ولم اكن راغبا بشيء من هذا بعد
امرأة كلينا . وفكرت بزيارة غازي أو عمر وعبد الله . غير أنه السبت .
ولربما لن أجد احدا في غرفته . قلت بأقضي ساعة في مقهى الفندق مع
التبغ والقهوة المرة . وفي الركن من المقهى كانت صبية فاتنة تأملني عبر
دخان لفافتها . ورأها غائب تبتسم لي :

- ماذا تنتظر ؟ اذهب اليها •
- وما حاجتي لموعد أو تلفون ؟
- اتريدها في سريرك بعد خمس دقائق ؟ ينبغي ان تنتظر يوما في الاقل •
- لا اعني هذا •
- بل تعنيه •
- سأجد بغيتي في امرأة عابرة ما •
- وعدت وحيدا ، موحشا في الحافلة • ومكثت مرابطا عند المناوبة ••
- اتصيد زائرة تلقي بها الصدفة بين يدي ، قادمة من ايما جهة من جهات البلاد
- الاربع • ورن التلفون • كانت رايا المترجمة المازحة • انها تنتظرني مع
- صديقتها زويا عند السينما المركزية • فأسرعت اليهما في التكسي • فصحبتاني
- الى سينما بعيدة لاتذكرها • كان الفلم هو « الحرب والسلام » الاميركي •
- وبعد العاشرة طلبت الى التلفون • هذه هي لنا :
- هل اتصلت بالفتيات ؟
- صاحباتك ؟
- بالطبع • أنا لا اعني صديقاتك ممن لا اعرف •
- كنت ، منذ ساعة ، مع رايا وزويا في السينما •
- رائع • لاتبق وحيدا فتكتب • اتصل بهن كلنا احسست وحشة ••
- انهن لطيفات • ويسرهن أن يرنك •
- طيب • كيف انت ؟
- بخير • مر على أمني لتعشى معها كل يوم •
- لا استطيع •
- كيف ؟ أهى بعيدة ؟
- لا أحتمل الشقة خالية منك •

— دع عنك هذا • ينبغي أن تأكل جيدا •
— سأكل في مطعمك •

وسمعتها تضحك • مع أن رنة الاسى كانت بادية في صوتها •
— اسمع • لاتقطع عن رؤية صديقاتي •

مرة كنت انتظر المصعد في الطابق الاول من البيت • وانفتح الباب
فبهت : عينا سوداوان متوقدتان تحدقان بوجهي • فأحسست برجفة • أهذه
امرأة في مصعد أم جارية من الشراكسة أو الكرج ؟ أنا لم أرها من قبل • أمهي
زائرة ؟ أجل • هذه جيورجية أو كرجية كما يقول اجدادي • هاتان العينا
كالفحمتين المتوقدتين ، والخد الناصع الاسيل ، والقامة العالية المائلة الى
النحول قليلا ، والشعر الاسود الناعم الغزير يذكر بالجيورجيات •

ورأيتها ثانية ، خارجة من المنزل • وكانت ترامقني وعلى شففتها طيف
ابتسامة • وكانت أخذة بيد طفل • أمهي مع زوج ؟ ورأيتها تحدجني بنظرة
طويلة مشتتلة • وقلت لصديق كان واقفا هناك ، متعمدا أن تسمعي :

— ارجو ان تخبر جيلي أنني سأعرج على المطعم بعد قليل •

وسرت باتجاه المخزن • ورجعت ، بعد دقائق ، قاصدا مطعم الحي •
فوجدتها هناك وكأنما تنتظر احدا • فأقتربت منها • فأطرقت باسمه ، غاضة
عينيها • وكنت مترددا • فتركها وعدت • وظللت اتحاور مع المناوبة ، مترقبا
عودتها • وحين دخلت تبعتها لافتح المصعد • وابتدرتها قائلا :

— اتسمحين بسؤال ؟

— تفضل •

— لست روسية كما أرى ؟

— أنا جيورجية •

— اتنى لك إقامة مريحة •• طويلة هنا •

- شكرا • لكنني سأغادر بعد يومين •
- أوحدهك هنا ؟
- أنا مع صديقة •
- جعلت أسير معها في الممر • قلت :
- هل استطيع رؤيتك ثانية ؟
- ولم تجب بشيء • انما كانت تبسم في ارتياح •
- هل تسمحين لي بدعوتك ؟
- لكنني مع طفلي • وصديقتي لم تعد بعد •
- فإذا عادت •• كيف يمكنني أن أراك ؟ هل أمر عليك ؟
- كلا • أين تسكن ؟
- في الغرفة ٢٠٨ في الطابق الخامس •
- سأحاول أن أمر •
- واسرعت الى المخزن لاجيء بقنية خمر وفاكهة • وبقيت في غرفتي اقرأ منتظرا • وفي العاشرة من الليل كنت يائسا • وارتدت إن اخرج لازور جيلي أو اندسريه •• حين سمعت نقرا خفيفا • وفتحت • كانت هي :
- جئت لاجلس دقيقة وارجع •
- وجلست كالخائفة • كانت قلقة • وكان جبالها ساطعا ، وشعرها الاسود اللامع متهذلا • وكانت الخمرة والفاكهة فوق المائدة • وفتحت الزجاجات وصيبت • كانت تقول في شبه ذعر :
- لكنني لن امكث الا دقيقة •
- لا بد من كأس معك •
- وفي الثانية عشرة من الليل ، بعد النيذ وتغزلي بها ، كانت لينة بين يدي • وكان جسدها نقيًا ، حارا • لم تنزع قميصها أول الامر • غير أنها نزعت بعد

حين • هذه امرأة كالشهاب العابر ، يخفق في الحياة ، مرة ، مضيا باهرا • •
ويختفي في الظلمات • وحين أعود الى ملحمة روستافيلي الكبيرة « انسان في
جلد نمر » يتسلل الي طيفها هامسا من بين شعرها المتهدل :
— سأتذكرك طوال حياتي •

وتحت اشجار دوبرولوبوف الناحلة التقيت بالعينين المتورمتين • لم
تكن الثلوج تتساقط ذلك المساء • وكانت السماء داكنة قاتمة • ورأيتها
متهملة الخطى في نزهة المتوحدين • كانت شقراء ممثلة • وابصرت بعيونها
الباكية فكدت اعتذر • غير انها امسكت بذراعي متلهفة ، وقالت متوسلة ،
ودموعها تنهمر قطرات كبيرة :

— انت عربي ؟

— أجل •

— وتعيش في هذا البيت ؟

وأشارت الى المنزل الجماعي التابع لمعهد الطب الثاني •

— كلا • نحن جيران •

— اتعرف محمدا ؟

— طالب الطب ؟ أعرفه •

— اترى مدامعي هذه ؟ انني أحبه • لكنه عازف عن رؤيتي • ارجوك

خذ هذه الرسالة اليه • وجئني بأي جواب • أنا منتظرة هنا •

كان محمد في غرفته مع اصدقائه • فأخبروني ، ضاحكين ، انها لم تترك
عراقيا منا دون ان تحمله رسالة مثل هذه • ورجاني محمد ان انصحها بأن
تدعه وشأنه • فلقد أفهمها أنه لن يتزوج • وعدت حاملا اليها رسالتها وردا
قاطعا بدا لي أنه غير جديد عليها • وودعتها ، أملا ان تنسى ، فالزمن كميل
بأزالة لوعتها قريبا • فتشبثت بيدي :

— اتركني هكذا ؟

— وماذا بوسعي أن افعل ؟

— اني لاشعر بكأبة فادحة • لاتركني • • انني اتوسل اليك • لنمض

الى أي مقهى • أريد ان اشرب معك ، عسى أن انسى احزاني ساعة •

فتطلعت الى عينيها الجميلتين الدامعتين فأذعنت • ماأنا بالصخرة
لاتركني هاتان العينان المتورمتان • فركبنا حتى ساحة بوشكين • وادخلتني
مقهى لم أراه من قبل • كنا تتجرع نبيذا أحمر • وكنت أقص عليها اخبارا
مضحكة تسلية لها • وهي تبسم وتضحك بعينيها الباكيتين ، حامدة لي طيبتني
وصبري معها •

ومساء في اليوم التالي • • طرق بابي :

— هناك فتاة تنتظرك في الشارع •

وهبطت لاجدها • ورجتني أن تمشى قليلا • كنت أصغي ، دون رغبة
مني ، اليها شاكية عذابها وهيامها • وتضرعت الي ان ارفق بها وأخذها الى
المقهى لتسلى وتنسى • قلت : لا بأس بصحبته هذه المرة • وسأعتذر حين
تجيء ثانية • يكفي أنني أضعت معها امسيتين • وفي المقهى وجدتتها اكثر
اندفاعا في ذكرياتها فصبرت • لكن ما ادهشني أنني رأيت وجهها متهللا ، باشا
بعد الكأس الأولى • لقد انقشعت الغيوم ، فجأة ، عن تقاطيعها الحلوة • أكان
يهيها أن تسامر عراقيا من أهالي الحبيب ؟

حين خرجنا من المقهى كانت شكرني راجية أن احتل رفقتها : انها تعاني
وحشة رهيبة ، وتجدد في طيبتني ملاذا وحيدا لها • وانها ستمر علي غدا مساء •
فما استطعت اعتذارا ، متأثرا بضراعة عينيها الكبيرتين •

لكنني غادرت المنزل قبل مجيئها • وبقيت عند فلاح ساعة • وحين عدت
كانت جالسة بالقرب من المناوبة صامته هادئة • وحالما رأني علت وجهها فرحة

غامرة • وفي الطريق كانت متعلقة بذراعي وكانني سافر • وفي المقهى مع
النبيذ الاحمر كانت مريحة ، منطلقة في الحديث • وكنت افكر بخطة تبعدها
عني • سأقرأ مساء في المكتبة العامة ، في الجناح الخارجي من المنزل • ولن
أخرج حتى تغلق المكتبة بابها •

وكانت خطتي خير مهرب • وخلال ثلاثة أيام كانت الانباء تصلني عن
فتاة شقراء تنتظرني عند المناوبة ، ساعة كل مساء ، مترقبة صامته •
وقصصت خبرها على رايلا وزويا • فضحكتا طويلا • وكنا في الطريق
الى سينما اودارنك •

كان اسبوعا مملا • وكنت وحيدا في غرفتي • لاشيء غير الشاي
والكتاب والتبغ • والثلوج تتخافق عبر النافذة • وكنت احاول التقرب مترددا
من غالينا موظفة الادارة الطويلة الشهية • رأيتها اليوم في بوفيت المعهد •
تختار من البرتقال ماتشاء ، وتزن لها ماتنتقي • كانت النادلة الوحيدة خارج
البوفيت • وكنت ألتظرها لآخذ افطاري • وابصرت بي غالينا • فنزعت عنها
معطفها وانحنى على البرتقال • لتريني ظهرها القوي الرائع • وكانت تظهر
لي ودها منذ سنتين • وكنت مترددا •

كانت الليالي تمر باهته موحشة • وكنت اسمع الضحكات في الغرف
الآخري • وزجاجة الفودكا تنتظر ، عبثا ، في خزائتي • وكانت ليلة أحد • وفي
الساعة الحادية عشرة مضيت لإعد شاي في المطبخ • فرأيت امرأة شهية جميلة
في الاربعين • ولعلها في الخامسة والاربعين • كانت ممثلة كما أحب • كان
وجهها متكسما بيضويا • وخداها في لون البنفسج النضر • وكان رداؤها
البنفسجي منسدلا فوق امتلائها الوثير • وكانت تهيء عشاءها • هذه ضيفة
أراها لأول مرة • كانت حية خجلتي ، وهي ترى اعجابي باكتافها وارداؤها
الباذخة • وكنت أخط بنظرتي الراغبة فوق صدرها الاربعيني الممتلي •

ورأيت شفيتها الممتلئين تختلجان • كانت تحس باشتهائي وتألمي ساقيهما
الطويلتين الممتلئين فتطرق استيحاء • حيثها بلطف • ورحلت اتحدث معها • •
هي روسية من ريفا • • تحل منزلنا منذ ثلاثة أيام • وسترحل غدا مساء •
وسألتني من أين أنا ؟ وماذا اكتب ؟

— كيف فاتني أنني لم أرك ونحن في الجناح من الطابق نفسه ؟
فأجابت باسمه :

— أنا أعود متأخرة من المسرح أو السينما • وانت طوال النهار في
المعهد • • ولهذا لم ترني • كيف انت مع جونا القارس ؟
— لقد اعتدت عليه •

كانت تسألني وتحدث في هدوء وحياء • قلت :

— هل لك ان تفضلي وتشاركوني شاي ؟

— أنا لم أتعش بعد • جئت متأخرة • تفضل وتعش معي • وسشرب
الشاي فيما بعد • مع أن عشائي متواضع •
— انه عشاء شهوي • وترني دعوتك الكريمة •

ودخلنا غرفتها • كانت في شقة الجناح المشرفة على شارع روستافيلي •
وتذكرت الفودكا • فسألته أن أتى بها • فأبتسمت قائلة :
— في هذا الوقت المتأخر ؟

— غدا عطلة •

— لا بأس • سأشرب معك قدحا •

كان شعرها الكستنائي معقوصا من الوراء • وكان كشيئا جدا • كانت
طوال الوقت هادئة • حية معي • وكنت اتحاشى النظر الى امتلاء ثدييها
الشهين • فكانت تسبل أهدابها في شبه ابتسامة خجول • والفودكا تقرب
مايننا • • فرحت احدثها شتى الاحاديث عن الادب والفن • واقول كيف

فاتني أنني لم التقي بها الا في آخر يوم .
— فعلا كنت وحيدة . لو أننا التقينا في أول يوم لما أحسست بأية وحدة .
مع هذا لا بأس . هذا أفضل من ان الا نلتقي . سأعود في بداية الصيف ، بعد
الامتحانات . . فأن لم تكن منشغلا سأراك . ستكون اجازتي أطول . انني
ليسرني أن أراك ثانية .

كان اسمها أولا . وكان عنقها البدين ناصع البياض . لم اكن متسرعا
معه . لم امسك يدها . ولم احاول مغازلتها . فالفودكا خير سبيل آخر
الامر . ومنذ رأيته وهي تعرف رغبتني بها . كانت الساعة تدنو من الثانية .
وكنا نعلم أننا سننام معا . لا تذكر كيف جعلت اقبلها . وجدتنني منتقلا
بمقعدي جوارها . أقبل وجهها وفمها . وكانت تقبلني قبلا طويلة حارة .
كانت الفودكا أخذة بالانتهاء . فصببت البقية في قدحينا . غير أننا لم
نشربهما . فظلا نصف ممتلئين حتى الصباح .

اتذكر انني وقفت وراءها . فأخذت بكتفها . وأوقفتها برفق . واقتربت
بها من السرير . وقلت هامسا :
— سأزع ثيابي قبلك .

كنت متمددا في فراشها . وكانت جالسة على حافة السرير ، ويدي
تشدها الي برفق . فرجتني أن استدير لتضبو .

كانت الزوبعة الثلجية تدق النافذة . وكان عريها الايض الناصع
الحار بين ذراعي . كان عريها متفايضا ، مالكا فراشها . كانت تمرغ وجهها
بصدري . . متأوهة أهات عميقة ، حبيسة منذ سنين :

— انت في عمر ابني !

وتقول بعد حين :

— الى أين ترفعهما هكذا عاليا حتى السقف ؟

كان خجلها الجميل منطويا على عطاء دافق • وكان صوتها كالانين
 الضعيف حين • • فاحا ، حاراً كالصراخ الخافت حيناً آخر :
 — انني اتهدم • وأحس بحليبي يتفجر • أنت ترضعني • • ارضعني •
 انت تتنهني ، وتهزني هذا • أنا مبرغة بك •
 وحين عادت في قميصها انحنت علي وقبلتني متضرعة :
 — كيف أمحو أثارك الداكنة عن صدري واكتافي ؟
 فنهضت لاعريها • كان شعرها الكثيف يغطي اكتافها • وتمددت تحت
 الغطاء ثانية ركبتيها • فرأيت الغطاء يتقوس كالخيمة العظيمة فوقهما •
 — كيف جرى الامر ؟ أنت في عمر ابني •
 — انها لصدفه رائمة أن التقى بك •
 — أكنت أهذي ؟
 — ان لك جمالا فذا لا ينسى •
 — وكنت تلثم فخذي مبتهلا •
 — حين رأيت وجهك وامتلاءك رحت أنضور رغبة •
 — أتدري ؟ لو أنك تسرعت معي لما جرى الامر • كنت سأحس بالاساءة
 وارفض • • كنت سأشعر أنك تهينني • لانني لم أدخلك غرفتي الا لتحت •
 مع أنني كنت اعرف رغبتك بي منذ اول نظرة • غير أنك كنت هادئاً طوال
 ثلاث ساعات • وكنت لطيفاً ، طيباً في لهجتك ونظرتك • • فأحسست أنك
 تحترمني • وكنت أقول لو انه سيستمر في احترامه لي • • سأكون له • • وكنت
 أتمنى ان تظل هادئاً حتى اللحظة المناسبة • فلقد كنت اريدك كثيراً • أجل •
 كنت سأحس بالاهانة لو أنك تسرعت • فما أنا بالفتاة الشابة الصغيرة لاتقبل
 المركب السهل معي • مع انني كنت راغبة بك جدا • غير ان احترامك لي هو
 ما جعلني ارتضي ان اكون لك •

— فلو أنني اصررت وبذلت جهدا ؟
 — ماكنت لا قبل بالطبع . هذا يجدي مع غيري .. مع فتاة .
 — مع أنك راغبة ؟
 — أجل . ما يهمني اولا هو احترامك لي .
 — فأية اساءة في أن اقبلك عنوة ، واحاول جاهدا معك ؟
 — لا تنس أنني ادخلتك غرفتي في ساعة متأخرة من الليل . فلو انسي
 ارتضيت تسرعك ، متسعة الرفض ، لكنت رخيصة في نظري نفسه .
 — اذن لفاتي هذا كله !
 — بالطبع كان سيفوتك . لكنك كنت حكيما فأرضيتني .
 فأخذت اقبل وجهها وصدرها وفخذها ..
 — يا فتاتي الحبيب . ليس الان . فيما بعد . أوه .. اتريد بعد هذا
 كله ؟ مع أنني مرهقة . كلا . لست مرهقة كثيرا . انك تأخذني بلطف . أي
 هناء هذا ! أية متعة فائقة ! يا فتاتي الحبيب . ما ألد هذا ! أنت في عمر ابني !
 بعد اكثر من ساعة كنا مستلقين عارين . فنهضت لارد علينا الغطاء ..
 فسمعتها تهمس همسا خافتا :
 — انت تعطيني ؟ شكرا .
 وكان وجهها اليبضوي متوقدا ، جميلا جدا . فأزحت شعرها الكثيف
 لا تطلع . وكانت عيناها شبه مغمضتين . فكنت أرى اشعاعها أزرق خافتا
 بعيدا . ونهضت لاشرب ماء . كان باردا جدا . وعدت أتمدد قريبا . وكانت
 الزوبعة الثلجية ما تزال تدق الزجاج . وكنت أصغي لآهين الريح وصفيها .
 وسمعت حافلة الفجر تمر خافقة تحت النافذة . وظللت أصغي مدة . ثم
 أخذت الامس بطنها براحة يدي ، فأحس به وثيرا دافئا . ولم تتحرك انما
 ظالت هامسة :

— اوه .. لا تثرني • أنا مرهقة •

ومدت يدها فلمستني برفق :

— لكنك تريد •

— سأنتظر •

— كلا • انت تريد • تعال • تعال •

وكانت هذه المرة كالبحر الدافيء الرخي • وظللت أسبح في ليعيها المائج
لطفًا ولدانة • ونهضنا بعد نوم عميق طويل • وانحدرنا لتتغدى في مطعم
الحي • وكنا جائعين جدا • وتجولنا ساعة • ثم رجعنا إلى غرفتها • فأردت
أن تتعري • قالت :

— كلا • من الخير ان اتركك راغبا بي • هكذا أفضل • سأعود في بداية
الصيف • لن اكتب لك • هذا حزين جدا • لو كان شهرا واحدا لكتبت •
لكنها شهور • وحتى حين أعود ، لن اترك لك خبيرا • لا أريد ان افرض
نفسي • من يدري ؟ ربما سأجذك ناسيا تماما • سأترك الامر كله لك • انت
حر • تنتظر أولا تنتظر • لكنني سأعود • سأعود حتما •
— وكيف سأراك اذن ؟

— أنا اعرف متى تنتهي امتحاناتكم • سأجيء بعدها بيوم أو يومين •

لا أكثر •

— طيب • سأسأل المناوبة عن رقم غرفتك •

— تستطيع هذا • وتستطيع شيئا آخر •

— ماهو ؟

— في الليل حين اعود متأخرة • • سأجلس فوق مصطبة الحديقة • والآن
لأخذ حقيبتى • سنودعها في المحطة ، وتجول في المدينة حتى تحين ساعة
الرحيل • أحب ان اتجول معك واتحدث •

حين كانت تتقدمني كنت أتأملها معجبا • وحسدت صدفة سخية رمتها
بين ساعدي ، وأنا أعد شايًا في مطبخ • تلك هي غرائب هذا المنزل وعجائبه !
ألم تضع اوزبكية شهية قبالة غرفتي ؟

وعدت وحيدا لاقرأ • وجاء جيلي متأخرا لنمر على جون • قال جيلي :
— رأيته اليوم مع امرأة رائعة •

— ألم تجدها شبيهة بصاحبك مربية الاطفال ؟

— بلى • تشبهها • لكن صاحبتي عادت لصديقها •
— وهذه عائدة الى مدينتها •

وزرت أم لنا :

— أهديه ايضا ؟ انت لاينفع معك نصح • اوصلتك رسالة من لنا ؟

— سبع رسائل حتى الان •

كأنت أمها تضحك جذلة :

— هكذا اذن ! وأنا لم تصلني منها الا رسالة واحدة • لكن انت ..

أين انت ؟ ألم توصك لنا بأن تمر علي لتعشى كل مساء •

— لا استطيع •

— ولماذا ؟

— لااحتمل غيابها عن الشقة •

— مجنون آخر ! هي مجنونة ومثلة • • اتمثل مثلها ؟ هل اخبرتك متى

ترجع ؟

— ستتأخر خمسة أيام آخر •

— اذن ستعود بعد اسبوع • كلا • بعد ثمانية أيام •

كان الليل موحشا ، متلبدا • وكنت أدخن وأكل بلا طعم • • غير

طعم الوحدة المرير • وكأنتي لم اكن مع اولا • كانت ليلتها اشبه ..

كأنت حلما بعيدا • كنت أقرأ في غرفتي طويلا حتى الثانية عشرة من الليل •
وكانت ليña بعيدة ، هي الأخرى ، وراء الأورال • وتذكرت الأستاذة الشابة
فضحكت من نفسي • كنت ارتدي معطفي ، امام المرأة • بعد آخر محاضرة •
وكانت ترتدي معطفها صدفة بجانبى • فأبتدرتني قائلة ، وكنت في معطفي
الخفيف المبطن بالفراء :

— انت ترتدي خفيفا !
فأظهرت لها البطانة فضحكت • قلت :
— هل يمكننى أن اوصلك قليلا ؟
— تفضل •

واجتئنا الشارع • أخذنا طريقنا في ممر البولفار المديد • كانت ممسكة
بذراعى ، متبسة • وكانت السماء الليلية داكنة • وسألتها ان كنت استطيع
لقاء معبا • فردت ضاحكة :

— كم من صيف ، كم من شتاء !

أي كم مر من زمن على لقائنا الأخير • كنت قادرا ، طوال تلك المدة ،
أن أسألها • فقد تخلو شقتها يوما • ولم أسأل • كنت منشغلا مع ليña •
وكانت تعرف أنني كنت منشغلا مادمت صامتا • وهل كان يشفع لي أنها
متزوجة ولديها طفل ؟ فما كنت استطيع لقاءها الا نادرا ؟ كانت مرحة معي •
وكنت أحاول تقبيلها في البولفار الخالي ، فتزلق مني ضاحكة :

— واين كنت مني طوال هذا الزمن كله ؟

ثم أضافت باعتداد :

— كان الشقة خالية قبل اسبوع !

— لو كنت أعلم !

— طيب • كف عن تحسرك • أنا مازلت أحبك • أما انت ..

— لاتقولي هذا • انظري الي •

— لكنك كنت تحبني •• فكيف نسيت ؟

— أنا لم انسك يوما • وسأظل احبك طوال عمري •

كنت أحبها واحب لنا في أن واحد • اكننت أحب فيها تلك المرأة
الآخرى ؟ قالت ، فجأة ، وقد أحست بنبرة الصدق في صوتي ، وفي نظرتي
الغائمة :

— ان ما يحيرني هو صمتك !!طويل هذا •

ثم سألتني :

— لكن مابك ؟ لاتحزن • سأتحين فرصة وللتقي • ربما في اول

السيف •

قالت عبارتها الاخيرة ضاحكة ساخرة • وعدت منكسر القلب ، مقطبا
في زحمة المترو • كنت حاملا حقيتي المثقلة بالكتب • وكان المترو يعرج
بالصبايا والنساء • وكنت واقفا في العربة ، حزينا حزنا قاتما • وكنت أردد
نفسي قول طائر يخاطب ملكا في « كليله ودمنة » :

— وأنا الفريد الوحيد الغريب •• قد تزودت بالحزن من عندكم عبثا
نيلا لايحمله معي أحد ، وأنا ذاهب فعليك مني السلام •

فرأيتها تضحك لشبابها وجمالها حاسرة الرأس ، في فرائها الثقيل
لمنقط • كانت تحمل أداة طالبة الهندسة المعمارية • كانت عيناها كرتفال
أضواء متلونة • وشعرها يتهدل متموجا ثقيل • وبخرجنا من العربة مع غيرنا
من الامواج البشرية يلفظها المترو عند كل محطة • لم أكن لاريد ان اقول
شيئا • كان الشتاء المظلم القاحل في قلبي نفسه • كانت الطرق الموحلة
المقفرة ممتدة في قلبي دونما انتهاء • وكنا فوق السلم المتحرك • فألتفتت
الي فجأة متسائلة :

ميم هذا الحزن كله ؟

جبتها معايشا :

— لانني أريد ان اتحرر •

— ولماذا ؟ وهذه الحياة الرجة السعيدة ؟

— لانك جميلة جدا

— ينبغي ان تفرح حين نرى وجهها جميلا •

— كيف أفرح وهذا الجمال ذاهب للقاء سواي ؟

— ومن قال انني ذاهبة لالتقي رجلا ؟ سأمر على صديقة لي •

— هن استطيع مرافقتك ؟

— ولم لا ؟ بل سنقضي وقتا ممتعا عندها •

وخرجنا لتركب الترام • وكانت طرقا لاعهد لي بها • وهبطنا من الترام

لنقطع ساحة وازقة • وواقفتني عند مدخل ما :

— انتظري هنا من فضلك • لا بد من أن اخبرها لتتبعها •

بعد خمس دقائق فتح الباب عن امرأة شابة بادية الحسن في فراء

أصفر داكن • ورأيتها تطيل نظرتها الي • • ربما متسائلة عن انتظر • كأن

وجهها قويا يرغمك ان تنفحصه مفتتنا • ثم مضت متباطئة الخطى • وعادت

فتاة المترو ، وفي وجهها خطورة وحيرة :

— ارجو معذرتك • • لانستطيع دخولا •

كانت جادة تماما • لاشيء من انطلاقتها المرححة الضاحكة • فيم كان

هذا التبدل الخطير في وجهها ؟ وكأنني كنت موشكا أن اقع في خطر ما •

وكان كارثة ما كادت ان تحل • قلت ضاحكا لاهديء من قلقها :

— لا بأس • لنمض الى أي مقهى أو مطعم •

— كلا • لم يعد ممكنا في هذه الليلة • سأراك غدا في السابعة مساء في

أي مكان تشاء •

- سأنتظرك في مقهى الطابق الاول .. في فندق موسكو .
- سأجيء حتما .
- الى اللقاء .
- كلا . سأوصلك .
- وسألها ضاحكا :
- ولماذا ؟ لاتعبي نفسك .
- سأوصلك حتى الترام .

ووجدت المرأة الشابة واقفة هناك . كانت تنتظر الترام . وودعتني فتاة المترو . وانطلقت عائدة . كانت المرأة تتأملني باهتمام ظاهر . فحييتها سائلا عن شارع بعيد ما . واخذنا نتحدث . وفي الترام كنا معا جالسين . ثم نزلنا عند محطة مترو . واقترحت أن تتعشى معا في مطعم . فأجابتنى ضاحكة :

- طيب . سأجلس معك . أنا لم اخرج الا لاتجول .
- ثم قالت في غير اكتراث كبير :
- اكنت راغبا بالذعاب مع تلك .. الشابة ؟
- كلا . لم تتفق على شيء .
- أهي من أهل المنزل ؟
- كلا . ان لها صاحبة هناك .

كان شارعا لاعرفه . واجتذبتنا لافته فدخلنا . كان مقهى ومطعما في أن وكان مزدحما . واضطررنا أن نقف قليلا حتى تفرغ مائدة . وبدأ لي أن اطلب قينة كونيأك . كان صنفا حادا قويا جدا . فغلبني الشراب بعد ساعتين . كنت ثملا تماما . ولا اتذكر كيف انصرفنا من المقهى . اتذكر أننا كنا في الشارع ، وانها أوقفت تكسيا . لايد من انها وجدتني متعبا جدا فلم

تشأ ان تتركني ضائعا في صقيع الليل • اتذكر انني كنت اقبلها في غرفتها • وانا
اتزعا ثيابنا لنرقد • غير انني سريعا ماغفوت • وافقت فجرا • كانت عارية
حارة ، غارقة في نومها • وتذكرت انني لم أحظ من هذا الجسد الشهوي
بشيء • ولم أرد ايقاظها • لكنها صحت بعد نصف ساعة • فأبتدرتني
ضاحكة :

— صباح الخير •

وأخذت اقبلها • وكانت تقول :

— لكن كيف ؟ كيف تشرب تلك الكمية كلها ؟ لكم حاولت أن اردك
عن الشرب عشا • فلم أجد بدا من أن اصحبك الى هنا •

كان عناقا رائعا ساعة الفجر • بعد ساعتين ينبغي ان نخرج لتلحق
بسلها • واتفقنا ان نلتقي في الامسية التالية • وكنا في محطة مترو :

— هنا عند هذا المدخل • انتظرنني في الساعة غدا مساء •

غير أنني كنت مع الاستاذة الشابة في نزوات لإطائل من ورائها •
فأضعت فتاة المترو وأمرأة الفجر معا •

كنت عائدا في الحافلة • وكان ذراعي ، منذ قليل ، ملامسا فراء ناعما
لاغير من الاستاذة الشابة • لم تكن الشقة خالية • كنت في الحافلة • وحين
توقفت بالقرب من مترو نوفو سلوبو دسكايا رأيت امرأة تشبه اولاً في طريقها
لتصعد • كانت الحافلة مكتظة • فلم نجد مقعدا فارغا • وكانت واقفة قريبا
مني • فنهضت لاخلّي لها مكاني • فشكرتني جالسة • وكانت تحدجني
بعينها كمن يعرفني • فأخذت اتذكر أين رأيته من قبل • اجل • هذه جارة
لينا • • وحين قامت شريكته ، ابتعدت لتفسح لي • كنت أحس بدفئها
وطراوتها عن قرب • كان امتلاؤها يجعلها ملامسة لي • غير أن فخذها يشرني
بحرارته • أية نعومة ! أكانت تتقصد حركة ساقها في احتكاكها بساقي ؟ وحين

أردنا أن نزلَ تعمدت إن تتقدمني • وفي زحمة الواقطين كانت تسحق اردافها
علي • وكنت أحاول أن ابتعد جانبا • لم اكن لاريد أن تحص باثفعالي •
ورأيها تخطو متاثقة في الزقاق ، وتتوقف مطرقة برأسها • ولم
اتبعها • وحين دخلت قالت المناوبة ضاحكة :
— طلبوك مرتين في التلفون • مرة من وراء الاورال • وستصل بك
بعد العاشرة •

— هذه اعرفها • • والثانية ؟
— فتاة من موسكو •
— ألم تذكر اسمها ؟
— قالت انها ستتصل بعد حين •
وجلست منتظرا • وطلبتني رايا بعد نصف ساعة • ستظنني مع زويا
غدا مساء في السابعة عند السينما المركزية •
وفي العاشرة طلبتني لينا ثانية :
— أين كنت ؟ هل التقيت بالفتيات ؟
— سأرى رايا وزويا غدا • كيف انت ؟
— أنا لا افكر الا بك •
— أما أنا فأتحرق اليك •
— فيم تأخرتك اذن ؟ كنت تلهو بالطبع •
— كنت في مكتبة الاداب الاجنبية •
— أنا افكر بك كل لحظة • وهذا جنون مني ، لانك تعرف كيف تقضي
وقتك عابثا • أنت لم تزر أمي الا مرة • ينبغي أن تخجل • لكن مالفائدة من
لومك ؟ اسمعني ؟ سأعود يوم الاربعاء • • وكأنني لم أرك منذ سنين •
— أنا لا انتظر الا عودتك •

— أحقا ؟ ماهي حكاية العينين المتورمتين ؟ ضحكت كثيرا وأنا أتصورك حائرا بها • لو كنت أعرفها لآخبرتها أين تبحث عنك ، وسترسخ لها حين ترى دموعها • أنا اعرفك •

وفي الساعة مساء كانت رايا تنتظري وحدها • كانت في معطف من الفراء الرائع • وكان وجهها المتورد أكثر نضارة من زهرة أبان تفتحها • — ستلحق بنا زويا وصديقها في المقهى • هذه دعوة منهما لك •

واجتزنا ساحة بوشكين • كان جمالها البهي كالفاكهة الشذية المحرمة • كانت أخذة بذراعي ، متحدثة في ابتهاج • قلت : — وصديقك • ألم يود ان يحضر ؟

— وكيف أجيء بصديق ؟ ستحس بعزلة • سنصحبك ليلة الاحد ايضا • كان الثلج يتساقط خفيفا • وكانت تتطلع الي باسمه وهي تحاورني • وكان جمالها يلفت انظار العابرين • وفي المقهى راحت توصي النادلة وهذه تكتب • وحين جاءت الشبانيا قلت :

— أظن ان علينا ان ننتظر •

— لماذا ؟ زويا في صالون حلاقة • وستأخران قليلا •

كان صوتها دافئا وهي تسألني :

— كيف انت بلا لينا •

— لو كان الامر بيدي لما تركتها تسافر •

— انها تحبك • لانك خير صديق •

— شكرا • أنا لاستحق هذا المديح •

— ماكانت تحبك لو لم ترك بعينها وعقلها • لينا ذكية جدا وصعبة في

هذه الامور • أما انا فلا اعرف كيف أفكر مثلها • أنا احب الحياة هكذ •

— مايسيرني هو انها ترفض ان اتزوجها •

— وهذا ما يحيرنا كلنا • مع انها تحبك • ألم تكتب اليك يوميا ؟ هذا
لا تفعله الا امرأة يشغل حبك كل لحظة من حياتها • لو تدري كم تتحدث
عني !

ثم جاءت زويا وصديقتها • فأجلسها جوارى • كان طيبا وصريحا •
وقد أبدى صداقته لي منذ اول لحظة • كانت زويا تذكرني بتونيا المناوبة
في المنزل الاول من قبل •• غير انها اكثر انطلاقا ومرحا • وادركت من
احاديثهم ان لينا شأنا مهما في عملها • وانهم يعتبرونها أفضل من يعتمد عليه
في اختصاصها ، ويقدرونها تقديرا عظيما انسانية ومهندسة فذة • اذكر أننا
شربنا زجاجتين • وانصرفنا مبتهجين • ودعوتهم الى المقهى في الامسية
التالية • وفي ليلة الاحد كنت منتظرا عند السينما المركزية • ورأيت رايا
مسرعة الخطى من بعيد • حالما اقتربت قالت ضاحكة ، وصدرها يتموج
بفراحتها :

— مساء الخير • ارجو المذرة عن تأخري • كان احدهم يتوكل الي
ان اصاحبه • كان ثملا •• فلم أخلص منه الا بالفرار •
— أين تودين ان نقضي الامسية ؟
— في أي مكان تريد •
— مارأيك في مطعم موسكو ؟
— ولماذا في مطعم ؟
— هناك فسحة وموسيقى للرقص •
— سأدلك على مرقص غير بعيد •
— سنجده مزدحما جدا هذه الليلة •
— انت ادري بلينا •• ستؤنني •
— ولماذا نخبرها •• فتمننا ؟

— لكنني سأضحك حين تسألني بلهجتها الخطرة : أظن انك انجرت
لرغبته في أن يقصف في المطاعم الفاخرة ؟

— وستألني : أمل انك سمعت نصيحتي وكنت لطيفا مع الفتيات ؟
وكانت رايا تضحك متوردة ، أخذة لهجة لينا المتعالية :

— وسترد علي : انت ضائعة • ماكان ينبغي ان اعتمد عليك • انت
لاتفكرين الا بالسهر والرقص • انت تشبهينه تماما • هذا الفتى المتسكع • •
وهو يليق بك ، يليق بينت لاهية ، عابثة مثلك •

في المطعم ، كان معنا عند المائدة ، رجل وامرأته • وكانت رايا بهية
كزنبقة الحقل • وحين فرقص كنت اشم رائحة شعرها العبقرة ، وأحس
بوجهها النضر يمسنني حاراً ناعماً • وكان النيذ ممتعا باردا • وسألتي المرأة
فجأة :

— لماذا لاتتزوج هذه الفتاة ؟

— هي لاتريد •

— ولماذا لاتريد ؟ انت لاتريد •

وضحكت رايا ضحكة صافية :

— انه خطيب صديقة لي • وهي مسافرة •

ومع الخمرة والرقص كنت اراها مغرية ، متعاطفة الفتنة • وكدت
أمس وجنتها اليانعة الحارة بشفتي مرة • غير انني اتبعت • ولعلها أحست •
فلقد كانت تبسم لي ابتسامة جذلة • وقد سرها مني أن يهزني جمالها ويدير
رأسي • وفي المترو كانت مريحة ، مقبلة علي • كنت اراها زهرة بديعة فوق
غصن • • أخشى أن المسها أو اقطفها • وعند بيتها اندفعت تقبلني قبلة ناعمة
هي قبلة صداقة لاغير •

وأردت أن افاجيء لينا ، فجر الاربعاء ، بانتظار لم تكن تتوقعه •

فنهضت مبكرا • ورحت اترقبها هناك • ورأيتها آتية ، شاحبة ، مقطبة
الحاجين • آية تقطية رائعة ! كانت ، في عيني ، أجمل امرأة على الارض •
وتبعتها لاسك بذراعها • فسحبته ملتفتة بعنف • وفوقبت بي • وتخضبت
وجنتاها حمرة شفوية ، وامتلأ وجهها فرحا • وظلت واقفة تأملني • كانت
تود ان تب لتقبلي • غير انها تكره هذا تحت اعين الآخرين • فاكفت
بتقبيلة اللقاء • واخذنا نسير باتجاه الشارع العام • والتفتت الي فجأة
لائمة :

- ماذا جاء بك في هذا الوقت البارد المبكر ؟
- جاء بي ماجاء بي •
- ابتكار آخر ! يريد اقناعي بأنه متلف لرؤيتي •
- تعرفين جيدا أنني اتحرق اشتياقا •
- أيها المتسكع •
- ايها المتفلسفة الفاتنة •
- لكنني لن أسمح لك بالبقاء معي • سنفطر معا وتعود الى معهدك •
- لم لا تقطر في مقهى •
- أليس لنا بيت ؟ ستعد أومي افطارا طيبا لنا •
- ثم التفتت لتقول برقة وحنو :
- أكنت تتذكرني في وحدتك ؟
- أنا متشوق لان اعريك بيدي في هذه اللحظة •
- هنا في الشارع ؟ سأجمد بردا • أنا لا اقصد هذا •
- ماذا تقصدين ؟
- أمازلت تحبني ؟
- لو انك ابصرت بي وأنا اتأملك قبل قليل !

- أدري انك كنت تتفحص ساقي •
- وأي ضرر في ان اتعبد اجمل ساقين ؟
- ألم تكتف ؟ ألم ترتو مني جسدا ؟
- اسمعي • سأراك بعد عشرين عاما أجمل مما انت في هذه اللحظة •
- حين رأته امها ضحكت قائلة :
- كنت اعلم انك ستنتظرها في المحطة •
- قالت لينا وهي تغمزي بأرق ماتمليك امرأة من رقة :
- انه يمثل •
- اهذا الزمن كله ولا يتعلم منك •
- كان افطارا بهيجا ضاحكا • وكنت اتصور لان انفرد بلينا • وهي ترى
- هذا جيدا • فتعمدت ان تتحرك باتجاه آخر • فأصرت ان اخرج في الثامنة
- لادرك اول محاضرة • وواقفتني في الفسحة باسمه باعتذار :
- انت لم تقل متى سأراك ؟
- تعلمين انني سأعود طائرا بعد آخر محاضرة •
- كلا • انتظري هناك حيث اعتدنا •• في السابعة •
- في السادسة •• أو بعدها بقليل •
- وخرجت جارتها فرمقتني بنظرة لاتنسى • فأسرعت تحيي لينا متضاحكة
- غير ملتفتة الي • كانت تتعمد هذا تعمدا ، مرتبكة قليلا • وحين أخذت تهبط
- السلم كانت لينا تتابعها مستغربة :
- ماذا جرى لها ؟ فيم هذه النظرة الغريبة اليك حالما رأته ؟ وهذا
- المرح المتكلف •• لماذا ؟ مع انها جميلة •• بالرغم من انها في الخامسة
- والاربعين •
- وضحكت مازحة :

— ها أنا اكتشف غريمة جديدة لي • ينبغي ان أخذ حذري • انت
خطـر •

كانت تتأملني ضاحكة العينين :

— ألم تتصل بك كاتيا ؟

— كلا • كاتيا في شغل عنا مع افلامها •

— ربما • لكن ماشأن هذه المرأة بك ؟

— أنا لم أراية غرابة في تصرفها •

— لكنني اعرف هذه النظرة •• وهذا المرح المتصنع •

ثم عادت مازحة متهمكة :

— اترأها غازلتك ، مرة ، فأعرضت عنها ؟

— مابك ؟ لاشيء مما تقولين •

وأردت أن اذهب ، فمست ذراعي متبسمة :

— أترى ؟ أنت ماض دون ان تقبلني •

فأحطتها بيدي متأملا شفيتها الممتلئين ، المائلتين الى السمرة ، ووجنتيها
الشفقتين في وجهها الشاحب ، بانخسافة خديه ، واستدارته المليئة ••
وتقطعية حاجبيه ، فملت عليها • واندفعت اقبلها قبلا عديدة • فتخلصت مني
ضاحكة :

— ليس هكذا • والان امض • سأفكر بك طوال النهار •

وانطلقت أخذا حقيتي من غرفتي • كانت جارتها في انتظار الحافلة ••

فأشاحت بوجهها حين اقتربت ، وعلى وجهها ابتسامة ما •

وهبطت عند ساحة بوشكين • كان الشارع مزدحما بحركة الصباح •

وقرب كشك الصحف ، حيال الازفيستيا ، يقف الصف طويلا • ومررت على

بائعة الزهور •• فأبتسمت حين رأنتني • فاخذنا بالحديث لينقطع كلما مر

مشتري • وقتت قبل أن انصرف :

— أريد ان تنتقي لي باقة •

— أي نوع تريد ؟

— ليس الان • حين أمر عليك مساء •

— طيب • أراك مرحا ومبكرا ؟

— أنا أحب •

— ومن هي هذه السيدة ؟

— ليست فتاة • انما هي زهرة من الزهور المحيطة بك •

— انت ظريف •

— وانت انضز زهرة بين زهورك •

— أهذا شعر ؟

— لكم يبهجني ان ارى وجهك كل صباح •

— ماعليك الا ان تمر علي في طريقك الي معهدك •

وعدت مساء لآخذ باقة • كان الطريق مكتظا أول الامر • والحافلة

تتحرك ببطء • فوصلت متأخرا قليلا • كانت لينا تدرع الناصية ملتفة بفرائها •

وكانت السماء مظلمة ، والريح ساكنة باردة • قالت لينا مبتهجة بالورود :

— أية أمسية يديعة !

— سأغير كتبتي وأعود سريعا •

— لا بأس • سنقوم بنزهة في هذا الطقس المنعش •

كنا نخطو بين الاشجار الناحلة العارية ، والاضواء تنوهج قوية في

النوافذ • حين تمر بنا امرأة تحدجنا بالنظرة المتفهمة ، وهي ترى جمال لينا

وامتلاءها الباذخ الفذ • أما الفتاة فترمقنا متفحصة جمال لينا الساطع ،

مشتعلة التحديقة متفكرة • ولم تعد لينا تعطي هذه النظرات اهتماما ما • غير

- انها تبدو كالمتكبرة أحيانا • فهي تدري أية فتنة معجزة تمتلك •
- حين دخلنا كانت أمها في المطبخ • فأبرت لنا تهيء المائدة ، متأودة في
حلتها الحمراء القائمة • وجاءت أمها لتقول :
- ها أتما هنا يا صقري البديعين •
- وشربنا نخب التمام الشمل أولا • وكانت لنا تملأ اقداحنا البيلورية
الصغيرة بالفودكا باسمه :
- كنت اتحدث مع الفتيات في التلفون • وشكرتهن على لطفهن معك •
- غير أن لرايا رأيا آخر • فلقد شكتك متذمرة •
- ترى أي ذنب لي معها ؟
- قالت انه لم يقل لي كلمة غزل واحدة طوال صحبتي له • مع انه
شاعر • ألم ير في مايتعث كلمة غزل ما ؟
- لكنها صديقتك •
- ولتكن • هذا لا يمنع ان تقول لها كلمة لطيفة • كل امرأة يبهجها أن
يقال لها انها جميلة •
- قالت أمها :
- ما كان غيرك ليفوت عليه مغازلة فتاة حلوة •
- من يدري ؟ لم يجد ، ربما ، متسعا من الوقت • أنسيت كيف أوقع
بكاتيا في حبائله ؟
- انت نفسك جئت بها وواقعتها لتبليه •
- هكذا أنت • • تتصرين له نكاية بي •
- لانه محق •
- لو تعلمين كم أنا هائمة ، مولهة بهذا الفتى المتسكع •
- متسكع هو متسكع • أما انت فهائمة بهيامه فيما لا ادري من مفاتنك

وسحرك وتجولك بعد العاشرة من الليل كساحرات الازمنة الغابرة •

— كيف ؟ انا احبه لاني •

— انظر كيف تدلك لتسكتني ! وتطعمك بيدها ايضا • أكانت تفعل

هذه معك هناك في المطعم ؟

قلت مازحا :

— هذه أول مرة •

— وتكر ايضا ؟ مع انني لم اتركه ، مرة ، يملأ صحنه بيده •• حتى

حين اكون غضبي • فما يسرني شيء اكثر من هذا •

فأصرت امها ضاحكة :

— وهذا تمثيل ايضا •

— لو تعلمين ماذا حل بي اليوم حين ربيته في المحطة ؟ كدت احتضنه

فرحا وأطير به بعيدا •• يعيدا فوق الغابات المتجلدة •• الى شاطئ البحر

الازرق الدافيء •• حيث الشمس والخضرة والرمال الحارة •

— هذا لانه أرضى غرورك •

— بل لانه فتى متسكع ينفق وقته وماله مع أية عابرة متورمة العينين ••

تتعلق بذراعه لتنسى حبها الخائب في دفء احضانه وقبلاته •• لكنه يترامها

حزينة وحيدة تتضرع ، عبثا ، عند المناوبة •

فأنطلقت أمها متهمكة مني :

— وهذا ايضا ! لافائدة ترجى منك • اتفوت هذه الفرصة ايضا ؟ أمن

الصعب ان تصبر معها قليلا ؟ ألم تجد احدا غيرك ينتشلها من محنتها ويأخذ

بيدها ؟ ألم تدرك غايتها من التشبث بك ؟

وهنا أخذت ليना بالضحك • طالما ناشتها أمها بلذعها وسخريتها • وهاهي

تراها ساخرة مني ، متهجمة علي • ورحت أشرح قصتي مع الفتاة عسى ان ترى

فراري مبررا • فمازاد هذا أمها الا تهكما • فإلحت لنا ضاحكة :

— هذا يعني انك اكثر تسكما وخيبة مما كنت أظن •

فالتفت أمها اليها ، منقلبة عليها بتهجم اشد :

— اتظنين ؟ ليس هذا اكثر خيبة منك •• ومن بحرك ورمالك الدافئة •

ايتها المزوقة • لكن انت — قالت هذا ناظرة الي — كيف لم يهزك قلب فتاة مكسور ؟ لو صبرت معها يوما آخر لقضيت وقتا لطيفا •• لكاية بهذه المتدلة

المولعة بالاساليب • اسمعت كيف تتغنى ؟ بعيدا •• بعيدا الى البحر الازرق

والرمال الدافئة ! وتحملك طائرة ، مرفرفة بك • ترى بأية اجنحة ؟ بأذيال

فرائها ؟ أم في قميص النوم المعطر الطويل ؟ وبجسدها الثقيل هذا كله ! لو

أنها أقل امتلاء ! ميديا ثانية !

كنت ولينا نضحك ضحكا لا يكاد يتوقف • فزجرتني أمها قائلة :

— فيم ضحكك ؟ هي سفيهة •• وانت ؟ أين عقلك ؟ اتضيع صوابك

امرأة ؟ هذه المتشاعرة المترنمة بالرفرفة فوق الغابات ؟ كفى ضحكا • اسكبا

لي لاشرب قدحي الاخير •

وكانت ترفرف بيديها امعانا بالسخرية • وانهمزت لنا لتضحك في

المطبخ • فتبعتها لاقبلها وهي ضاحكة •

— انتظر •• سترانا وتزداد تهكما •

وحين عدت صاحت أمها بي :

— أقسم انك ركضت لتقبلها • وها أنت لاتكاد تستقر • وهذا مايزيدها

تغنجاً وزهوا • كنت أمل منك أن تقهر كبرياءها ، وتورق ليلها غيرة وحيرة •

فتكف عن تدللها • فأذا بك مفتتن بسحرها وفنها • حتى أنها جعلتك تشاركها

جولتها الليلية الغريبة •• جولة الساحرة في الطرق الليلية المقفرة • وتفلسفها ؟

لن اقترن به لانني أحبه !

- وجاءت لينا في ثوب منزلي بديع • فقالت أمها فجأة :
- هذا رداء لم ارك فيه من قبل • أجل • انت تحسنين اختيار ارديتك •
- ايصالح لان أطير فيه ؟
- اجل • لان تطيري فيه الى غرفة النوم •
- واستأذنت ضاحكة ، منصرفه لتنام •
- لينا •• اظهري حاليك من تحت المائدة لاراها •
- ألم تشبع بعد تأملا فيهما ؟
- وكأني أراهما لأول مرة •
- طيب • انظر •• ها هما •
- أية اعجوبة !
- اتراهما مغريتين ؟
- جدا •
- الا نهما ممثلتان ؟
- لانهما أعجوبة الاعاجيب •
- كانت تتحدث متهمكة ، متخذة لهجة حادة :

— انظر اليهما •• وتأمل ركبتني ايضا •• وهذه الاصابع •• صرت اعتني بها كما اعتني بأصابع يدي • طيب • انت رجل حكيم • انت ترى الاعاجيب في اصبع القدم والظفر •• في باطن القدم وظاهره • كلا • بلا قبليات • أنت تدغدغني • أرايت اظافرها جيدا ؟ تأمل •• تأمل ! خذ كفايتك من التفحص • بل أراك تقيسهما • اكنت ترسمهما لو كنت رساما ؟ اذن لكنت ادع لوحة ! ولا تنقلت من حاضرة الى حاضرة • وتصور الالوف وهي تتجمع لرؤية قدمي لينا في صورة ! تصورهم وهم يدققون النظر في هذا الاظفر ! ماذا سيكتب النقاد عندئذ ؟ كلا • لاتضحك • تأمل هذه الاعجوبة الثامنة • كلا • انت

دى • انت تقبل ركبتى وفخذي • قبل ساقى لاكثر • كلا • انت تدغدغني •
سى • هذا ليس فنا • هذه مغازلة • ماأنت بناقد فني • انت عاشق متسكع •
انت تروبادور •

فأخذت اضحك عاليا •

— لاتضحك • ستطردنا أُمي خارج الشقة • طيب سأعيد هاتين
الاعجوبتين الى مكانهما تحت المائدة • سيكون نعلاي خير اطار لهما •
— لينا •• ماكنت اعلم انني سأقع في هذا البلاء •

— ياالهي ! أي بلاء؟

— جبي لجمالک المفترس الرهيب •

— اتدعو جبك لي بلاء ؟ حقا انت ستسكع ضائع ، لايهمك شيء غير
التأمل في ارجل الناديات الرئحات • انت جواب ارضفة لامثيل لك • لكنني
اعبدك • ماالعمل ؟ كلا • دع عنك ذراعي • لن اذهب معك • دعنا جالسين
هنا • أنا لم اشرب معك منذ سنين • كلا • بعد العاشرة • أنا اكثر تشوقا
بمنك •

— لنذهب •

— كلا • سيكون الامر جميلا بعد العاشرة • أريد ان اغريك اكثر ، أن
اشعلك رغبة ايها العاق • انت لم تكتب لي غير خمس رسائل • وكنت اكتب
اليك يوميا • أرايت الفارق بيننا ؟ وتدعو جبك لي بلاء ايضا •
— اليس بلاء أن ارغب بك هذه الرغبة المفترسة كلها ؟

— ويريد ان يفترسني !

— لينا •

— طيب • انما قل لي لو أنني في الاربعين •• اكنت تحبني ؟

— بالطبع سأحبك • أي فرق ؟

— فلو انك رأيتني وأنا في الرابعة والخمسين ، في الحافلة نفسها وهناك فتاة واقفة تتضحك لك ؟

— سأحبك • وإنك تعرفين هذا •

— في أي معطف تريد ان اكون ؟ وبأية قبعة ؟

— أية اسئلة غريبة هذه !

— سأرتدي معطفا أخضر فاتحا ، وقبعة بلونه •

كانت عيناها غائمتين ، وهي تتأمل أفقا نائيا ما • ونهضت لاقبل وجهها ويديها • فوقفت قائلة :

— سأنتظرك في غرفتنا •

كانت الاغطية منسحقة تحت اقدامنا • وكان جسدها يشع اشعاعا غريبا ، وكنت احاول القبض على هذا النور والتمسك به • وحتى في الذروة معها • • وبعدها ، يظل هذا النور مشعا متفايضا غريبا • وكانت تن :

— اتدري ؟ انت تقبل روجي نفسها • وهذا لا يحدث الا بيننا نحن

الاثنين • كنت اعرف هذا منذ رأيتك في الحافلة • كانت روحك ، في عينيك ، حزينه وحيدة • كانت عطشى الى القي هذا كما تسميه • اجل • لن ترى هذا النور الا في جسدي أنا •

كنت اقبل فيها فكرة الجمال نفسها • • هذا الالق الابددي الغريب • وكانت تهجد معفرة بي وبقلاتي • كانت صافية ، باهرة كاضوية النيون • حين أفقت صباحا كانت ترنم جذلة بلحن ما في المطبخ • فنهضت بتكاسل لارتدي ثيابي واغتسل •

— هاهو زوجي يصحو متأخرا كعادته • مارأيك ان نركب الحافلة معا

لتوصلني حتى المترو ؟ في تجولك عائدا فائدة كبيرة لك لو تعلم •

— لو أن الامر بيدي !

— ماذا كنت ستفعل ؟

— سأنعم بدفئك في فراشنا •• بلا افطار أو غداء •

— كلا يا عيني الحزيتين • لا يجوز هذا •

— لكم أنا راغب ان اخمك في فراشنا الان •

— كلا • لست متسكعة مثلك • ان عملا مهما ينتظرنى لانجزه •

ودعيت وجون لنقرأ في يوم الشعر • ومع الدعوة جاءني تذكرتان • في هذا اليوم يقرأ الشعراء قصائدهم في ساحة مايكوفسكي •• وفي متاجر الكتب • وكنا سنقرأ في قاعة اتحاد الكتاب مع شعراء سوفيت ، وآخرين من المجر ورومانيا وغيرهما • كانت اسمائنا واقطارنا مطبوعة على التذاكر • وكانت لنا تريد تذكرة ثالثة ، فقد وعدت رايا وزويا بالحضور • فحصلت على الثالثة من جون • كنا نتظر الفتاتين عند مترو مايكوفسكي • كانت لنا تشد فوق تسريحتهما الرائعة منديلا ابيض أهدب مخرما • وجاءت الفتاتان ضاحكتين ، قلت مازحا :

— مارأيكن بصرف النظر عن الامسية الشعرية ، وتقضية السهرة في مطعم بكين ؟ هوذا يلوح عبر الساحة •
فردت لنا مناكدة :

— يمكنك ان تصحب رايا • سيرها هذا • أما انا وزويا فنحضر الامسية • لن تفوت علينا هذه الفرصة •

• وانحدرنا باتجاه مبنى الكتاب • ولاح لنا القصر الاصفر القديم وسوره المتراخي : هذه بناية قديمة اختارها تولستوي منزلا للكونت روستوف في « الحرب والسلام » فدخلنا من جهة كيرتسين • واخذنا نزع المعاطف واغطية الرأس لتعلقها عاملة المشجج • وسمعنا امرأة تقول وهي تقرأ التذكرة بين صاحباتها :

— ومن المرقى ١ —

الموصلتھن حتى باب القاعة لادخل من مر آخر ، حيث يتعين علي ان اجلس مع الشعراء عند المنصة . كان عريف الحفل هو الشاعر سوركوف رئيس اتحاد الكتاب . وكان يعرفني . فلقد كان عريف حفل آخر ، اقيم قبل عام ، في الشهر قاعة في موسكو : البوليتيخني ، حيث قرأت قصيدة . هنا اقيمت أوائل القرن أمسيات بلوك ومايكوفسكي وغيرهما . وهنا رأيتي نينا الشقراء قيمة البار في مقهى البهو من فندق موسكو . ولقد اسكرني أن تقابل قراءتي بالسكون الشامل المطبق اول الامر . ثم انفجار القاعة بالتصفيق الهائل المتواصل . كان اعنف تصفيق في تلك الامسية .

وخرجنا من اتحاد الكتاب والزوبمة الثلجية في وجوهنا . . كانت الزوبمة تشد معاطفنا شدا ، وتكاد تطوح بنا . وكن يضحكن مبتهجات ، متوردات . كانت الرياح تتصايح متلاطمة ، متلوية بالثلوج ، نائحة ، نابحة . وكنا نجد صعوبة في أن نقف على اقدامنا . اقترحت ان نخرج على مقهى الشباب لشرب زجاجة كونيالك . كانت لينا ضاحكة الوجه ، فرحة بالزوبمة الثلجية العنيفة ، متأثرة باحتفاء القاعة بي . فلم تعترض . لانما قالت وهي تأملني بابتسامة رحيبة :

— زجاجة واحدة !

واجترنا الساحة . وكانت معتركا لجنون الرياح وصراخها . كانت الثلوج يابسة ، تضرب اوجھنا وتضرب رؤيتنا . وكانت رايا تحتني بي كلما اشتدت العاصفة تهورا . وكنت أحس بنهديها المتوثبين ينسحقان فوق الكنافي . وشدت ظهرها ، مرة ، بذراعي . . فأطلقت تضحك ضحكا صافيا .

وفي المقهى اخترنا مائدة عند الواجهة . وعدت لاحيي عاملة الصندوق زهرة التتريه . كانت النادلة تعرفني ايضا . . فسألتني عن نغيبي . ولم تجد

لينا بدلا من ان تقول مداعبة :

— ارى انك زبون مقيم في هذا المقهى •

— كنت أمر ، احيانا ، لاشرب القهوة واقرأ •

كان مذاق الكونياك حادا ، باعثا على الدفء • وكانت الشطائر بالسبك

الاحمر والسجق شهية بعد جوع • وموسيقى الرقص تتعالى بين حين وآخر •

وكان الثلج عبر الواجهة يتهاوى منتهايا بأكف الرياح • وكانت النفس الامارة

تدفع بي لاتأمل شفتي رايا المثلثتين الشهيتين • فأختلجت شفثاها واقترتا

عن ابتسامة أخاذة • كانت فسحة الرقص ضيقة ، ورايا دافئة جذلي بين يدي ،

والزحمة تشدها الي • كان قوامها لينا طيعا • وكنت افربها مني كما اريد •

واندفعنا في الشارع مع الزوبعة الثلجية المتعاوية • وقد افادنا الكونياك

دفئا ونشوة • اوصلنا الفتاتين حتى المترو ، ووقفنا ننتظر الحافلة ٢٣ في

منطلقها • وفي مقعد الحافلة كان جسدانا في تماس ممتنع التماسا للدفء

وتلذذا ، مع ان ثقلها كان يتيح لنا هذا دون ان نتحرك • غير انها الزوبعة

الثلجية والحافلة المتخافقة وعودتنا متأخرين ! قلت ونحن نعب الشارع :

— مارأيك في جولة تحت اشرعة الثلج المصطفقة ؟

— اتحملنا أشرعتك خارج الزمن ؟

— بل حتى الضاحية لاغير •

— ستجمد بردا هناك •

— فأذا التففنا بمعطينا •

— مع هذا •

— فمن الخير ان نكتفي بجولة حتى البيت •

— بل سننعطف حول منزلكم •

— اترين أمامك رؤية كافية ؟

— لانكاد نرى الاشياء واضحة في هذا الدخان الابيض •
كنا نسرع الخطى ، مصفين لاعتراك الزوبعة الثلجية وولولتها • ووقوفها
مرة لا قبلها ، والثلوج تتهاطل رذاذا يابسا مائلا • وحين اقتربنا من بيتها قلت
مازحا ، متسائلا :

— أهذا بيتك ؟

— سأدفع الباب ونرى •
واخذنا تنفض الثلج عنا ضاحكين • وكانت الشقة دافئة ، هادئة • •
وسألتهما وأنا احيطها بيدي :
— مارأيك بقدح فودكا ؟

— هذا شيء لا بد منه بعد جولة الليلة • وسنكتفي بقدح واحد من
فضلك ، لانني أريد ان اصغي الى الزوبعة ونحن في فراشنا •
كانت هذه آخر زوبعة ثلجية كما اتذكر • غير ان الثلوج ظلت تتساقط
رطبة واهية ، والبرد يشتد بين وقت وآخر •

ويجيء الربيع هزيلا باردا • • والبلل في الثلج الذائب والاشجار العارية •
وفي الهواء انقاس خضرة كامنة • وسرعان ما فتحت البراعم واخذت الخضرة
تلوح متزايدة لتكسو كل غصن طال مكثه تحت طائلة الصقيع • وها هو
الصيف يشتعل اخضرارا كثيفا نديا في كل مكان • وأقام لنا المعهد سفرتين • •
ركبنا الباص اولا ناحية بورودينو حيث التحم جيش نابليون مع الجيش
الروسي • كانت الارض سهلا منبسطة أخضر ، تحيطه مرتفعات غير عالية •
وأرانا الدليل بقعة خضراء حيث جرح الامير اندريه كما أراد تولستوي في
« الحرب والسلام » •

وكانت السفرة الثانية جولة في غابة ارخانجلسكوي • وهنا ضياع الامير
يوسوبوف قاتل راسبوتين ، قديما • وكان القصر متحفا يضم العشرات من

لوحات الفنية الثمينة • وتعدينا في الغابة •

قبل الامتحانات بأيام كانت لنا تنهياً لرحلتها الجنوبية • ستقضي شهراً عند البحر الاسود • وكانت مكتئبة المزاج ، غائمة النفس • وخلا حديثها من التهمك المازح • كانت تكره ان تركني وحيداً • ولم تشأ ان تسافر لو لم اكن شديداً في اقتناعها • كانت تريد أن تقضي الصيف كله ، معا ، في الضاحية • وكنت في وداعها ، في المحطة حتى آخر لحظة •

واجتزت الامتحان بلا مراجعة تقريبا • كانت هي نفسها خير عون لي في هذا • كنت اقرأ خمس ساعات يوميا ، لالتقي بها بعد العاشرة • • في غير امسية السبت • كنا حرين في هذه الامسية تتجول اينما يحل لنا • وغالبا ما كنا نقضي وقتنا في المتنزهات • وندخل السينما بعدها أحيانا • وكانت رايا تتلفن لي بين حين وآخر • ستسافر هي الاخرى بعد اسبوعين •

والتقيت برايا • وأي لقاء ؟ كانت لنا بيننا هذه المرة • وعدت ، مرة ، من نزهة معها بعد الحادية عشرة من الليل • كان هذا بعد يومين من الامتحان • كانت الامطار تهطل قوية ، غزيرة • وكنت أحس بالفراغ والقنامة في روحي بعد المرح المتكلف مع رايا • كان المنزل خاليا ، صامتا •

واردت ان افتح بابي • فرأيت شيئا لم اكن اتوقعه • رأيت ورقة شجر طرية خضراء ، خارجة من الثقب • ماذا يعني هذا ؟ واستللتها برفق • كان سويقها طويلا كافيا لادخالها • وكانت مبقعة بنقاط حمراء • من ترى ادخل هذه الورقة • هي امرأة ، لكن من هي ؟ وهبطت لاسأل المناوبة •

— هل جاء احد يسأل عني ؟

— كلا • لم يسأل عنك أحد • • حتى في التلفون •

قالت هذا ضاحكة ، متألمة حيرتي :

— اكنت تنتظر صديقة ؟

— كلا .

— فيم هذا التساؤل اذن ؟

— ربما جاء احدهم صدفة .

— يجوز . غير انني لم أر شخصا يسأل عنك . تفضل اجلس .

وجلست لاتذكر . ورقة شجرة ! ورقة من هذه الحديقة المتعالية فوق

المصاطب . . قبالة المنزل . أجل هي . اولاً . قالت انها قادمة في بداية

الصيف . وكنت ناسياً . ماكنت اتوقع بعد هذه الشهور . انما أهى هي ؟

أهى هنا ؟ وهل تترك هذه الورقة امرأة غيرها ؟

— قولى من فضلك . . أتعل عندنا ضيفة من ريفاً ؟

— من ريفاً ؟ لا ادري . دعني أر السجل اولاً .

ولم يكن الدفتر ليحمل ، بالطبع ، غير اسمين أو ثلاثة . فسيرياً ما

هتفت باسمه ، فرحة :

— آ . . من ريفاً ! أجل عندنا ضيفه من ريفاً . . هي أولاً . أهى

نفسها ؟

— أجل . في أية غرفة هي ؟

— في طابقك نفسه . . في شقة الجناح .

واخذت تضحك :

— بالطبع . . منزلنا فارغ . فأختارت ان تكون جارة لصديق لطيف .

هذا أقرب . لكن ماذا تنتظر وهم يترقبونك هناك ؟

وصعدت لاطرق على أولاً .

النار الخضراء

طرقت باب الشقة طرقا خافتا • ولم يكن مقفلا ففتحته • هي في واحدة من هاتين الغرفتين • أهى نائمة ؟ من يدري • كانت الغرفتان صامتتين ، موصدتين • لم تعد بعد • ولعلها في السينما • ما كانت لتضع ورقتها الطرية الخضراء لو انها ستتأخر هذه الليلة كلها • وكانت الامطار ماتزال في انهمارها القوي الغزير • وأخذت مكاني في بهو الطابق الصغير قبالة المصعد • ترأ • من هنا سأسمع المصعد حين يتوقف • وظللت اقرأ حتى الثانية عشرة • كان الطابق مقفرا صامتا • وتطلعت من النافذة • لم تعد الامطار تتساقط • وكان الطريق مبتلا ، متلامعا تحت اضواء المصابيح • وهبطت لاتمشى في هدأة الليل ، واشم الهواء • قالت المناوبة :

— الم تجد صاحبك ؟

— لم تعد بعد • سأجول قليلا وارجع •

وظفقت أسير حيال الاشجار الخضراء البليلة العبة • وكنت أرى ماء

المطر متقاطرا من العصون • بلغت مبنى البريد واستدرت • ووجدتها واقفة

نتظرة • هزني وجهها البيضوي المكثم وابتسامتها • فأسرعت أخذا وجهها قبله وهي تضحك :

— فيما بعد • كيف عرفت انني صاحبة الورقة ؟

— ومن غيرك ؟

— اكنت تنتظر ؟

— بالطبع • امثلك تنسى ؟

— سأملك هذه المرة اسبوعا ، حسنا ؟

— ليتك باقية هنا أبدا •

ورحت اقبلها ثانية :

— متى وصلت ؟

— اليوم صباحا • وهانحن معا من جديد • أنا عائدة توا من السينما •

واردت ان ندخل غرفتي • قالت :

— ولماذا هنا ؟ تعال الى غرفتي •

— طيب • انتظري لحظة •

أخرجت من الخزانة قنينة نبيذ وكرزا • وفتحت بابها • كنت الثمها

ويداي تبتلان بنقاط الماء العالقة بمعطفها المطري • واشرعنا النافذة لهواء

الليل • واخذنا نشرب • قلت :

— أحب ان اراك في ثوب النوم •

وخرجت لاعود بعد دقائق • كان الثوب ناعما منسدلا فوق امتلائها

الشهي • وكان النسيم يهز الستائر العريضة هزا خفيفا • وكانت تمشط

شعرها الكثيف • ورأيت في انصبابه الكستائي تموجا • وعادت السماء

تمطر ثانية عند الفجر • فأغلقت النافذة • كانت ناعمة جدا ، جميلة وكأنها

من نساء القصور في القرن التاسع عشر • وصحونا ساعة الظهر •

كان غداؤنا في مطعم صوفيا • وجاء النادل بانخمة البلغارية والخضر
اولا • ثم عاد بلحم الضان في المنقلة نفسها ، والفحم يتأجج تحت المقلاة • بعد
الغداء أحببت أن تتجول في متحف بوشكين • ومن هنا انطلقنا لتتزه في بارك
سوكولنكي •

كانت تحب أن تعد طعامنا بيدها • فمررنا في العاشرة من الليل بمخزن
الاطعمة وتزودنا بالخير الاحمر والوجبات شبه الجاهزة والفاكهة • وكنت
أحاول اعانتها في المطبخ فتردني ضاحكة • وكان جمالها كالثمرة اليانعة •
أحيانا في فراشها ، بعد ساعة عناق ، كان يطيب لها ان تجلس وتنحني بوجهها
علي لتقبل وجهي ، منحدره بفمها ويديها على جسدي ، وتتوقف حيث يلذ لها
لتتلهني اتهالا • وكنا نهض متأخرين عادة • فذا أذكر اننا افطرنا مرة •

بعد الغداء الشهي كنا نخرج على عربة الكفاس • ثم نركب الحافلة
الزرقاء الفاتحة حتى ساحة بوشكين أو بهو الاعمدة لنقوم بجولة • أحيانا
في الليل كنا نطفيء الضوء لنزيح الستائر عن النافذة المفتوحة • كان فمها
لذيذا جدا ويدها لطيفتين • وسريعا ما انطوى الأسبوع كحلسم •

وفاتني أن اتمتع برحلي الصيفية • فلقد تلكأت هذه المدة كلها ولسم
أمر على الادارة لاحجز • وظللت أياما لا اغادر غرفتي الا لاكل • كنت أقرأ
طوال النهار •• وحتى ساعة متأخرة من الليل • غير ان النهار طويل وممل •
فأتصلت بربا • كانت ترد علي ضاحكة :

— وأين كنت هذه المدة كلها ؟ طلبتك مرارا ولم تكن في البيت •
لابأس • سأراك مساء •• في السابعة • هناك ايضا عند السينما المركزية •
كان الرذذ ناعما في مهب الرياح المتلاعبة • وكنت أسير حيال
الازيفستيا • ورأيتها محتمة بمدخل بناية السينما القديمة • كانت في معطفها
المطري الضارب الى الخضرة • وكان شعرها المتعوج نديا •

- أين ترغبن ان نذهب ؟
 — وأي فرق ؟ مارأيك ان نركب الباخرة حتى بارك غوركى ؟
 — فكرة بديعة •
 كان وجهها ضاحكا • وكنا واقفين في المشى الخارجى من المركب •
 والرياح البليلة تتناهب شعرها :
 — أأنت منشغل مساء السبت ؟
 — كلا •
 — رائع • سنقضى الامسية معا • كنت متفقة مع اصدقاء لتمضية السهرة
 في شقة ما • سأعتذر غدا •
 — لكننى لا اريد ان احرمك صحبة زملائك المتعة •
 — ماذا تقول ! سيمرحون معى أو بدونى • في بداية الامر كنت افكر •
 أن نذهب • غير انك ستضجر • ولماذا ؟ سنتجول معا في هذه الايام الاخيرة
 قبل أن اسافر • كيف هي اخبار لينا ؟
 — تقول انها تتمتع جيدا بالبحر والشمس • وتنتظر منى رسالة من
 منتجعى •
 — ومتى ستسافر ؟
 — تصوري اننى نسيت أن امر على الادارة •
 — كيف ؟ أهذا شيء ينسى ؟ انك لغريب حقا ! وكيف ستعيش العطلة ؟
 أفى القراءة والكتابة ؟ أم ان هناك أمرا آخر ؟
 كانت تضحك خالية البال • وكان نهذاها المائجان بمعطفها يختلجان •
 وكانت تشرئب فيبين جمال عنقها الاتلع الناصع • وشفاتها المثلثتان لاتكفان
 عن افترار •
 — متى ستسافرين ؟

— مساء الاثنين • ألم أخبرك ؟

— كلا •

— اتريد ان تصحبني نهار الاحد الى الضاحية ؟

— وهل هناك نهار أجمل من هذا ؟

— يسرني هذا منك • ستتجول في الغابة • وسنسبح في البركة ايضا

قبل ان تتغدى بين الاشجار ، فوق الاعشاب نفسها •

في ليلة الاحد ، بعد المقهى ، كانت لنا جولة طويلة في حدائق الكورنيش وراء الكرملن • وصباحا كانت السماء صافية ، والجو مشمساً دافئاً • فركبنا قطار الضاحية الكهربائي • كنت احمل في حقبتي ما يلزم الرحلة من أطعمة وأشربة وأية • ولم أنس الجريدة نسطها مائدة لنا • وكانت رايا في بدلتها الرياضية الزرقاء المقاتمة كطالبة • وكانت مقبلة علي بابتسامتها الرائعة ووجهها وحركة يديها •

ورغبنا ان نسبح اولاً • كانت البركة مرتعاً مزدحماً بالعشرات • وكنا نسبح ضاحكين منطلقين • ثم تمددنا لنستريح • كانت الشمس تشتد توهجاً مع الظهيرة • فأرادت رايا أن تغطي وجهينا بجريدة تقينا وقدة الشمس • كان وجهانا متجاورين ، متلامسين بمنأى عن الاعين • ولم نكن نتقصد شيئاً • انما هو المرح ووجهها الناعم الحار • فأسترقت قبلة من وجنتها • لم تقل شيئاً • ولم تشح بوجهها • كانت صامته جادة • وكأن هذا شيء لا يعنيه • وكأني اداعبها ، وهي غير ملتفتة أو متنبهة • غير ان وجهها كان ممتعاً • فأخذت أقبل خدها قبلاً متباطئة • فلم تحرك • فأقتربت بفي من شفقتها ، ورحبت ألثم شفتها السفلى المثلثة • وفجأة انطلقت ضاحكة • كان ضحكها صافياً ، جذلاً لا تريب فيه ، ضحكاً لا يقول شيئاً غير اننا نمرح لاهيين • • بلا قصد ، بلا غاية ، بلا فكرة ما •

وأردنا ان تغدى • فأرتدينا ثيابنا ، وابتعدنا تحت اشجار السدياق
والبلوط • وأخترنا مرجا صغيرا تتلاعب فوقه أشعة الشمس • ففرشنا
الجريدة • واخرجت من حقيتي زجاجتي نبيذ أحمر وسمكا معلبا وفاكهة •
قالت رايا غامرة بعينها الراضية :
— قنيتان ! هذا كثير •

ومضت ، هي الاخرى ، تخرج من حقيتها سجقا وجبنا وخضرا وعلبة
كافيار أحمر وخيارا مملحا • وأبرزت زجاجة خمر قائلة :
— هذه •• فيما بعد •

ورفعت قنينة لافتحها • لكن أين هي الفتاحة ؟ ورحت ابحث عبثا في
الحقيبة وجيوبها • كانت رايا تضحك وهي ترى بحني اليأس وحيرتي :
— واضح انك نسيته • فيم تفتش حولك ؟

وتلمست باطن حقيتها • وكان ضحكها من نفسها أشد :
— وأنا الاخرى ايضا • لم تخطر لي هذه الاداة اللعينة لحظة •
— وماذا سنفعل ؟

— هذا سؤال مهم •
— هل أبحث في الجوار •• عسى أن اجد منزوى كهذا ؟
— لنجرب •

وبحثنا فيما حولنا بلا طائل • كانت رايا تتذمر :
— لو انها فودكا ! لما كان الامر يتطلب جهدا • لكن كيف بفتح هذه
الزجاجة المحكمة القوية ؟ كيف غاب عنا أن نجىء بفتاحة ؟ انجىء بكل شيء
ونسى هذه ؟ كيف ؟

— وما العمل الان ؟
— ما ادراني أنا ؟

فأعدنا كل شيء الى مكانه • واتجهنا الى الطريق • كانت المروج مائسة
بورودها العالية • وانحنت رايا تقطف باقة من الزهر • كان بنطلونها الضيق
بشد قوامها الملتف الرائع شدا قويا • ورممني بنظرة ضاحكة من بين ساقها
المليتين • وكنت وراءها امتع طرفي باتساقها الجسدي الساحر • كانت في
تنقلها ، ومشيتها المنطلقة مع النسيم وبجيدها الاتلع اشبه بالظبية النافرة •
وكانت تريد مني أن انحو نحوها في خفة خطاها وتوثبها في عناق مع الرياح
الشذية • ولكزتي بمرقها مرتين • وكنت قاصرا عن مجاراتها في هذا الخطو
الراقص • فأعزتي بحركة مباغته من ساقها فهويانا معا فوق الاعشاب الكثيفة •
وانقلبت عليها • كان صدرها لاهثا تحت صدري وعيناها تضحكان • كنت
أشد ذراعيها وكفيتها ، وفمي على شفيتها تقريبا • فاتبعت فجأة ، قائلة بصوت
متهدج خافت :

— مابك ؟

فتركتها • ووقفت نافضة عنها اوراق الزهور • وسريعا ماعدت مرحلة
متوئبة • قلت :

— هل نمر على المحطة أو أي منزل صيفي ونسألهم فتاحة ؟

— لكن ماقولك أن نبيت الليلة في العراء ؟

— ستعوزنا خيمة •

— لن يعوزنا الا بطانيتان • مع هذا سنأخذ خيمتي الصغيرة • هي في

سعة الشرف تقريبا • وقد لاندخلها الا ساعة حين تمطر فجأة •

— وقد لاتمطر •

— سنأخذها تحوطا •

— طيب • لنعد الى شقتكم •

— هذا بعد محطتين •• في منزلنا الصيفي •

- كانت تغمزني مازحة ، معايشة حنكي بسبابتها •
 — ستتغدى عندنا .. وتنطلق •
 — أمعك مفتاح ؟
 — مابك ؟ أمي هنا منذ أول الصيف •
 ونزلنا بعد محطتين • كانت المنازل الصغيرة متجمعة كالاعشاش وراء
 أسيجة الحدائق • قالت رايا :
 — ستزود بكمية كبيرة من حب الكباش •
 — لاتنسي أن تأخذي فتاحة •
 فضحكت خالية البال :
 — فعلا لو لم تذكرني لنسيت • وسأخذ مشمعا نقرشه تحتنا •
 وانطلقنا محملين • كان المتاع مشدودا فوق كتفي • وكانت رايا تحمل
 كيسا ممتلئا بالحطب • هبطنا بعد محطة واحدة • واجتزنا حقلا محصودا •
 واتجهنا صوب احرش البتولا والشرين • وحططنا رحالنا في المرج الاخضر
 المتماوج تحت الشمس والرياح • كانت الغابة غير بعيدة عنا • وهنا أو هناك
 تلوح خيمات صغيرة متباعدة • كان بعضهم قد سبقنا الى المرج •
 اخترنا بقعة مرتفعة قليلا ، ممهدة من قبل • ونصبنا خيمتنا الصغيرة
 الخفيفة بالقرب من حفرة لايقاد النار • وجعلنا مدخلها باتجاهها • • كان
 ارتفاع الخيمة أعلى من نصف القامة بقليل • لم تكن الا ملجأ من ديمة عابرة
 مباغته • وتركنا متاعنا في الخيمة لتتجول •
 واخذنا نقطف الزهر البري لنكومه حيث نبيت • واقترحت رايا ان
 نركض متسابقين ، عبر السهل المترامي ، حتى شجرة بتولا ترتفع منعزلة •
 وسبقتهما • فارتمت ضاحكة ، لاهثة ، ووجهها يشتعل تورا :
 — لماذا سبقني ؟ كان عليك أن تتخلف .. فأنا امرأة •

- لو كانت هنا جائزة لتخلفت •
- فلماذا لم تفكر بها ؟
- سأفكر في المرة القادمة •
- متى ؟ أنا راحلة غدا مساء •
- اذن بعد عودتك •
- آنذاك .. لن نجد وقتا •

كانت السماء عارية • وكنا مستلقين فوق مهاد من العشب الكثيف الاخضر • وكان شعرها معفرا بالزهور الناعمة المنسحقة • وكان نهداها مشرئين بقميصها ، ويداها تحت رأسها • فجأة رأيتها تنهض نصف نهوض متألمة ماحولها بعيني شادن يتوجس أمرا • ثم استلقت ثانية • كانت فخذها القويتان المليئتان تنطرحان طويلتين متباعدتين • وطفقت تترنم كالهامسة الحاملة :

لاشيء يسمع • • لاهيف ورقة
في هذه الامسية عند ضواحي موسكو

وكنت مصغيا بانتباه • ثم اخذت أقول لنفسي : اتذكر ؟ كانت لها هاتان العينان ، عينا الجؤذر الاغن ، انما كانتا دعجاوين • وصاح بها حموها لتعد الشاي لضيوفه • اتذكر ؟ كنت واقفا فقرصت فخذك وهي تمر بك في غفلة منهم • كان هذا بعد عرسها • وخرجت منصرفا بعد حين • ورأيتها تمشي في العتمة جوار الكوخ فتبعتها • فأمسكت بها بين يديك • فحاولت ان تتخلص منك • وكنت تقبلها وتدفع بها وراء كومة القش الهائلة • كانت أفخاذها تتقلب مليئة ناعمة •

- أين كنت ؟
- ان لك صوتا مؤثرا •

كانت الغابة مشتعلة بالشمس الغاربة ، وعلى المرج « لطف من السما
مسكوب » وأخذت يدها ، مداعبا ، لتنهض .. ان هناك اكثر من اربع خيم
متباعدة . وكنا نراهم يتحركون ، ويوقدون نيرانا . فأحسست انني في
قريتي .. حين يخيم العجر والرعاة منحدرين من البادية طلبا للكلا . وبالقرب
من الطريق الريفي المعبد تلوح خيمة هي اكبر الخيم واكثرها جماعة وحركة .
وكانوا يشوون لحما . وحين تبينوا في غريبا أئدفعوا ملحين ان نشاركهم
حفلهم . فشكرتهم ورايا مواصلين سيرنا باتجاه خيمتنا الصغيرة الواطئة .
أخرجت متاعنا وكيس الحطب . وفرشنا المشمع فوق العشب ، ومددنا
لبطانتين ، منطبتين عليه . ثم بسطنا جريدة فوق موضع ممهد مرتفع قليلا
شبه بمائدة منخفضة عند الموقد . وشغلنا بالحقيبتين نخرج ما فيهما من
فنان واطعمة . ثم اشعلنا حطبا في الحفرة . ورأيت رايا تضع زجاجة فودكا .
— وهذه من أين ؟

— جئت بها من الداجا .

— لكن لدينا ثلاث قنان .

— سيمر آخرون .. ولا بأس في دعوتهم .

كانت مائدة سفرية حافلة . بعد قليل جاءت فتاة من الخيمة المحتفلة
بسفودين مثقلين بقطع كبيرة من لحم الضان . فشكرناها واثقلنا لها من
فاكهة الحديقة حتى أخذت تضحك وتقول :
— هذا كثير .

واصررنا أن تشرب قدح فودكا . ورحت أهيء الموقد المتأجج لالقلب
اللحم فوقه . كانت رائحة الزهور المتكومة تفوح . وكنا نشم القثار شهيا
يتصاعد من النار . فصفت رايا مرحة :
— ها قد اكملت مائدتنا . سأفتح قنية نبيذ .

فأزحنا الفودكا جانبا • كان الليل صافيا طريا متلألئا بالنجوم الكبيرة •
والنسيم الشذي برائحة المروج والغابة يهب رائقا معتدلا • ومرفتي
وصديقتي متأخرين بعد نزهة بعيدة • فرحبا بدعوتنا ضاحكين • وفضلا
قدحي فودكا • وشربا واقفين •

واتتنا من الخيمة فتان اخريان لتمضيا بنا اليهم • فأجلسناهما لتشربا •
كانت عليهما لما نزل مغلقة • ولففت البقية من السجى والجبن لاوصد الحقيبة
عليها • ومكثنا ساعة مع القوم • كانوا لطفاء مرحين • وكان الرقص مبهجا
في العراء ، تحت السماء المزداة بالشعل الكوكبية الدانية •

وأحبت رايا ان تقوم بجولة • كان الطريق الريفي منقطا بأطياف من
المتزهين ، والليل في منتصفه • ووجدنا فتى ما يعانق فتاته مقبلا عند جذع
شجرة • فابتمدنا ضاحكين •

ثم اوقدنا النار ثانية • ان لدينا زجاجتنا الاخيرة • فاحتفظنا بها مغلقة
لشربها ساعة يروقنا أن نشرب • وتمددت رايا بطولها البديع كله ، متوسدة
ركبتي • وانبرت تتغنى كالهامسة • وكنت الاطف شعرها بيدي • وانحنيت
لاقبل وجهها ، فتوعدتني ، باسمه ، باصبعها • كانت تتغنى باغنياتها الحزينة
الخفيفة الشاكية • • وكأنها غجرية • وكانت النار متأججة في الحفرة • وكنت
مكتفيا بملامسة شعرها وكأنما هي طفلة • فسألني لفافة لتدخن • فأردت
أن نرتشف قدحا •

— كلا • • فيما بعد •

ثم نهضت لتقول :

— منذ ساعة وأنا اتوسد ركبتيك • لا بد من ان رجلك قد تخدرتا •

— كلا • تمددني ثانية واستمري في غنائك •

كانت النار تلون وجهها بمثل لون الشمس الغاربة • وكانت صامته
شاردة وكأنها في حلم ما • قلت :

— أأنت متعبة ؟

— قليلا .

— سأهيء لك فراشا مريحا .

ومددت المشمع باتجاه العراء ، قريبا من الحفرة الموقدة ، وفرشت
أحدى البطانتين فوقه . وتركت الثانية غطاء لها . وجعلت من سترتي
السفريّة وسادا . وكانت تقول كمن يخاطب نفسه :

— طيب . سأنام بكامل بدليتي الرياضية .

وكانت كالمتحيرة . ثم تذرّت بالغطاء صامته . وأنها لتلوح في تمددها
امرأة مكتملة البنيان ، كبيرة مغرية . ورحت اردد مع نفسي ابياتا لعمر بن
أبي ربيعة ، مستقبلا النار بوجهي :

وغاب قمير كنت أرجو غيره

وروح رعيان ونوم سمر

فبت قرير العين اعطيت حاجتي

أقبل فاها في الخلاء فأكسر

يمج ذكي المسك منها مقبل

نقي الثنايا ذو غروب مؤشر

تراه اذا ما افتر عنه كأنه

حصى برد أو اقحوان منور

وسمعتها تدعوني قائلة :

— تعال وتمدد هنا . . لا بأس . أنا بكامل بدليتي .

واضافت حين وقت :

— وهات القينة من فضلك .

كنا مستلقين تحت الغطاء . وكنا نهض نصف نهوض لشرب من

الزجاجة مباشرة • كان الهواء معتدلا • وكنا نسمع أصوات الغابة والمروج الليلية • وابتعدت القنينة كيلا تنسكب • وواحدت رايا بين يدي ملاحظا • لم تتحرك ولم تمنع • انما همست كالمعاقبة وأنا اقبل وجهها :

— لايجوز هكذا •

— ادري لايجوز.

— فلماذا اذن ؟

— لا قبلك •

لم تقل شيئا • فرحت اقبل جيدها وشفتيها • ولم تكن لتردني أو تتحرك لتأى بفمها عني • كنت الثم وجهها كما اريد • كان صوتها مرتعشا واهنا :

— لماذا هذا ؟ لماذا ؟

ونزعت بنظروني في هدوء • وارتدت ان انزع قميصي • فسمعتها تقول هامة بالصوت المتهدج نفسه :

— لاتنزع قميصك • ستبرد •

وكنت اقبلها صامتا • لاسألها شيئا •

— انتظر • سأنزع • انما سأبقي على قميصي وحده • لا بأس ؟

وسريعا ماوجدتها بين ذراعي • كانت النجوم تتلامع فوقنا ، والغابة عن قرب تنفس • لم اعد أرى رايا المرحمة المتهكمة • كانت امرأة مكتملة تهمس لي بألذ وأرق مايمكن ان تهمس به امرأة بين يدي رجل • أمرت ساعتان ؟ ثلاث ؟ ربما • ثم اخذنا الزجاجة لنفرغ منها •

— اتصدقني ؟ ماكنت لافكر بشيء من هذا •

— أنا ادري ان الامر كان بعيدا عن ذهنك •

— كنت اتصور اننا سنظل متمددين بشبابنا كلها •• حتى يغلبنا الشراب

والنعاس فنغفو •

— مع هذا .. كان الامر جميلا في العراء •

— بالطبع • كان ممتعا جدا •

— ماقولك في أن ندخل الخيمة ؟

— اتحصن ببرد ؟

— بعد هذا ؟ كلا •

— طيب • لنبرد هنا في هواء المروج العليل • وسندخل فيها بعد • قل

لي مع ان سؤالي مضحك ، أكنت تظن ان هذا سيحدث ؟

— أهنالك رجل لايفكر باحتوائك بين يديه ؟ بالطبع لم اكن اتقصد شيئا

اول الامر • انما بعد ان تمددت بطولك تحت الغطاء ..

— حاولت ان اصدك برفق .. ولم استطع •

— وكنت سألح •

وانتقلنا بفراشنا الى الخيمة • ولم تعد بنا حاجة الى قميصين • انني

لاتذكر انحناءها علي بيديها وفمها تلمسني وتتهلني اتهاالا .. ووجهها

مشتعلا بانعكاس الجمرات المتوقدة عليه •

كان النهار يمر مطرا باهتا • والليل يهبط متأخرا • لاشيء غير القراءة

في مقهى الشباب والتبغ والقهوة • وكانت رسالة لينا الاخيرة معنفة لي لائمة •

كيف أفوت علي رحلة جنوبية شيقة • كنت اخبرتها في خطابين انني مزعم ان

اسافر • ثم كتبت ، متذرعا بالقراءة ، انني مقيم • فلم تشأ ان التقيا في

المحطة • كانت غضبي تماما • واكتفت ذاكرة انها عائدة بعد أيام • غير انني

كنت اعلم انها عائدة قبل آخر الشهر •

ابتعت قنينة فودكا وبطيختين • هذه فاكهة لاتبت في حديقة الداجا •

وانطلقت في القطار الكهربائي •

كانت أمها في الحديقة تقطف تفاحا • حييتها وسألتها عن لينا • قالت

انها تجمع الكماة في الغابة • وأشارت بيدها :

— ستجدها بين تلك الصنوبرات • ستفرح كثيرا برؤيتك •
وتركت كيبي عندها • وسرت باتجاه الصنوبر • فلم اجدها هناك • أين
ترى هي ؟ كنت ابحث متحيرا • ورأتني امرأة كهلة اتلفت فسألتي :

— اتبحث عن احد ؟

— اجل • أنا ابحث عن صديقة تجمع الكماة •

— أهي الجميلة • • الممتلئة ؟

— اجل •

— تعال معي وسأدلك •

فأخذنا نسير باتجاه آخر • وقالت بعد ان انعطفنا حول اشجار عتيقة
ضخمة متشابكة :

— انها هناك • اترى البتولا العالية تلك ؟ هي هناك •

ورأيتها وظهرها لي • كانت سلتها بالقرب منها ، وهي تنتقي الكماة يدين
خبيرتين • قلت فرحا :
— لينا •

فوقفت متأودة ، وعلى وجهها الشاحب حمرة مباغتة • وظلت محدقة
بي وكأنما هي تراني لأول مرة :
— هذا انت ؟

وسألتي بعد عناق :

— كيف فوت عليك رحلتك ؟

— شغلني القراءة •

— أهو بروت آخر ؟

— كنت أقرأ

— بل كنت تتسكع •

— اقرأ • • واتسكع • لنمض •

— سنجمع مقدارا آخر .. وتنزه .

كان شعرها الاشقر الغزير يتوج رأسها بتسريحة بسيطة . وكان ثوبها منسدلا فوق اروع امتلاء يمكن ان تحظى به امرأة . وتذكرت اولاً . ان لينا لاكثر امتلاء منها . مع ان هذا لا يكاد يبين لو انها وقفت معها . ربما لان لينا اطول منها . ولان بطنها اكثر انبساطا . وتذكرتها في روب العمل الازرق النيلي ! حين تكون المرأة جميلة فهي جميلة في أي رداء ترتدي ! حتى في بيجامة الرجل أو سترته ! بل ان جمالها سيلوح اشد غرابة واثارة ! وسألتني :

— هل جئت معك بكتب وثياب ؟

— لماذا ؟

— لكن الدراسة لن تبدأ الا بعد اسبوع .

— وهل انت مأكثة هنا ؟

— بالطبع .

واضافت بعد قليل :

— سأنهض مبكرة كل صباح . واعدود سريعا في القطار الكهربائي . وانت ستقرأ طوال النهار .. متجولا في هذه الغابة والمروج . وحين سل يمكن ان تنزه في امكنة اخرى . وما اكثرها هنا . وستسبح حيث يسبح العشرات في البركة . هذه فرصة بديعة لاكتشاف الضاحية . ثم ان العزلة في هذه الطبيعة الساحرة تجعلك تقرأ اكثر .. وستلهمك بقصيدة ما .

حين تنحني لتجمع الكماة كنت انحني معها لالثم وجهها الشاحب أو ذراعها المنكشف ووجتها الفسقية . وكنت اتملى انحاءها البديعة الاخاذة ممتلئا رغبة واعجابا .

— اذن مثلما قلت لك . ستركب القطار غدا صباحا ، وتعود بما تشاء من كتب وكفايتك من الثياب . وحتى حين تبدأ المحاضرات سنواصل ميّتنا

هنا • وسركب مبكرين كل صباح • وسأنتظرك مساء كل يوم قرب المنزل
لتحمل معك مابك حاجة اليه لدراسة الغد • وهكذا حتى آخر يوم من ايام
الصاحية • سترى أية اوقات ممتعة تنتظرك هنا •

كانت أمسية مرحلة حول المائدة • وكانت لينا ترفع بشوكتها قطعة
صغيرة من البطيخ ، وتأملها قبل ان تقضم منها بأسنانها المنتظمة الناصعة
الجميلة ، وتقول أخذة هيئة جادة :

— هذه اول مرة اتذوق فيها بطيخا على مائدة شراب • قل لي من
فضلك كيف خطر لك ان تجمع بين هذه الفاكهة الغريبة والفودكا ؟
فأسرعت أمها قائلة :

— مثلما خطر لك ، في الحافلة ، ان تجمعي بين حزنه الغريب ورغبتك
فيه ، لتذوقيه تذوقك هذه القطعة الغضة بأسنانك القوية •
— كلا • ماأنا كذلك • هذا هو • لايراني الا جسدا •

— لو كان كذلك لهجرك بعد يومين •
كانت أمها جادة مرحلة في الان نفسه • وكنت استعيد صورة لينا حين
رأيتها في الغابة غافلة عني وكأنها حورية الغابة أو راعيتها • هي في الغابة
غاية حاملة ، وفي الشارع سيدة من ألهة الخطى المتناقلة • وفي فراشها كالعروس
في أول ليلة • وكنت معها كالسباح في غدير النور النقي الكريم • وسبحنا معا
تلك الليلة في هذه المياه القمرية الصافية ، مياه كل ليلة معها • حين أخذها
بين يدي كنت أحس انني اعاقق ملكة متوجة • وكان يياضها النقي كاضوية
النيون •

في ساعة الصباح المبكرة كنا نجمع التفاح المتساقط ، وقد طوحت بـ
زوبعة الليل المرعدة المطرة • وكان الرعد يوقظنا من نومنا بانقضاست
الرهيبة • فنفرع فاحية النافذة ، ملتفين بالشرائف الناصعة لتأمل البرق

متشظيا ، ونمتع الطرف بالمطر المنسكب . أنذاك كان وجهها ساهما حالما كوجه
فلاحة ترقب نعمة السماء . وحين تتكسر الرعود متحطمة فوق سقنا ،
منتشرة ، متجاوبة بعيدا فوق الغابة والسهوب . . كنت أرى وجهها ، وقد
اضاءه البرق قبل برهة ، كوجه وثنية تتلبسها قوى الطبيعة الغامضة الهابة .
وأحس بارتجافه ما في بدننا . وكنت اتركها لسكونها وافكارها . وحين
تمسك يدي كالخائفة كنت أشد ظهرها بذراعي فتلوذ بي كالليامة لائذة
بذكرها . غير انني حين افتح عيني واجدها صاحبة قبلي ، مع الزوبعة المباغته ،
كنت أراها حانية علي ، وكأنما هي تدفع عني خطرا ما بتعويذتها الصامته . .
فاتذكر طفولتي القروية الضائعة . وتسرع بتغطية تديها يديها وبشرشف
النوم الابيض .

وها هو الخريف ذهبيا أزرق يطوق الضاحية . وها هي الرياح تلذعنا
ببردها . فأقمنا الداجا ، وقطفنا آخر ثمرة متبقية .

كانت استاذتي في اللغة ، نينا كورنييفا ، طيبة وديعة كحمامة . وكنت
من بين طلبة الكورس طالبها الوحيد . . ولم تكن لها معي غرفة خاصة
بالدرس . فكنا نقضي ساعة اللغة في أي مكان نجده هادئا أو خاليا . . في
صالة القراءة ، في غرفة الاطفال أيام القصر الارستقراطية أو غيرهما . وكان
احد العاملين في المعهد متيما باستاذتي . كان وقورا خجولا يحيينا بأدب جم .
كان وجهه يتخضب حمرة كوجه عذراء كلما أبصر بها . ولعله كان يحسبني
أسعد العاملين لالشيء غير انفرادي بها ساعة من كل يوم .

لم تكن لتريحها نظرة الاستاذة الشابة الي . غير انها تبتهج مرجبة بتقرب
غالينا مني ، ووقوفها المتعمد حيث أقف متأملا لوحة ما على الحائط . كانت
غالينا تقف ملازمة كنفي بكتفها ، أو فائضة من جانب الي نظرتها الطويلة
الحارة . بل رأيتهما ، مرة ، سائرة حيال مقهى الشباب ، وكنت أقرأ فيه . كانت

تطلع الي بنظرها الطويلة ، وفي عينها حيرة وتساؤل • ربما كان هذا منها صدفة • غير ان صاحبها كانت معنا في هذا المقهى قبل يومين • ولقد رأيتهما تتهامسان اكثر من مرة وأنا أمر بفرقتهما في المعهد • وكانت هذه الحميراء المشاكسة تكاد تهتف أن اقترب فعالينا تنتظر • بل رأيتها ، مرة ، تدفع بها نحوي دفعا ، وكانت غالينا تطرق برأسها خجلا ، متوردة الوجه • وكانت الحميراء ترمقني متضحكة •

السما زرقاء ندية حينا ، مكفهرة ، مدلهمة اكثر الاحين • • وكنت أحس بارتياح كلما كانت السما غائمة باردة بلا امطار ، وأنا اتجول في ماشي الحدائق ، تحت اوراق الخريف المتطايرة في الرياح • وكان مقهى الصداقة ، في كوزنيتسكي القديمة ، ما يزال قائما بمظلاته فوق موائد الحديقة • كنت أتردد عليه في هذا الوقت من السنة • • أنجرع كأس كونيالك ، جالسا ساعة ، متأملا اشجار الشارع الخريفية والسابلة ، عصر الثلاثاء خاصة • كانت الزهور في احواضها من حولنا • • وكنت بمنجى من الرذاذ تحت المظلة المخططة بالاحمر والازرق • وكنت ارى نادلته الشقراء الجميلة • • فأتذكر نينا الضائعة والكراسي الصفرة في البهو من فندق موسكو • كان اليمام يتخافق أو يحط لاهيا عن قرب ، والرياح تهز قمم الاشجار المصفرة • وثمالة الكأس كالشمس المنطفئة •

كانت لينا غائبة في مهمة عمل منذ اسبوع • ولن تنقضي غيبتها الا بعد شهر • فكنت لعود وحيدا ، متأخرا في الحادية عشرة من الليل ، بعد ساعات في مكتبة الاداب الاجنبية • وكانت الغرفة موحشة صامته •

ومرة دعتنا استاذة جيلي لنشاهد فلما في السينما المركزية • وكنت آخر الحاضرين • كان جيلي جالسا بين ابنة الاستاذة وصديقتها • وكاتنا مرهقتين • ورأيت جيلي محتقنا بينهما • وكانت الاستاذة مع زوجها • •

وكانت غالينا جالسة ايضا ! وكان مقعدي جوارها • ورأيت عينيها تأتلقان في العتمة وهي ترمقني • وعرفتني الاستاذة بزوجها مازحة :

— ان له من بوشكين اسمه واسم ابيه لاكثر •

وحين خرجنا قالت الاستاذة :

— هل نوصلك ياغالينا ؟

— شكرا • يمكنني أن اصل هكذا •

وحين وجدتني صامتا اشاحت بوجهها الاسيل ممتعة • وتركنا

لتنعطف يمينا باتجاه ساحة مايكوفسكي • فأسرعت قائلا :

— كانت معنا • ينبغي أن اوصلها •

قالت الاستاذة ضاحكة :

— اكنت تنتظر ان اوصلها أنا ؟

ولحقت بها بعد خطوات :

— جئت لاولئك •• بعد سماحك بالطبع •

لم تقل كلمة • ولم تتوقف • انما رمتني بنظرها المشتغلة زرقة

وارتيابا • وظللنا نسير صامتين • كان الرذاذ ناعما ، والرصيف عاجا بالخطى

المتسارعة والوجوه الضاحكة • قلت وكنا نقتررب من مطعم باكو :

— اتسمحين لي بدعوتك الى المطعم ؟

— شكرا • لاضرورة لهذا •

— لكنني أود كثيرا ان اجلس معك •• واتحدث •

— ولماذا في مطعم ؟

— واين تودين ان نجلس ؟

— في المقهى •• مادمت تريد •

— اليس المطعم اكثر امتاعا مع الموسيقى ؟

كانت عيناها الزرقاوان الكبيرتان تتقدان شررا • كانت في الرابعة والعشرين من عمرها • واعتها في نزع معطفها • ورأت قوامها الالهيف الطويل فتذكرت انحناءتها لي في البوفيت ، وهي تتقي البرتقال • كانت ضيقة الخصر ، ملتفة باكتافها وافخاذها التفافا ممتلا رائعا • وسألها بعد رقصتين وأنا اصب الخمرة في قدحينا :

— لماذا تنظرين الي كالمتوجة ؟

فضحكت ضحكة خافته :

— كنت أظن انك ستوصلني •• من غير هذا كله •

— وأي ضرر في ان تتعشى معا ؟

— وأي ضرر فيما لو أكتفينا بجولة ؟

— هل يمكنني رؤيتك غدا ؟

— ولماذا لا ؟

وفي ليلة الاحد ، بعد آخر محاضرة ، كنا في الطريق نفسه • قلت :

— سأوصلك حتى بيتك •

— لا بأس •

وكان بيتها قريبا • وعند مدخل العمارة قلت :

— كنت أود ان نقضي الامسية عندنا •• غير أنني اعرف انك

ستعتردين تخرجنا من الآخرين •

— بالطبع سأتخرج •

— أمن الممكن عندك ؟

— ممكن •

قالتها متبسمه ، متكئة برامي • قلت :

— لنمر على المخزن اولا •

كان الليل باردا ممطرا • وطوال الليل كانت غالينا عارية بين ذراعي •
وبعد يومين رأيته متغيرة ، منقلبة تماما • كنا متفقين ان نلتقي عند السينما
المركزية بعد الجرس الاخير • وكانت الاستاذة الشابة راغبة أن اوصلها •
وهل كنت لارفض لها طلبا مثل هذا أو اعتذر عنه ؟ ولقد رأينا غالينا تتهامس
في المر • فاشتعلت عينها حنقا وريبة • ولعلها رأتنا معا عند مسرح
بوشكين • وترقبت فوجدتنا منحدرين معا ناحية كيرتسين • فكان
انقلابها مريرا لاتسامح فيه • مرة لم تجد استاذتي مكانا غير غرفة غالينا •
فأخذت الحميراء بالضحك حالما رأتنا داخلين • أما غالينا • فلم ترفع وجهها
عن اوراقها مدة طويلة ، مفتعلة صمتا مطبقا • وكانت استاذتي ، وقد وضع
لها الامر ، تتأملها باسمة ، ملقية علي نظرة مؤنة •

كانت الساعة حوالي التاسعة والنصف • كنت عائدا من مكتبة الاداب
الاجنبية فرأيت ان ادخل السينما •

كان شباك متروبول مغلقا • فوقفت مع غيري من العشرات عسى
ان اجد تذكرة زائدة عند احدهم • كان الثلج رطبا ذائبا • وكنت اتفرس
المارة • فاتبعت لامرأة شابة رائعة الجمال ، ظاهرة الاناقة • كانت مع
سيدة عجوز • وكاتنا تذرعان الناصية جيئة وذهابا •

كانت غريبة في هيئتها وكأنها أتية من القرن التاسع عشر • لم تكن
ملتقته لاحد فيما بدا لي • كانت مرتفعة القوام ، ممثلة ، مكتملة الساقين ،
تلف تسريحتها العالية بمنديل ابيض مخرم • وكان شعرها أشقر غزيرا •
أهي مثلة ؟ وتقدم مني شاب وصديقه :

— اتريد تذكرة ؟

— سأكون شاكرا لكما •

واخرجت روبلا • قال :

— كلا . لن أخذ منك أكثر من سبعين كويكا .
كان ثمن التذكرة خمسين كويكا . ورأيت السيدتين تدخلان .
كانت في السينما صالتا عرض : زرقاء وخضراء . وفي زحمة الممر سألت
السيدة العجوز وأنا اعرف الاتجاه :
— اهذا هو الممر الى الصالة الزرقاء ؟
— اجل . نحن في طريقنا اليها .

أجابتي بابتسامة لطيفة ، وببرة أحسست معها أنها مدركة أي مسعى
أروم . وكان صفي وراءهما تماما . وفي آخر الصف كانت فتاة ثقراء
فاتنة وكان مقعدي فارغا جوارها . وحين جلست رأيت السيدة الجميلة
تلتفت لأول مرة . كانت تتفحص الفتاة بعينها الزرقاوين الكبيرتين . ولم
تكن نظرتها اليها نظرة ارتياح .

بعد السينما ادركنهما في الشارع . وسألت السيدة العجوز :
— هل أستطيع أن اسألك ؟
— تفضل .

قالتها مبتسمة ابتسامتها العارفة اللطيفة .
— ارجو معذرتك اولا . لانني سأسألك سؤالا هو الف هـ ول
بعينه . ومع انني اعرف هذا فأنتي مرغمة لان اسأل .
— انتي مصفية .

— اهذه السيدة الشابة ابتكتك ؟

— اجل هي ابتتي .

— ما اسمها من فضلك ؟

— اسمها لاريسا . لماذا لاتسألها هي ؟

كانت تبسم بلطف . أما ابتتها فكانت تحدجني في غموض .

- كيف يمكنني أن أسألها ؟ هذه سيدة لا ترى إلا في حلم • وأنا الآن
 كالحالم ويخيل لي إنها ستختفي حالما اقلق سكونها بكلمة • • تماما كما
 يختفي الحلم حين نصحو فجأة • • ماهي الا طيف أو رؤيا •
- أوكد لها أنها امرأة كغيرها • وليست طيفا •
- كغيرها ؟ كلا • ماهي الاسيدة من القرن التاسع عشر • لانراها
 الا حاليين • • أو في قصائد الشعراء ولوحات الفنانين •
- من القرن التاسع عشر ؟ كيف ؟
- اترين خطوها الطائف ، والظلال المحيطة بوجهها ؟
- اتذكرك بامرأة ما ؟
- أجل • • بغريبة بلوك •
- كانت تضحك ضحكا صافيا • وكانت ابتها ترمقني متفرسة في
 وجهي • مصغية باتباه •
- هي فعلا غريبة • انما ليس كما تعني •
- كيف ؟
- هي غريبة بتكبرها وعنادها • وأنا احذرك منها •
- وكيف لا تتكبر • • بجمالها هذا ؟
- أهي الجميلة الوحيدة ؟ ما اكثرهن !
- أليس هذا جمالا غريبا ؟
- أنا أراها بعيني أم ، لابعيني شاعر •
- فجأة سألتني ابتها • كانت في الخامسة والثلاثين ربما :
- لم تركت • • تلك الفتاة •
- لم يكن لي معها شأن •
- آ • • ظننت انك ستصحبها •

كانت سكناهما قريبة • وتوقنا عند مبنى هائل مرتفع • واخذت
الابنة تسألني أين اسكن ؟ ومن أين انا ؟ وودعتني امها شاكرا اني
اوصلتهما • وصاحت بها ابتها :

— سألق بك بعد قليل •

— طيب • ولا تؤخريه بأسئلتك •

وحين سألتها :

— أأنت مثلة مسرح ؟

اتسعت عيناها وهي تنفخني مبتسمة :

— كيف عرفت ؟ أنا لا اعمل هنا • أنا اعيش في لينينغراد • كيف عرفت ؟

— حالما رأيته عند السينما عرفت •

— لكن كيف ؟

— ربما هي مشيتك ووجهك • هيئتك غير اعتيادية •

— ربما • اتدري ؟ أنا مسافرة غدا مساء •

فهتفت متألما :

— كلا • لماذا تسافرين ؟

فاتسعت عيناها ثانية ، وقد ابصرت بالالام في وجهي ، وسمعتني في

صيحتي • فأبتسمت قائلة :

— كيف لماذا أسافر ؟ أنني اعيش واعمل هناك • اسمع • • فعلا كنت

أظن انك ستتعرف بتلك الفتاة •

— أنا لم ادخل السينما الا من اجلك • لم اجد تذكرة اول الامر

فهتمت بأن اغادر • ورأيتك فظلمت أنتظر • لو تعلمين كم سررت حين رأيت

أنا في صالة واحدة • لكن كيف ؟ كيف يتحطم هذا الحلم ؟

— اتألم وانت لم ترني الا مرة واحدة ؟

- ليست هي مرة • منذ سنين وأنا احلم بك •
- أحقا ؟ لكن فيم وقوفنا في البرد ؟ لنقف في المدخل •
- ودفعت الباب • ووقفنا قبالة الدفاعة •
- كيف تركت فتاة جميلة ، كان واضحا أنها راغبة بصدافتك ؟
- هي جميلة • غير ان لك جمالا آخر • • جمالا غريبا !
- وأية غرابة تجد في ؟
- ان لك خطى امرأة من عصر آخر • وحول وجهك وقامتك هذه
- الظلال الغريبة • • وكأنك تسيرين في مدن دستوينفسكي •
- اتدري ؟ هذه اول مرة اسمع فيها من يقول ان لي جمالا غريبا •
- مع أن لي أدوارا في مسرحيات من القرن الماضي •
- اية تعاسة ان افترق عنك لحظة لقائي بك •
- قلت انك تسكن في • • ما اسم هذه الناحية ؟
- دميترسكوي شسيه •
- آ • • انها بعيدة تقريبا •
- اسمعي من فضلك • أنا اعرف ان الساعة متأخرة • لكنني لا اريد
- الا ان اتحدث معك وأتأمل وجهك حتى الفجر • اتسمحين لي بدعوتك • أي
- عبث أن اتركك عند هذا المدخل !
- طيب • سأقول لك شيئا • كنت أرى جيدا كيف كنت تتأملني
- عند رصيف السينما • وحين وجدتك بالقرب من تلك الفتاة كنت أقول
- لنفسي : لو انه سيعرض عنها ويتبعني أنا لامضين معه • اكنت تتصور هذا ؟
- مع انني متكبرة كما تقول أُمي •
- في الركن من المنعطف كان كشك تلفون • فدخلته لتتلفن • ثم خرجت
- منه ضاحكة ، رشيقة الخطى مع امتلاء ساقيها وطولهما الرائعين •

— اتدري ماذا قالت أمي ؟

— ماذا قالت ؟

— قالت كنت اعلم انك ستذهبن معه .. منذ التفاتتكم ناحية الفتاة .

واجتزنا الشارع لنوقف التكسي . وكانت تسألني مازحة :

— السميت نادما انك تركت فتاة من اجل امرأة مسافرة غدا ؟

— بل سأندم طوال عمري لو انني لم اتبعك .

كانت ليلة غريبة . كنت أقبل يديها وجبينها الكريم حالما اعتتها في نزع

معطفها ورأيت جمالها الجسدي الغريب بلا معطف . وظلمنا نشرب حتى

الثانية . وكنت أقبل امرأة لم اتعرف بها الا في ساعة متأخرة من الليلة

نفسها . وكان عريها باذخا عجائيا ، عري امرأة في الخامسة والثلاثين .

وطوال الليل كنت هائلا في مهادها الزنقي الوثير !

كان الشارع متألقا تحت عتمة الليل المكفهرة المبكرة . والوجوه

المرحة تتابع في اتجاهين . وكنت مرهقا بعد المحاضرات . وفي الحافلة كنت

اتطلع عبر الزجاج الندي . وجواري فتاة هزيلة ، زرية الهيئة . وابصرت

بأمرأة طويلة من الهات الخيطي المتثاقلة ، واقفة بالقرب من الباب ، وفي

وجهها اعتداد وتكبر . وطوال الطريق كانت تتفحص جارتي ، من عل ،

كالساهرة المؤنبة . كانت نظرتها قاسية تكاد تقتلع الفتاة من مكانها . كانت

جميلة بالرغم من أصباغها البادية ، الرطبة فوق وجهها كالطلاء .

فيم هذه النظرة المتكبرة الساخرة ، لم تفتأ تلقيها فوق هذه الفتاة ؟

فيم هذه القسوة كلها ؟ ولم تطق الفتاة صبرا . فانسلت لتجلس في مكان

آخر . فانصرفت المرأة عنها كالظافرة . ووجدتها تتأهب لتهبط . فتبعتها .

ورأيتها تقف بعد خطوات ، خافضة رأسها كالمنتظرة . حيثها وسألتها عن

شارع ما . وظللت أسير معها متحدثا حتى توقفت عند مدخل عمارة . كان

حوارا عابرا • كانت تسألني وكنت أجيب : من أين انا ؟ وأين أدرس ؟ وأين أقطن ؟

كانت خصملاتها الشقر الثقيلة منحدره تحت قبعتها • وكان فمهما مستلنا أحمر بشفة سفلى بادية الثقل • قلت :

— امن الممكن دعوتك ؟

— الى أين ؟

— الى المطعم •

— لكنني غير مهيئة •

— سأنتظرك حتى تنهيأ •

— هذا يتطاب وقتا • انتظرنى عند سينما أريول بعد نصف ساعة •

وعدت لاركب العاطلة • ونزلت بعد موقمين • ومررت لاشترى من المخزن زجاجة كونيأك وعشاء • فلربما •

جاءت بعد عشر دقائق من انتظاري لها • ولم اكّد اعرفها اول الامر • كانت في هيئة مغايرة • وكان وجهها باسما ، لينا :

— لكنني رأيت هذا الفلم في سينما اخرى •

— اذن لن ندخل •

وققلنا متمهلين حيال روستافيلي •

— مادمنّا قريبين من منزلي •• اتسمحين لي بدعوتك •

— ممكن • غير انني لن اتأخر عندك •

وحين وجدت مائدتي معدة في انتظارها ، ضحكت قائلة :

— كيف عرفت اننا لن ندخل السينما ؟

— كنت أود ان تتعشى معا بعد الفلم •

— اتعلم ؟ هذا انتباهة منك •

كان اسمها لوسا • وكنت أفكر بقولها أنها لن تتأخر • أهى جادة في

هذا ؟ أم انها قالته شأن اية امرأة تريد ان نظنها أقصى منالا ومنعة ؟
ووضعت اسطوانة فوق الكرامفون القديم • وكنت أحس بديب النسوة
في عروقي • كان الكونياك حادا ، قويا • وسألني في دلال أخاذ ونحن
نرقص :

— هل ستكتب عني شعرا ؟

— اجل •• سأكتب •

— وماذا ستقول عني ؟

— سأقول انني التقيت ، صدفة ، في الحافلة بأنا كارينينا !

— اتجديني شبيبتها كما صورها تولستوي ؟

— هذا أقل مايقال عنك •

— آه منكم انتم الشعراء ! لم تنفكوا تحيطون المرأة بهالة اعجاب حتى
توقعوها وهي غافلة ، ثملة بالمديح •

هذه المرأة الفارعة الجميلة •• ألم تكن غريبة قبل ساعتين ؟ وها هي في
غرفتي متجلمة لي ، غير طامعة بشيء مني غير ان تنعم بوقت ممتع وبتجربة •
وأنا العائد المتعب •• أكنت افكر بصحبة امرأة ودعوتها ؟ وهي المرهقة الخالية
البال •• أكانت ترتقب شيئا من هذا ؟ لا اظن • انما هي الصدفة لاغير • ولو
انتي ظللت قابعا في مكاني من الحافلة ، كما جرى لي مرارا ، لاضعتها ،
ولخسرت هذه الليلة البديعة •

لم نكن لنفكر بأي شيء غير اننا معا • ولربما سكرنا • فما اتبعت الا
على قبلاتنا الطويلة ، واحتضاني لها بيدي • واخذت بذراعها برفق • فنهضت
كالمتردة • ودنوت بها من السرير • فجلست لتحل شعرها • وتعمدت ان اتأخر
عنها لتتنصو • وحين عدت كانت في قميصها وحده ، وشعرها الاشقر الثقيل
يتهدل متموجا • كانت الساعة المنبهة فوق طاولة السرير •• فجعلت تديرها
وتحركها في تأن ، لايقاظها :

— لن تتذمر من رنينها فجرا كما أمل منك ؟ —
— مطلقا .

وكانت هي الرقة القصوى واللفظ كله . ومساء السبت كنت انتظرها
عند مترو مايكوفسكي . وانعطفنا قاصدين مطعم باكو . وفي الجانب الآخر ،
قبالة مائدتنا ، كان جمع من الشباب محتفلا بابتهاج . وما كنت لأعيرهم
انتباها . غير ان وجها بينهم ، وجه فتاة ، أدهشني بتفرسه في . أهـي هي ؟
كانت عيناها لا تكفان عن تأملي . واغتم وجهها كمن يتألم أو يتذكر حادثا
محزنا . كانت ضاحكة ، منطلقة قبل حين . فمادهاها ؟ اجل هي . كانت عيناها
براقتين كما كنت أعرفهما . غير ان شعرها بلون آخر . لم يعد كستائيا
داكنا . كان مصبوغا باللون اللؤلؤي الأشهب . واتبه اصداؤها . فالتفتوا
حيث تصوب عينيها المشتعلتين . فأروني ، فوجموا لحظة . ثم عادوا الى
مرحهم . ولم تقل لوسا شيئا . فأنصرفت متحدثا معها ، شاعرا بعيني كاتيا
علي . وجاءت النادلة فأوصيتها . كان النيذ سائغا مبهجا .
بعد أقل من ساعة فتحت النادلة لنا زجاجة شمبانيا .

— من بعث بها ؟

سألها لوسا غير مكترثة تقريبا .
— تلك المائدة المحفلة .

فهزنا رأسينا شاكرين . ورأيت ابتسامة واهنة في وجه كاتيا . وتأملت
لوسا لحظة . ثم همست لي :
— اعرفهم ؟

— أجل .

ولم اكن اعرف منهم الا كاتيا .
— يلوح لي انهم من المثليين .

— أجل • التقيت بهم في حفل •

ورددت عليهم بزجاجة شمبانيا • فشكرونا متلهلين • كان المرح عاما متعاضدا في المطعم • فلم أعد قلقا • كانت هذه آخر ليلة مع لوسا • فزوجها عائد بعد يومين • واعترفت ضاحكا ، مازحا أن زوجتي عائدة هي الأخرى قريبا • حين ذهبت لوسا لتصلح زيتنها • اقتربت كاتيا مني هامة :

— هل استطيع رؤيتك غدا ؟

— بالطبع • وأين تودين ان انتظرك ؟

— لافرق عندي • انما بعد الثانية عشرة •

— طيب • سأكون في مقهى الشباب •

وجاءت كاتيا مع صاحبة لها من فتيات البارحة • كانت صامته تقريبا • وظلت صاحبها تتحدث طوال الوقت • وكنا نتجرع القهوة السوداء المرة ، فأردت ان أتى باقداح بونش • قالت كاتيا :

— فيما يخصني • أفضل فنجان قهوة آخر •

لم تكن نظرتها لائمة أو معاتبة • انما كانت قانطة ، وكان وجهها الجميل في شرود • وحين خرجنا سألتني أجدة بذراعي :

— والان الى اين ؟

— كما تريدان •

قالت صاحبها :

— مارأيكما في ان نمر على متحف بوشكين ؟

فتذكرت لويزا • التقيتها صدفة في متحف بوشكين • كان هذا صيفا • كنت مع جيلي في جولة بحثا عن صيد طائر عابر • فتعرف جيلي بفتاة استونية رائعة وانطلق معها • لم تكن لويزا وحدها • كانت مع صديقة لها • وكاتنا قادمين في الاجازة من مينسك • ولم تشأ الأخرى اقترافا عنها الا بعد اصرار

مني • وعدت بلويزا وحدها • وحين مررت بجيلي عرفت منه ان الاستوائية
لم تمكث الا ساعة لتلحق بقطارها ! ووجدت لويزا ضيفا ثقيلا بعد ليلتين •
وكنا في متحف بوشكين ثانية • هناك لوحات من اللوفر تعرض لأول مرة •
كان الصف طويلا • وكانت تتقدمنا امرأة وابنتها • كانت الابنة جميلة جدا ،
في الثامنة عشرة • وكانت المرأة فارعة ، قوية ممثلة • وكانت جميلة شهية •
وسمعتها تقول لابنتها :

— كيف هو صديقك اندريه ؟

وادركت انها تريد ان افهم ، وكانت تبتسم لي منذ حين ، ان الامر
لايعني ابنتها ، انما يعنيها هي • ثم سمعتها تقول • وكان شعرها الكثيف
متهدلا ، مسرحا فوق ظهرها العريض :

— غدا صباحا ستلحقين بابيك في الداجا • وسأبقى وحيدة في الشقة •
وكانت لويزا معي • واخذ الرذاذ يتساقط ناعما أول الامر • فالتفتت
المرأة إلي قائلة :

— هاتان لايههما أن تمطر • فتعال معي انت لنقف هناك •

فأجتزنا الساحة مرعين ، ووقفنا تحت سقيفة الموقف • اني اتذكرها
شبه راكضة ، تحت الرذاذ ، باكتافها وارداها الرحيبة ، وشعرها يهتز متموجا
ثقيلًا • أية فرس رائعة ! وهي في الخامسة والاربعين ! كانت ابنتها ترنـو
الينا باسمه ، خالية الذهن • ولم تطق لويزا صبرا • فهرعت نحونا • فقالت
المرأة منزعة :

— هاهي آتية •

فأسرعت قائلا :

— امن الممكن رؤيتك غدا ؟

— ممكن •

— في أية ساعة ؟

— في الثانية عشرة . حنا ؟

— سأنتظرك عند البولشوي .

وإدركتنا لويزا ضاحكة كالمعتذرة . وظلت المرأة صامته ، لا ينم وجهها
عن شيء . كان الازدحام هائلا في الصالة . فلم تتمكن من الوقوف عند أية
لوحة كما نريد . انما مررنا بها مروراً .

وتعدت مع لويزا في مقهى لا اعرفه . وأردت عنوانها . فلم نجد غير
جريدة . وكنا تحت مظلة المائدة . والجرائد يبللها المطر ، ويندلق فوقها
النيذ . فأذا ماتذكرتها بعد حين . . لن تجد الا بقعا حمراء وزرقا هي كل
ما تبقى من عنوان طائر لقيته ، صدفه ، في متحف .

في الثانية عشرة كنت عند اعمدة المسرح الكبير القديمة الشهيرة .
ورأيتها آتية ، ظاهرة الزينة ، مرجلة الشعر . حيتني قائلة بركة :
— لنمض .

قلت ونحن في الطريق الى المترو :

— ينبغي ان نمر على المخزن اولا .

— ولماذا ؟ لدي كل شيء .

— مع هذا . . تحوطا .

ابتعت قنيتي خمر وانطلقنا . كانت شقتها في الطابق العاشر . وكانت
النافذة مفتوحة . والسما زرقاء مشرقة حينا ، غائمة متجهمة حينا آخر .
وكان الغداء طيبا مع النيذ الحامز البارد . وسألتها :

— حتى أية ساعة يمكنك ان امكث عندك .

— كما يروقك . أنا لا اتوقع احدا . وهم لا ينتظرون التحاقى بهم هناك

الا بعد غد . . فلدينا ، كما ترى ، متسع من الوقت .

قالت كاتيا بعد ساعة في المتحف :

— لنخرج من هنا •

كان الجو باردا • وكنا نذرع الرصيف باتجاه المترو • وكانت صاحبتهما تتكلم طوال الطريق • وكنت مرهقا بعد هذا كله • ومع لوسا وسهرة البارحة • ولم تكن كاتيا لتريد الا ان نبقى معا • وفي السينما كنت غافيا ورأسي فوق كتفها • كان نوما متقطعا • وحين خرجنا كان الوقت أول الليل • كانت عيناها الساطعتان قلقتين • ثم قالت فجأة :

— اسمعا •• مارأيكما في ان تجيئا معي ؟

فأسرعت الفتاة قائلة :

— كلا كاتيا •• لم يعد لدي وقت •

وانهلت لاحقة بالحافلة • فأخذت بذراع كاتيا :

— لندخل المخزن •• ونركب بعدها •

— ستجيء معي بالطبع ؟

— أنا احب ان تزيلي وحشة غرفتي •

— كما تريد •• غير أنني ••

— ماذا ؟

— لن اقام معك •

— طيب •• مادمت لا تريد •

— كلا • ليس الامر كما تتصور •

— لا بأس • لندخل المخزن •

في اضواء المخزن الباهر كان جمالها اخاذا ، جاعلا انظار الرجال متبعة وجهها ، متسعة اعجابا • وفي العاشرة كانت مرهقة ونمسي • كانت نمسي تماما • فرجتني ان تنام • ورأيتهما تلقي بثيابها كلها لتتمدد عارية تحت

اغطيني • وسريعا ماغرقت في رقاد عميق • فأطلقت ضوء السقف ، واغلقت بابي لامر على جيلي وجون • وكاد جون ييجن مرحا وصياحا :

— وتركتها وحدها ؟ لايفعل هذا الا شاعر !

وصحوت في الرابعة على قبالتها :

— ماكنت اتصور انك ستصحو • كنت أظن انك ستظل نائما غير

متبه لي كما في أول ليلة •

كنت أريدها لليلة •• ليس زهدا بها •• انما كانت متعلقة بي •
ولينأ عائدة بعد انتهاء مهمتها على أية حال • حين طلبتني في الثامنة من مساء
الثلاثاء راغبة بأن ازورها ، اعتذرت بأن لدي ضيوفا • فأغلقت التلفون
متألة ، لاعة • وفي الثانية عشرة تقريبا ، وكنت اقرأ ، سمعت طرقا فوق بابي
ففتحت • كانت المناوبة أتية بكاتيا • ولم تكن كاتيا تنظر • كانت مطرقة
برأسها • فأدخلتها وخرجت اشكر المناوبة • قالت هامة :

— لاتدعها تخرج • انها ثملة • قالت انها ستقول لك كلمة وتخرج •

كانت لطيفة معي •• مع انها ثملة • لاتدعها تخرج •

— اشكرك كثيرا • لن اتركها تخرج وحدها بالطبع •

— كلا • ينبغي ان تنام •

كانت كاتيا جالسة في معطفها ، ووجهها بين يديها :

— لماذا جئت اليك ؟

— وأي ضرر في ان تجيئي ؟

— ماكنت لاريد الا ان اعتذر عن فظاظتي في التلفون • أي ذنب لك

في هذا كله ؟ الاتي سكرى ؟ فيم ازعاجي لك ؟ كلا • يجب ان اخرج •

— اسمعي كاتيا • انت مرهقة • ستنامين هنا •

— كلا • سأذهب • أنا ثملة •

ورحت أقبل وجهها ويديها متوددا •

— لا تقبلني • لم اجيء من اجل هذا • جئت لاعتذر واخرج •
— سأعد لك شايًا •

— لا أريد الشاي • أريد ان اخرج •

واوقفتها برفق لانزع معطفها • وخرجت مقفلا بابي في هدوء كيلا
تنهزم • وحين عدت بالشاي سألتني :

— لماذا اقبلت علي ؟ ما كنت لافر دون ان اودعك •

— كرهت ان يزعجك صديق سكران •

كان وجهها النقي الناصع مشرقا كمصاييح النجوم • وكانت هادئة بعد
الشاي ورجتني ان اتركها تنام • • بلا هذا • وتمددنا عاريين • واخذت
اقبلها ملاطفا • وارتدتها • فأمتنعت بقوة لم اكن اتوقعها منها • وكنت معها
وكأنني مع فتاة عنيدة في اول ليلة • واصطرعنا مدة وكأننا في عراق • لكننا
كنا عاريين وكنت فوقها • • فأخذتها متمنعة • فأندفعت ، بعد لحظة ، متعلقة
بي ، مقبلة ، وهي تشدني اليها شدا ، وكأنني آخر رجل في عمرها •

سباحا في الحافلة كانت تقول :

— اتريد ان تزورني غدا ؟

— سألتيك أولا عند مترو ماركس في الساعة مساء •

— ولماذا عند المترو ؟

— احب ان اسهر معك في المطعم • وبعدها سننطلق الى بيتك •

وذات ليلة ، وكنت مع عبد الله وابي بكر وعمر ، كانت الجامعة
قصدنا • وكنا في المترو • وكانت ليلة أحد • وكنت مزمعا أن اقضي السهرة
عندهم • وحين أخذ المترو يتباطأ ليتوقف ، رأيت امرأة في الاربعين ، فارعة
جميلة ، توميء لي برأسها ان اتبعها • كانت ايماءة صريحة باسمه • فتبعتها
معتذرا من اصدقائي • ولم يكن وجهها وقوامها ليوحيا الا بالطيبة والترفع

عن أي شيء يشين • وردت تحيتي وكأنها تنتظرنني • ولم تقل شيئا آخر •
كانت مع صاحبة لها • وتوقنا في الشارع بعد خطوات • وكاتنا تحدثان
فيما بينهما • والسرعت صديقتها لتركب أول حافلة وهي تودعنا بلف •
قلت :

— هل تسمحين لي بدعوتك ؟

— والى أين تود ان تدعوني ؟

قلت هذا باسمة ، ممعنة نظرها في • قلت :

— الى المطعم •

— لكننا لم نتعرف بعد • الا تريد ان تعرف اسمي في الاقل ؟

وضحكنا معا ، وكان جليا انها غير روسية الاصل •

— أنا ذاهبة الى بيتي • ومادمت تريد صحبتي فتعال معي • شقتي

خالية هذه الليلة • وهي ليلة احد كما تعلم • كنت واقفا مع اصدقائك حين

نهضت ورأيتك صدف • فأجبت ان انا دمك ، فدعوتك •

— هذه دعوة كريمة منك •

— هي ذي حافظتي زادمة •

ونزلنا بعد عشر دقائق • كان شارعا لم أره من قبل • وكانت الريح

شمالية قارسة ، والسماء مظلمة ، قاتمة • ودخلنا مخزنا متوهجا باضواء

المصاييح الكبيرة المتدلية • فأبت ان اشترى غير زجاجة كونيالك •

— انت ضيفي • لا يصح ان تشتري شيئا آخر •

كان الرصيف عريضا ، والريح في وجهنا • وكانت ناديا متوردة الوجه ،

تلف شعرها الاسود بمنديل كبير ايض أهدب • وكانت الحافلات تمر مكتظة

بالراكبين ، والناس يسرعون الخطى • وانمطنا في زقاق يفضي الى باحة

بين المنازل العالية الهائلة • فدخلنا احدها •

كانت شقتها مظلمة صامته • فأشعلت أضواءها ، وفتحت التلفزيون •
وشغلت غني بتهينة المائدة • وكنت في البهو اتفرج على مشهد تزلج • حين
جاءت بالاقداح سألتها :

— هل تمكنني اعانتك بشيء ؟
— شكرا • كل شيء جاهز • لن تضجر حين أتأخر قليلا عنك ؟
— انما لاتعبي نفسك • هذا يكفي •
— أنا ذاهبة لانهاء .. واتجمل •

وضحكت ضحكة خافته • ثم عادت في ثوب أحمر يكشف عن بعض
ذراعيها وصدرها • فأذهلني بياضها الناصع وامتلاؤها الشهوي الجميل ••
كانت أرمنية • ولم تكن على عجل من أمرنا ، ونحن ندرى أننا الليلة معا حتى
الصباح • كنا نرتشف الكونياك بتلذذ ، وباعتدال • فأنخذت امتدح جمالها ،
قارئا لها ابياتا من الشاعر الارمني القديم سايات نواف:

أريد ان أنطرح عند عتبة الحبيبة
لاقبل ترابها واتغنى به •
أنا البلبل فأين هي وردتي ؟
أين هو بستان الوضيء ؟
فأنا أحن اليه واتغنى به •
فأشارت الي باسمة ان انتقل الى جوارها • قلت مبتهلا:
— لكم أود ان اللمس ذراعيك بشفتي •
— ها هما لك •

فأنحيت على ذراعها المتليء البديع الثمه • وحططت بمني على اكتافها
وصدرها • ثم رحت اقبل وجهها ، مقتربا بمني من فيها • فأعطتني شفيتها
وهي تغمض عينيها البنفسجيتين نصف اغماضة • كان غزلا هادئا ، وقبلا

دافئة متمهلة • وقد لعبت بنا الخمرة قليلا • ورأيتها ترفع ساقها المليئة الطويلة ، في حركة غير متعمدة ، فبانت ركبتها واسفل فخذاها الناصع المتلي • فرحت ألامه بيدي بلطف • وانحيت اقبله • قالت كالحاملة :

— هذا متع •• هذا رقيق •

وكانت تتحدث عن الموسيقى كالخبرة بها :

— سأضع قطعة لرافيل تذكرك بالشرق •

— أهى الكنز ؟

— أجل •

وكنا نسمع النغم المتواتر كخطى الابل متقدمة في بحثها عبر الصحراء المترامية • واتبناها الى التلفزيون يعرض مقطعا لمغنية الاوبرا الاولى ساينا في « يعجيني اونيفين » فرفعنا صوتنا • قالت :

— هى ذى ساينا • أأعجبتك ؟

— جدا • آخر مارأيت لها فى البولشوي هو دورها فى « غادة

الكاميليا » •• اتدريين ؟ أنا اعرف ابتها •

— حقا ؟

— التقيت بها صدفة فى الشارع •

— أمازلت تراها ؟

— كلا • كنت مرتبطا بزميلة لى • فلم التق بها الا مرتين • حالما تعرفت

بها اخبرتنى انها ابنة ساينا ، وانهم يقولون انها تشبه أمها تماما • كانت طيبة كطفلة •

— أهى متثلة مثل أمها ؟

— أجل •

— أتدري ؟ كان ينبغي ان تظل على علاقة ما معها • عن طريقها كنت

تستطيع ان تحصل على اكثر التذاكر نادرة واسرعها تقادا •

وكنت الامس يياضها المشعشع والشمه • وحين فضت عنها كل شيء ،
ونحن في فراشها ، كنا معا كالنغم الواحد الوحيد •

وانني لاتذكر صدفه غريية • كنت مع جيلي في سينما أريول • كان الفلم
هو « رئيس الكولخوز » عن قصة جريئة لنجيين • وكان مثار جدل في حينه •
لم تكن القصة واخراجها اعتياديين • فلقد اختار الكاتب زمنا عصيا : بعيد
الحرب الثانية • كان جيلي منشغلا في حوار مع أربع صبايا في الجوار منه
وكان الفلم سيبدأ بعد قليل • وفي المقعد المجاور لي كان فتى ما يتلمل قلقا •
كان ثملا • كان في حيرة بادية : ايبقى أم يغادر ؟ كلما هم بالنهوض عاد يجلس
ثانية • اخيرا اخلى مكانه منصرفا • ورأيت جارته قلقة هي الاخرى • كان
وجهما شاحبا جذابا • وكانت ممثلة كأغلب الروسيات • وتابعت الفلم
بنظرها أهو ذاهب فعلا ؟ وحين وجدته مترنحا ، مبتعدا ، أسرعت منتقلة الى
جانبي • وبدأ الفلم • وفي منتصف الرواية كانت الفلاحة الارملة الممتلئة
جلسى • وجاءها المخاض مداهما وهي تحصد • كان مشهدا مؤثرا متقنا •
وفي هذه اللقطة المثيرة ففسها كانت جارتني ، بحركة لاتعتمد فيها ، تلقي
بصدرها الثقيل الحار فوق كفتي • وبعد لحظة أبعدهته منتبهة لحالها • وحين
خرجنا من السينما كانت حريصة على السير قريبا مني • بل هي تسارني
خطوة فخطوة • وكانت منفعلة ، خافضة رأسها الاشقر • فابتدرتها قائلا :

— أليس فلما قويا ؟

— أجل • ليس اعتياديا •

— واخراجه ؟ أية قوة !

— بالطبع • يبدو لي انه أعجبك كثيرا •

— انه في بعض مشاهده لاقوى من « طريق الالام » •

— هذا صحيح •

واخذت تسألني : من أين أنا ؟ وأين ادرس ؟ قالت انها تقطن غرفة في منزل جماعي قريب • والرياح باردة ونحن نتحدث متجولين منذ ثلث ساعة • كان الهواء يشتد برودة • فدعوتها لان نقضي الامسية في غرفتي ، لان نتحدث ونشرب شيئاً • فأقترحت هي :

- أرى من الافضل ان نجلس عندي •
- كما تهودين • لنخرج ، اذن ، على المخزن •
- لندخل المخبز اولاً • ها هو بعد خطوات •
- وسألتي ونحن في الصف :
- اتفضل الخبز ابيض ؟
- منذ حلتل موسكو وأنا لا استطيع الا الخبز الاسود •
- أحقا ؟

كانت في الثامنة والعشرين • وكانت غرفتها اشبه بغرفة طالبة • وكانت الفودكا تقرب مايئتنا في مخدع امرأة طيبة وحيدة • وكنت أمسك بيدها بلطف :

- ماذا ترى فيها ؟ هذه يد عاملة •
- هذه أرق يد • بل أكثر الايدي دفئا وحنانا •

كانت الثلوج تنهمر غزيرة • ونحن في أول الليل • وكنت عائدا في الحافلة • وفي العاشرة سألتني بلينا كما اعتدنا ان نلتقي • لكن أهي أدلينا ؟ هذه المرأة الواقعة في فرائها الضافي ؟ والحافلة مندفعة بنا ، عالقة بعمود منها بالسلك الكهربائي • كلا • ماهي هي • كانت أدلينا استاذة لغة في مستقبل العمر • وكنت أعيش أيامي الاولى في موسكو • كنت عند نافذة الممر ، ورأيتها خارجة من غرفة الدرس • كانت في ثوب أحمر ضيق • يتألق في احمرار ثوبها ، عند الصدر زر عاجي أبيض • اني لا تذكر ، شقرة شعرها ،

وبريق عينيها الخضراوين الكبيرتين • وقوامها الالهيف البديع • واسقطت كتابها متعمدة ، منتظرة ان اسرع لارفعه لها • ولم اتحرك • فانحنت معطية ظهورها لي لتلتقطه ، ملتفتة بابتسامة أخاذة • وكانت لي ليلة فريدة معها • • بعد حفل راقص في الجامعة •

كانت لينا تقول رافعة كأسها ، متذكرة رسائلها اليها ، وكنا في شقتنا ليلة أحد :

— قل لي من فضلك • • ألم تزل العنادل ، في حدائق الحب الليلية تذرف دما ، فتصطبغ الورود ، صباحا ، بالحمرة القانية ؟

— هذا في قصة لاوسكار وايلد •

— آ • • ربما •

فترد أمها مازحة :

— لكنك شاحبة • فأية وردة قرمزية انت ؟

— هذا لانه لايبكي كاولئك الشعراء الشرقيين • • فوق غصن وردته

بدموع قلب • • انما بأدمع الغمام •

— لو أخذ بنصيحتي ، مرة ، لجعلك تنسجين باكية طوال الليل •

— وماذا فعلت له ؟

— حتى اشواقه اليك تعبرينها تطريزا • مع انك راضية بها • وترقبين

المزيد منها في كل رسالة •

— أنا ؟

— فمادّا كنت تنتظرين ؟

— ان يكتب لي عن آخر سهرة له • • مثلا •

— بل عن اثوابك هذه • كل ليلة تلتقينه بثوب •

— وماذا في هذا ؟

— في هذا انك اكثرهن تنمقا • وتكرين على غيرك كلمة جميلة •

حين مضت لنا لتغير ثيابها ظللت منتظرا حتى تنتهي • ورحت اتطلع عبر نافذة البهو • كان الشارع مضاء ، ولا شيء في السماء غير الظلام الحالك • هل ستهطل الثلوج هذه الليلة ؟ وسمعت وقعا حادا • • وقع خطي امرأة في الشارع • هذه الخطي لاتعني غير عودة امرأة لبيتها • من أين ؟ ربما من لقاء أو عمل ليلي ما • وهذا الخفق العالي لحذائها • • أهو دليل مسرة وقضاء أمسية بهيجة ؟ أم هو ارتطام الكعب القوي بالاسفلت لاغير ؟ ربما هي عودة اعتيادية ، عودة كل يوم • غير انني اسمع رنينا احتفاليا في هذا الخفق العائد ! أم لعله ايقاع غضب ما ؟ وتوعد بالقطيعة ؟ كانت الخطي تبتعد ، ووقعها لما يزل منتشرا في هدأة الطرقات • وها هو يتنأى متجمعا في نقطة بعيدة ما • • في زقاق أو منعطف ما • غير انه لم يخمد فجأة • مازال شيء منه يتردد واضحا تقريبا ، وفي جهة اكاد اعينها • لكن وقعا آخر كان أخذا بالدنو ، وقعا عاليا ، باعثا بالرنين ذاته • وكأنما الخفق الزائل عاد ثانية بالتردد عينه • هذه خطي كل ليلة تقريبا • خطي العودة المتأخرة • وانكفات عن النافذة لالحق بلينا •

— أهذه اشرعة افخاذك العالية ؟

— وأنا سفيتك تسكع بي في ايما اتجاه •

— لكبك أكثر لدانة من ورقة زهرة • وهذا غريب • هذا اكثر نعومة من أي شيء اخر • اكثر « رقة من الماء أذ يهز الخيالا » • • اكثر لطفا من حلم زنبقة • وكأنه القطا الجاثم في مكمنه • كاليمامة تخفق دافئة ملء يدي •

وقصدنا مركز المدينة ساعة الظهر • كنا ننتظر الحافلة • وبالقرب امرأة مع طفلتها • وبالفة غريبة كانت الطفلة تمسح وجهها الغض البريء بمعظفي :

— ما اسمك ؟

— ساشا • وانت ؟

فضحكت أمها :

— ساشا اتريدين ان تتعرفي به ؟

وفي الحافلة كانت الطفلة أخذه مكانها بجاني • فأزدادت لينا وأمها ضحكا • وافترقنا عند ساحة بوشكين • قالت لينا :

— كنت لطيفا جدا مع الطفلة •

— وأين ترغين ان نذهب •

— سندخل مقهى لايؤمه احد تقريبا الا من العاملين في المسرح • فهو

صغير وضيق •

— أهو مقهى الفنانين ؟

— أكنت فيه من قبل •

— مرة لاغير •• كما اذكر •

كان المقهى فارغا تقريبا • كان اشبه بديكان • فما من نافذة غير

الواجهة • وكان غريبا بلونه الاحمر وطرازه القديم • وكانت هناك امرتان

قالت لينا انهما ممثلتان من مسرح ستانسلافسكي •

— أرايت في الحافلة كيف كن ينظرن اليك والطفلة متعلقة بك ؟

— اليس لطيفا ان تنجب طفلة مثلها ؟

— أمي تقول ان طفلة منك ومني ستكون جميلة جدا •

— فماذا تنتظر ؟ لتتزوج •

— كلا • انا لااعني هذا •

— الا تريدن طفلة مني ؟

— انت مازلت طالبا • فيم هذه الفكرة الغريبة ؟

— الست زوجا صالحا ؟

فضحكت فجأة مشبوبة الوجدتين :

— انت لاتقول الا حكمة .. خاصة في خطبتك لي .

— ألم تفكري بالامر مرة ؟

— فيما يخص طفلا لي منك ؟ اجل . انما ليس الان . سأقول لك في

حينه . ثم اضافت باسمة ، رافعة كأسها :

— اما اليوم فلا أريد الا ان امرح معك .

وفي الشارع .. في اضواء الشارع وحركته المتتابعة لم نعد نفكر الا أننا معا . وكانت لنا أخذة بذراعي كملكة . كان البيت وجهتنا . ولم يعد الزمن الا هذه الليلة المائجة بالضوء والبسات .. هو هذه الثلوج تتساقط خفيفة هشة فوق اكتافنا ، هو هذه الفتاة الضاحكة ، المثبثة بذراع صديقها .. وعيناها لاتريان غير وجهه ، وهو هذا الصف الطويل من المنتظرين دورهم الى المقهى .. وهذه الضحكة الصافية تطلقها شابة حاسرة الرأس ، غير أبهة بالثلج وبالنظرات ، وهذا الشاعر النحاسي مطرقا برأسه المتجمد ، وقد استغرقته فكرة عميقة ما ، فكرة تحد وألم وترقب . وكنا منعطفين حيال السينما والازفيسيا . واجتزنا شارع جيخوف لنتظر .

وجاء الباص ١٨ مزدحما فلم نركب . ستأتي الحافلة بعد قليل . لكنها جاءت مكتظة هي الاخرى . ولم نرد ان تتأخر فركبنا . ووجدت لنا مكانا في آخر الحافلة . وكنت اتقدم من الصندوق لاقطع تذكرتين . ووقفت غير بعيد عن لنا . كان بينا ثلاثة شخوص .

وصعدت فتاة تترية الملامح ، غير انها بيضاء متوردة الوجه ، روسية العينين . كانت جميلة وفي وجهها ونظرتها حزن وتوجد . ورأيتها تتجه الي بعينيها الزرقاوين الناطقتين أسمى وتقربا مني :

— هل تمر هذه الحافلة على مترو نوفو سلوبو دسكايا ؟

— أجل ستمر .

— الم تزل المحطة بعيدة ؟

— كلا . بعد أقل من عشر دقائق .

فأسرع الآخرون ، كماداتهم هنا ، يفصلون لها متى وكيف ستصل .
ووجدت ان مهمني قد انتهت . فلم اشارك باكثر مما قلت . كانت لنا تتابع
المشهد باسمه متفرسة في . واتجهت الفتاة بوجهها ثانية ناحيتي :

— أينبني علي ان انزل بعد ثلاثة مواقف ؟

— كلا . بعد أربعة .

— أنا لا أعرف من موسكو غير مركزها .

— أهى زيارتك الأولى لها ؟

— كلا . جئتها اكثر من مرة . أنا من اوديسا . وفي الاصل اوزيكية .

— وهذا ماتراى لي .

— أحقا . وانت ؟

كان صوتها أبج قليلا . وكأنما هي تكظم جهشة أو عبرة ما . وكانت
في حوارها معي مقبلة علي بلا تكلف . هي هذه الصدفة تجمع بين اثنين
عابرين . وكان وجهها ما يزال ناطقا بالاسى . غير ان ابتسامة ما أخذه بالبزوغ
في عينيها ، الزرقاوين . وحين وصلنا نوفو سلوبو دسكايا قلت لها باسم :

— ها هي محطتك .

— شكرا لك .

قالتها وكأنما كانت تتوقع شيئا غير هذا . واسرعت نازلة . وكانت
لينا شاخصة بعينيها الي . ولم تعد تبسم . وظللت واقفا حتى زليوني دوم .
وعبرنا قاصدين منزلي لاتي بكتب الاثنين . حينما عدت كانت واقفة في الجهة
الآخري من الرقاق ، لاهية بساقيها الطويلتين الممتلئين في حركة كالترلج .
فوق الاسفلت الالزق بالثلوج المتصلة : هي ذي امرأة روسية !

هذا ماقلته لنفسي حالما رأيتها في تحركها هذا • واحسنت بشيء عابر
ما كالحائل فيما بيننا • لم يدم هذا الا برهة •• هو كل ما ابتعثته حركة
ساقيا • وكانت هي لنا الضاحكة المناكدة حين أخذت بذراعي ، واتجهنا
ناحية البريد •

— هكذا توقع الفتيات في شباكك !
— أية فتيات ؟ وكأنك لاتعرفين أية منزلة لك عندي •
— اوه •• أنا امزح • الا تريد ان امزح معك ؟
— لاشيء أحب الي من مزاحك •
— ففيم هذه النبرة الجادة ؟
— وما هذه التقطية الرائعة بين حاجبيك ؟
— أنا هكذا •
— فعلا • لم يخلق حاجباك الا ليقطبا تقطية •• تكاد تقتلني اقتلاعا
عن الارض ، وتلقي بي فوق هشيم الاسئلة الجمالية كلها •
— أي، هشيم هذا ؟ وماكنت اريد الا ان امزح ! لكن لا •• أي هشيم
تعني من فضلك ؟ أهو هشيم هذا اللقاء العابر في الحافلة ؟ اجل • كان
هشيمًا جماليا حقا ! لو أنني القيت عليه عود ثقاب مشتعلًا لشتبت النار عالية
في الحافلة كلها •• ولكانت حافلة جمالية لاكثر تعقيدا فلسفيا منها في تاريخ
الاستيتكا •

— لكن ما بك ؟ طيب • اضحكي •• اضحكي ايضا •
— ماكنت لاصدق • فعلا • مازال الهشيم عالقا بمعطفك •
— وهل قلت انا شيئا مضحكا ؟
— انت ؟ انت لم تعبر الا عن اسفك على اللقاء الاستيتكي المتشهم
في الحافلة وقد اقتربت من المترو • أية فرقة ! كادت تقتلني اقتلاعا • مع

أنها لم تكن مقطبة • انما كانت فرقة أسفة ، حزينة تقريبا • وأي لقاء ! أية مسائل جمالية معقدة كان يترتب حلها عليه !

— هذا كله لانتي اجبت فتاة تسألني عن محطة ؟

— لكنها لم تكن محطة اعتيادية • كانت استيكية أوزيكية •

— انت غريبة فعلا ! اية جمالية ترين في سؤال عن مترو ؟

— أهى غير مارأيت من جمالية في سؤالك لي بعد الحافلة ؟

— كنت أريد ان اتعرف بك •

— وهي ؟ ألم ترد مصاحبتك ؟ هب أنتي لم اكن معك •• هب ان هذا

حدث قبل عودتي ، أما كنت ستدعوها ؟• وهي كالشمة اليانعة المرتمية بين يديك ؟

— ولماذا وأنا انتظرك ؟

— اوه لاتعبس •• دعنا ندخل مرحلين •

وكنت راغبا بكأس مع العشاء • وهي لن تمنعني ، على أية حال ، من

ان انجز صفحة من الكتابة ، هي كل ماتبقى علي من أسئلة نينا كورنييفا •

فكظمت رغبتى ارضاء لامها • كان مايهما هو ان اقرأ أولا • وكانت لينا

تغمزني باسمه وكأنما تقول : آ •• الا تريد ان تشرب قدحا ؟

وحين نهضت لادخل غرفتها واكتب •• سألتني متعمدة :

— فيم انت مبكر بالقراءة منذ الان ؟ ان لديك وقتا طويلا حتى

العاشرة •

فجزتها أمها :

— هلا كففت عن التدخل في شؤون غيرك ؟

— كنت أريد ان يتفرج قليلا على التلفزيون •

— ايتها الماكرة ! — ثم التفتت الي :

— لاتنصغ اليها • اقرأ كل مايمكنك ان تقرأ • ولاتتجول معها في

- البرد • دعها تذرع الليل وحيدة كالساحرة في الطرقات المقفرة •
- لم يكن لدي الا تلك الصفحة من الكتابة • وسريعا ما فرغت منها •
- وبعد ساعة كانت لينا واقعة ، وفي وجهها الجميل رغبة بالممازحة :
- اقرأ • • اقرأ • لن ادخل واضايقتك •
- لن تضايقيني •
- كلا • هناك برنامج ممتع جدا وسأتابعه • ماذا تقرأ من فضلك ؟
- فأريتها الكتاب •
- آ • • داتي ! أهو موضوع محاضرة الغد ؟
- انت تعرفين أننا اتهمنا منه في الكورس الثاني •
- هكذا ! ومحاضراتك غدا ؟ أهي اقل شأنا من ان تكلف نفسك
- بقراءتها ؟ أم انك اتهمت كل شيء في المقاهي اثناء غيابي ؟
- وسمعت امها تقول متذمرة :
- هلا تركته يتم واجبه ؟ مازالت ساعة جولتك الجنونية بعيدة •
- لكنه منشغل في غير واجبه •
- وهل انت ادرى منه بما ينبغي عليه ان يقرأ ؟
- تعالي وانظري بنفسك مادمت لاتصدقين •
- وجاءت امها قائلة لائمة :
- الا تكفين مرة عما لايعنيك •
- وهل اريد شيئا غير منفعة ؟
- انت لاتريدين الا منفعتك •
- طيب • اسأليه انت • الهذا الكتاب علاقة بدراسته غدا ؟
- وما أدراك انت ؟ أأنت طالبة معه ؟
- هو نفسه قال • ألم تقل لي انكم اتهمتم من داتي في الكورس

الثاني ؟ اليس هذا ماقلته لي ؟ لم لاتكلم ؟
 — لانه يريد ان يقرأ ، وانت تزعجينه •
 — طيب • مادام النصح لايجدي معه ، كما تقولين ، فلماذا أتعب نفسي
 عبثا ؟ هو حر • أما انا فساتقترح راقعة الزواج •
 — ومتى كنت تحبين التلفزيون ؟ أي مكر !
 وأخذت بيد لينا قائلة :
 — هيا لينا •• دعيه يقرأ •
 — انه لايقرا •• انه يتسلى •
 — الله اعلم انك لاتتظنين الا ساعة انزاواثك معه •
 وانهزمت لينا مرتجة ضحكا • وفي الثانية عشرة من الليل ، بعد السينما
 ذات مرة ، كنت مصفيا الى صفير الرياح عند نافذة البهو • وكانت لينا تتجمل
 في غرفتها • وكنت اتخيل الكساندر بلوك صافرا كقطاع الطرق القدامى في
 الغابات والبراري • أهذه هي الكأبة الروسية كما يقال ؟ أهي هذه السهوب
 العارية والرياح الفسيحة القوية ؟ وتذكرت سهوبا أخرى •
 اتأخرت طويلا عنها ؟ كانت واقعة تقول :
 — في أي شيء تفكر ؟
 — في الريح والبرية •
 — اتحب البراري ؟
 — في ريفنا الجنوبي •• كان يطيب لي ان أسير بعيدا في رمادية الغروب
 بعيدا حتى آخر السهل • فأفاجيء القبرات جائئة في حفاثرها •• وأرى
 النيران مشتجرة في القرى المتناثرة حول ضفاف الانهر • والليل الغائم يهبط
 علي وحيدا في عراء الحقول • وعند الحافة من الهور ، في المياه الضحلة ••
 بعيدا تتجمع الطيور المهاجرة أتية من أقاصي الشمال القارس ، من سيبيريا
 ذاتها كما يقال •

— أهى طيور الخضيرى والحذاف ؟

— هى وغيرها • والبط المهاجر ايضا • تتجمع الطيور لاططة ، صائحة
لتلقط الغلة المتبقية من حصاد الخريف • وفى خصه القشئ يكمن صائد الطير
مرتقبا • والشبكة منطرحه فى القش والبلل • وفى الفراغ بين جانبيها تغطى
الارض بالطعم من الرز الشير • ويظل الصائد كاتما انفاسه وسعته • وفى
موهن من الليل الشتوي البارد تحط الطيور ، وقد اجتذبتها الطعم منذ ليل •
ويجر حبله الطويل ، فتعلق الشبكة متقوسة بأوتادها كخيمة ، مطبقة بأحكام
فوق الفريسة المتخبطة المضطربة • فيسرع صائدها ليقطع اغناقها تقطيعا ييد
خيرة • ويعود مع الفجر بحمله الثقيل • أنذاك تعد زوجته أظارهم من
حواصل الطير واكباده •

— أخرجت ، مرة ، لصيد الطيور ؟

— اجل • مرة وأنا صغير • فأعادني ابي فى أول الليل •

— اكنـت ستصيد بعضها لو بقيت •

— كلا • كانت شبكتي غير صالحة •

ونهار الاربعاء ، وأنا فى الممر ، كانت الاستاذة الشابة تبسم لى ابتسامه
عرفت منها انها الليلة بين ذراعى • وكنت أرى قوامها الباذخ فأمتليء رغبة •
وفى المحاضرة التالية كنت مع نينا كورنييفا فى غرفة الحميراء • فدخلت
الاستاذة الشابة باسمه لتتناول ملفا ما وتخرج • كان وجهها مرحا مشرقا ،
ونظرتها لى تعبر ، بالرغم من تكتمها ، خير تعبير عن لقاء الليلة • وسمعت نينا
تقول ، وعلى وجهها البرىء ظل تكدر وانزعاج :

— ما بها ؟ أهى عاشقة ؟

وتذكرت سفرة لنا فى باص سياحي ، اقامتها الاطيرة الى الغابة فى آخر
السنة الاولى • كان الرذاذ ناعما ، وفى الهواء برودة • ورأيتنى الاستاذة جالسا

جوار رايا ، موظفة الادارة ، فعلا وجهها غيظ . وحين مرت بي سحقت اردافها
الناعمة الثقيلة على كتفي .

وحطت ، مرة ، على مائدة في مقهى الفندق فتاتان . كانت البيضاء منهما
رائعة الجمال . فتعرفت بها . وكان غائب في المقهى . فأقترحت ان يأتي معنا .
فرأى ان تؤم مقهى متروبول . فأوصينا على خمر وعشاء . كانت البيضاء
في رداء ييدي فتنتها الطاغية المتوجة . وحين كنا فركص أحسست بها لينة
كارق ماتكون المرأة لينا ولدانة . وانصرفنا فأذا بهما منطلقتان مرحا ، وقد
لعبت الخمر بهما . وكان غائب متذمرا . كان مزاحهما وانطلاقتهما اكثر مما
يحتمل . فغادر معتذرا . وظللت حائرا بان دفاعهما الطائش . بل كادت صاحبتني
ان تتعارك مع امرأة عابرة في المترو . كان معطف المرأة متسخا ببقعة . فسألتها
الفتاة فجأة :

— لماذا لاتنظفين معطفك ؟

فألتفتت تلك ، وكانت عصبية المزاج ، متذمرة :

— أنا انظف امرأة . اما القذرات فهن من امثالك انت . من المتعطلات
السائبات ، لايحسن شيئا غير البطالة والسكر .
— أنا لست سائبة . وان لي مظهرا نظيفا . أما دخيلة المرء فلا يعلم بها
الا الله .

قالت هذا وهي تريها فراءها الفاخر . وخرجت المرأة صائحة ، شاتمة .
فأطلقت صاحبتني وراءها ضحكة الزدراء . وسألتها هامسا :
— مارأيك ان تجيء معي ، ونستريح من هذا الدوران في المترو ؟
— كنت تستطيع ان تقول هذا في بداية الامر . كان افضل لو اننا
شربنا عندك . . بدلا من المقهى وفرار صديقك منا وكأنا في مأزق .
— لاتنسي انه كان مرهقا .

- طيب • لنوصل صديقتي قريبا من الفندق في الاقل •
- وكاتتا من مدينة لا تذكرها • حين عدنا كانت صامته • وكنت أخشى ان تندفع ثانية ، في وجه أية امرأة لا يروقها معطفها أو قبعتها • واخذت اضحك متكتما ، وانا اتخيلها في عراك آخر غير متوقع • فسألتنى كالعاضبة :
- مادمت تضحك •• هلا أبنت لي عما يضحكك ؟
- أنا اتذكر تلك المرأة العصبية فأضحك •
- ألم تكن تستأهل ؟
- ربما
- كيف ربما ؟ ماكنت لاريد الا تنيهها فتهجمت علي •
- فعلا • كان ينبغي ان تشكرك •
- وتمزح ايضا ! أي ضرر في ملاحظتي •• لو انها اكثر تفهما ؟
- لا ضرر بالطبع • لكنك اخجلتها •
- ألم اكن محقة في رأيك ؟
- أنا لم أرد قول هذا •
- فماذا كنت تريد ان تقول ؟
- ان اقول انك من اجمل ما خلق الله •
- لا بأس مادام هذا رأيك في • سأقول غدا لنفسي انني لم ابنت ليني مع رجل التقطني صدفة ، بل مع رجل رأى في ما يظنه جميلا أو شيئا قريبا من هذا •
- أمثلك تقول هذا ! انك لتدركين أي جمال تمتلكين !
- ربما • لكنني لم اسمع كلمة لطيفة الا الان •
- هذا لاتنا وحدنا •
- وحين كنا نرقص ؟ لكن اين نحن ؟ أنظلي ندور في المترو ؟

- لم تبق الا محطتان وركب التكني •
- وهناك تكسي ايضا ؟
- ماهي الا عشر دقائق ونصل •
- أسمع • الديك شيء نشربه في غرفتك بعد هذا كله ؟ لم يبق في رأسي غير لفظ الطريق •• وهذا التنقل من محطة الى محطة •
- ستجدين كل ماترغبين • ولن تري مني مايزعجك لحظة •
- مابك ؟ انا لااعني هذا • ماكنت لاجيء معك لو لم ارتح اليك • ان لك وجها طيبا • أعني انني أحست منذ اول نظرة منك انني استطيع ان اخرج معك وأبيت عندك •
- وحين نزلت فراءها ألفت معه ظلال الطريق الكدرة كلها • كان مزاجها صافيا رزقا • بل ابتدرتني مقبلة وجهي قبلة حارة وأنا اعاق معطفها •
- وحين أجلستها ضحكت قائلة :
- اتدري ؟ انني بدأت احبك •
- ثم اضافت وهي تتأملني بعينين تتألقان فتنة :
- حين رأيتك في المقهى ، وكنت واقفا عند البار في انتظار قهوتك وانت ترنو الي ، رغبت بك •• فأطلت نظراتي اليك لاجتذبك •• وجئت •
- كان انقها روسيا جدا ، بل اكثر مما ينبغي ، ومع هذا لم يكن ليعيها ••
- كان جمالها ساطعا أخاذا • لم تكن تتناول أي شيء •• غير ان ترتشف كأسها وتدخل لفافة وتطفئها عند نصفها •
- اتودين ان نرقص •
- ولتكن الموسيقى هادئة •
- نادرا ما احسست بمثل هذه اللدانة بين يدي • وكنت أحس بها عارية بالرغم من ثوبها • كان عريها في اصابعي وحيال صدري •

ما زالت القينة ممثلة حتى نصفها • وكانت لوبا جالسة على حافة
الشريز كالغافية • وكانت تبتم •• لجمالها ربما • واطفأت ضوء السقف •
واعمتها في اتزاع ثيابها كلها • ولم يكن الموج لاكثر منها تقلبا وانحصارا
فتووبا •

كان موعدى معها مساء • ولم استطع • كانت الاستاذة الشابة تريد ان
اصحبها الى السينما • وهل يمكنى ان اعتذر لها ؟ ماكنت لاستطيع مع هذه
المرأة الكامنة في مجثم من روحي •• الا ان افعل ماتشاء •

ومررت على المقهى في الامسية التالية • كانت لوبا مع اصدقائها • كان
لغظهم عاليا • اكانت موضع ثريب ؟ كنت أرى دموعها تتجارى فوق وجهها
الجميل • ولم اشأ بالطبع ان ادخل • كنت اتحين فرصة لاسأها • وكانت
كالمطورة معهم في مأزق ما • ورأيتها تخرج باتجاه المغاسل وهي تتطلع الي •
فتبعتها بعد قليل • وانتظرتها عند الدرج المرمري • حين عادت سألتني
مسرعة :

- هل يمكنى ان ابيت عندك الليلة ؟
- بالطبع • أنا لم أجيء الا من اجلك ، ولاعتذر •
- هل بإمكانك ان تخرج معي بلا تأخر ؟
- سأتي بحقيتي بعد لحظة •
- لا تأخر ارجوك • سأرتدي معطفي وانتظر في الشارع •
- لا تقلقى • مادمت معي فلن أسمح لاحد بالاقتراب منك • مارأيك
ان نقضي السهرة في مطعم الفندق ؟
- كلا • ليس هنا • أنا في انتظارك على الناصية •
- ووجدتها واقعة غير مكترثة بشيء ، لاهية بنعلها فوق الاسفلت المتجدد •
- وكانت حاسرة الرأس ، غير عابئة بالصقيع والثلوج المتساقطة • ولم أشأ

أَن اسألها ، وقد رأيتها هادئة • فدخلنا النفق باتجاه شارع غوركي •• ومررنا بالمقاهي والقوم يقفون صفوفًا خيالها • فسألني :

— ألا تريد أن نقف قليلاً هنا •• لندخل ؟

— كلا • ليس هنا •

— كما تريد •

— لوبا •• انني اعتذر عن تأخري البارحة •

— لا يهم • أنا لم استطع انتظارك أكثر من عشر دقائق • كنت مضطرة لأن أمضي معهم في جولة ما • وكنت أتوقع لقاءك هذا المساء • وحسناً أنك جئت • أتدري فيم كان هذا اللفظ كله في المقهى ؟ أنا وهذه المجموعة كلها في رحلة مشتركة إلى موسكو • وإن أحدهم متعلق بي • ويريد أن يتحرك حسب مشيئته • وأنا لآحبه • فيم التصاقه بي ؟ أنا حرة في أن أتصرف كما أشاء • لاحق لاحد في أن يفرض نفسه علي • ولم هذا الجدل كله ؟ ألا تبي لآارتضي وصاية شخص لآأحبه علي ؟

— لكن معلقة الآخرين بالامر ؟

— أن له اصدقاء • وهم يحاولون ، بالطبع ، تبرئة جانبه •

— هذا يحدث •• ولا أهمية له •

— بالطبع • وأية أهمية هنا ؟

— طيب • مارأيك أن نسير قليلاً حتى مطعم باكوف •

— هذا اقتراح ! أنا لم ادخل هذا المطعم من قبل •

— اذن ستدخلينه لأول مرة معي •

— كنت أتصور أننا ذاهبان إلى منزلك •• بلا توقف •

— لكنك سائحة • وينبغي أن تتمعي بوقتك •

— وهل المتعة في المطعم خير منها في غرفتك ؟ لا اظن •

— وأي شيء في غرفتي غير الكرامفون العتيق ؟
 — انها غرفتك ! وهل تضمني غرفتك بشيء غير ذراعيك ؟
 ولبشنا ساعتين في المطعم • واقترحت في الغرفة قائلة :
 — سأنضو ثيابي اولا • ولا تنزع انت شيئا حتى انتهي •
 وحين أمست عارية كالجدول •• قالت :
 — والان •• دعني انزع عنك كل شيء • ولا تتحرك انت •
 حين فرغت يداها من ثيابي •• اخذتها بين يدي لاقبل وجهها وناهدتها •
 فرجتي ان اتركها ، قليلا ، لتفعل ماهي عازمة عليه • وأخذت تقبلني ، مبتدئة
 بوجهي وصدري ، منحدره يديها وشفتيها أسفل فأسفل • وبلطف وحنو
 أطبقت يديها لتتنهني اتهاالا • وامسكت بها لاوقفها • كنت أريدها • وكأنا
 في اضطراع • وانحنيت بها فوق السرير • وكان نصفها على الفراش ،
 ونصفها الاخر بين يدي • والرياح تنقل عاليا فوق السطوح المثلثة • وكانت
 ظمأى في الثانية بعد منتصف الليل • فنهضت لتشرب ماء • وعادت عارية
 لتتنحي على وجهي مقبلة ، وصدرها المتكور كالطيور المضطربة • وفي
 أخريات الليل كنا نسمع الرياح تنن متشكية •
 كنت مرهقا بمراجعة الاقتصاد السياسي • وغالبا ماأنسى منه كل ما
 أقرأه بعد يومين • فكانت لنا تضحك ساخرة معابثة • كانت الفلسفة أقرب
 الي بكثير • كنت أقرأ في محاورات افلاطون مترنما ، متعمدا اغاظة لنا في
 المطبخ ، وتذكيرها بما نعرف من تفلسفها • ولم اعد افكر الا بشيء واحد هو
 ان أفرغ من المنهج قبل اسبوعين من الامتحان • وهذا يعني ان علي ان أقرأ
 خمس ساعات يوميا •• عدا ليلة العطلة • وكنا في انتظار الثلوج الكبيرة
 وحفلنا السنوي في رأس السنة •
 في السابعة كنت انتظر لنا • وكنا في ليلة الاحد • ومعني تذكرتان جئت

بها من سينما أريول لفلم « الاحمر والاسود » • ورأيتها قادمة من ناحية
البريد • اني لاتبينها بين العشرات عن بعد • وكانت في معطفها الرمادي
الخفيفي بالرغم من البرد :

— مرحبا •

لأحد غيرها ينطق هذه التحية القصيرة في مثل هذه الرقة ، وبالنظرة
الحانية الممازحة الباسمة • قلت :

— أفي هذا المعطف ونحن في الشتاء ؟

— لاتنس انني ابنة الصقيع •

— مع هذا •

— اتخشى علي ان ابرد ؟

— اكثر مما اخشى على نفسي •

— أنا اكثر احتمالا منك • اتدري ؟ شد مأود ان اغدو في مثل نحولك

هذا !

— اسمعي • سنشاهد « الاحمر والاسود » •

— رائع • لنمر على المخزن اولا •

— ماذا تريد ان تشتري •

— كنت اظن ان لدينا مانشر به • فوجدت القينة شبه فارغة •

— وكيف تظل متلثة •• وانت تتركينها في متاولي كل مرة • وبحجة

البرد ووحشة الطريق ما برحت اتقحمها •• وأنا اعيش على بعد خطوات

منك ؟ لكن لا بأس • لدي قينة فودكا ، وسأخذها معنا بعد السينما •

— فأذا نسينا ؟

— وأية مشقة في ان اعود وأجيء بها ؟

— لن يكون الامر لطيفا • لكن لا • لا اظنك ستسي •

- ان لدينا ساعة قبل الفلم • مارأيك ان نكتشف هذا المقهى ؟
- أي مقهى ؟
- هذا الواقع بالقرب من السينما •
- أنت بردان ؟
- كلا •
- أتدري ؟ انا لم ادخل هذا المقهى مرة • يقال انه كتيب جدا • اکت تردد عليه في السنة الاولى ؟
- مرة أو مرتين • وهو مقفر لاهية فيه •
- فلماذا تأخذني اليه ؟
- لن نمكث غير نصف ساعة •
- طيب • سنشرب قدحي نبيذ لاغير •
- كان خاليا الا من مجموعة من العمال والعاملات متجمعة حول مائدة •
- كانوا يحتسون نبيذهم الاحمر ويفنون في هدوء • كانت اغنية حزينة من الاغاني الشائعة • ووجدتني لينا متأثرا بغنائهم ، مصغيا باتباه • فوضعت يدها على يدي صامته ، مصغية •
- وفي السينما كان عدد من طالباتنا هناك • ورأيت تيانا بينهن • حيثهن عن بعد وهبطت مع لينا الى قبو المرمى • لنجرب مهارتنا في اقتناص الطرائد الكرتونية من الارانب والثعالب • ورأتها لينا فرصة لتراهن • شد مايعجبها هذا الرهان الصغير البريء • قالت :
- أنا اراهن على تذكرتي السينما في المرة القادمة •
- وأنا اراهن على عشاء في مطعم الصياد •
- كلا من فضلك • أنا ادعوك الى هذا المطعم بلا رهان • التذكر قصتك لي عن مغامرتك في صيد الطيور وانت صغير ؟ سأعوضك عنها ليلة

الاحد القادمة • سأوصي على وجبة من النوعية نفسها • وسيذكرك طعمها
بطيور طفولتك المهاجرة • والان • خذ بنديقتك وجرب •

— حاولي انت اولا •

وغلبتني بارنين • فصاحت متلهلة :

— لاتنس انني الراححة •

— وكيف أنسى • ستذكريني به عشرين مرة •

— أنا لم اذكرك الا مرة واحدة •• بعد آخر رهان •

حين خرجنا من القبو كان الجرس يدق • ورأيت تيانا تتصفح مجلة

ملونة عند الكشك الصغير • وبدا لي انها لم تقف الا لترى لنا متفحصة •

وادركت لنا في تحديقها بها لمعة ما • فسألتني :

— اظنها من طالباتكم •

— من هي ؟

— هذه الفتاة السمراء •

— اجل • من زميلاتي في الكورس •

— يخيّل لي انها اكثر من زميلة •

فلم اعلق بشيء • وقلت ونحن في الزحام الخارج من السينما :

— اقرأت ماكتبته زوجة هذا الممثل عنه بعد وفاته ؟

فألتفتت أخذه بذراعي :

— زوجة جيرار فيليب ؟ كلا • أهو كتاب مستع ؟

— أجل •

— وما هو عنوانه ؟

— برهة •

— كلا • لم اقرأه • الديك هذا الكتاب ؟

- سأحضره مع القنينة •
- اترى ؟ انت لم تنس الفودكا •
- لعل الكتاب هو ماذكرني بها •
- بل العكس هو الصحيح •
- وفي البهو ، في ثوبها المنزلي الازرق الداكن •• كان شحوبها ونقاء
جيدها وذراعيها الناصع أظهر فتنة وتألقا • وكنت اتأملها متعبدا •
- مابك ؟ ألم ترني من قبل ؟
- ان لك شحوبا وبياضا محرقين •
- لكنك لم تقل لي بعد •
- وهل سألتني ؟
- أكانت تريد ان تتزوجها ؟
- لكن من هي ؟
- سرائك الجميلة تلك •
- قلت انها زميلة •
- ونظرتها المتأججة الي ؟ اهي نظرة زميلة ؟
- أنا لااعرف الا انك أجمل امرأة على الارض ، وانني سأعطي بقبلائي
جسدك هذا كله من رأسك حتى اخمصي قدميك •
- ألم تكتشف بعد كل ماانت راغب به من جسدي ؟
- اتي لاكتشف ، كل ليلة ، لينا رائحة جديدة •
- أكنت تقول لها هذا ايضا ؟
- أنا لم ار قبلك امرأة • اسمعي • سأقرأ جمالك الجسدي ، الليلة ،
حرفا بعد حرف • وسأقف طويلا مبتهلا ، متفحضا ولاثما كل حرف من
حروفك • سأخفق فراشة فوق برعمي ثديك ووردة فمك • وامر كالغيمة
فوق قبتي صدرك • سأحط فوقهما طويلا • وانحدر كالسيل العرم على

منحدر بطنك وأوديتك • وأقيم من فخذيك وذراعيك أعمدة معبد هائل • •
والرفعها اشرعة لسفني ، وبيارق لجيوشي المنقضة المتقدمة • وسأشر شعرك
الذهبي حقول سنابل تحت عواصفي المرعدة المطرة • وأعفرك بلقاح أزهارك
المنسحقة • واضمحك بالزبد والرذاذ • سأجعلك تلتمين علي كالصدفة علي
محارثتها • • وتفتحين عن نفسك منتبهة ، منترة في كل اتجاه • وسأرمي بك
كما أرمي بالعربة الثقيلة المندفعة في كل منحدر سحيق • • وأعود بعد
الزوبعة المطرة لازيح عنك سنابلك وإوراق زهورك المرغة • واشك معفرة
باللقاح • وانسحب منك لاسقط عند قدميك • • لاقبل اصابعهما وظاهرهما
وباطنهما • ويهب النسيم واهنا في اشرعتك المنخفضة • فأرفعها عاليا في مهب
زوابعي حتى الفجر • وتتضرع بي قمرتا صدرك ، وقد طار عشهما الاشقر •
وتسيل زهرة شفتيك دما • وتتكر البروق في عينيك • وتلهين كالخييل
أسقطها الجري في العراء الفسيح • وتئن فخذاك أنين اشرعة طال سفرها •
وتبغمين بغام الظبية المطفل • وتهديلن كاليمامة تحت جناح ذكرها • في هذه
الليلة الشتوية الطويلة ستجدين نفسك مبشرة في جهات الارض الاربع •

— واغفو عارية تحت قبلاتك •

— انني اسمع ، أحيانا ، أننا لثديك وضراعة • وأحس بك بالرغم من
امتلائك والامتدادك وكأنك برعم أو زهرة ناعمة ضعيفة فأرأف بك •

— أتدري ماذا قالت لي صاحبة من زميلات المصنع ؟

— ماذا قالت ؟

— سألتني أما زلتما معا ؟ قلت أجل • قالت كيف احتفظت به ، وهو

مع امرأة مثلك ، صبي تقريبا ؟ قلت مازحة : وهل تريدان ان اتركه لك ؟

وقيل رأس السنة كانت لنا في بعثة عمل غير متوقعة • وكنت ، بعدها ،

وحيدا مظلم الروح • هل اتصل باصدقائها كما أرادت ، لاقضي ليلة العيد

مهم ؟ وكيف سألتني برايا بعد انقطاع طويل ؟ وأي بأس ؟ هي تعرف انني لا استطيع لقاءها مادمت مع لينا . سأتلفن لهن بعد العاشرة مهنتا ، وأمر ، بعدها ، لاقضي معهن بقية السهرة . هكذا افضل . غير ان الامر كان أخذا مجرى آخر . وكانت الثلوج تنهمر حيثما ليلة رأس السنة .

مررت على جيلي اولا . وكانت تانيا وصاحبتهما الكستنائية في غرفته . كان حفلا طيبا صغيرا . وفي التاسعة أحيت ان أمر على أم لينا لاهنتها . كانت محتفلة مع أقارب لها . وكان سرورهم بي كبيرا . ورن جرس الباب بعد نصف ساعة . فقلت لافتح . كانت الزائرة هي جارة لينا . فأسرعت تحييني تحية حافلة . كانت أخذة زيتنها ، مرتدية ثوبا رائعا ، منسدلا على امتلائها الاربعيني . حين رأنتي متلثا اعجابا ورغبة ابتسمت لي ابتسامة لها معنى . ومكثت معنا حتى العاشرة . وطوال بقائها كانت حذرة متكئة . ونهضت معها لافتح . وكانت تتقدمني متعددة ، وهي تدري أي ظهر باذخ لها . فابتدرتني هامة :

— أنا مع أمي واطفالي . ويسرنا ان نتناول معنا كأسا .

— هذا لطف منك . سأمر بعد قليل .

— سأنتظرك .

وعدت لاشرب وابدد هذا الضباب من التردد المفاجيء . أأتركها منتظرة عبثا بجمالها الخريفي الاسر ؟ وكانت كالثمرة اليانعة بعد نضج طويل . ان فتنة امتلائها ، وهي في الخامسة والاربعين ، فتنة هذه الغابات والحدائق الخريفية الثقيلة بالثمر والهمسات . وانصرفت لاقر بابها نقرا خفيفا . وفتحت مرحلة باسمه في خفر أخاذ فاتن . كان ابنها الصغير نائما . وكانت ابنتها وامها ساهرتين . وكانت ابنتها في السابعة عشرة . اجلسني المرأة جوارها . واخذت تصب لي . وحين رقصنا أحسست بها حارة لدنة . وكان وجهها يتورد خجلا ورغبة ، وهي تهمس لي :

— انني ثقيلة •

— بل انت جميلة جدا •

وفي الساعة الثانية كنا وحدنا • وكأنت اكثر ترددا مني • غير انها
الفودكا • وكان شعرها الكستنائي الداكن محلولا قليلا • فبدت اكثر فتنة •
قلت :

— مارأيك في جولة صغيرة ؟

— في هذا الوقت المتأخر ؟

— أليس بديما ان تمشي تحت الثلوج المتساقطة ؟

— طيب • مادمت راغبا •

— ألن تركي ورقة لامك ؟

— هل سأؤخر معك طويلا ؟

— وهل تظنين انني سأفترق عنك بعد ساعة او ساعتين ؟

— لا بأس • ستعرف امي انني عند اصدقاء •

— سأنتظرك في الزقاق •

— طيب • هكذا افضل •

وجاءت متهادية بثقلها وطراوتها • وانعطفنا ، تحت الثلوج الحيشة ،
حول البريد باتجاه منزلي • كان المصعد في الطابق الاول ففتحته وصعدنا •
ولم تقل شيئا في غرفتي • كانت واقفة ، خافضة رأسها • واحطتها برفق بين
ذراعي ، ورحت اقبل وجهها وفمها • ورجتني ان أطفئ الضوء •

وعدت بعد قليل • كانت متمددة بطولها كله ، عارية تحت اغطيتي •
اشعلت ضوء الطاولة ، واتزمت ثيابي • كانت منتظرة ، مفتحة لي كالخليج
ينفتح هادئا منتظرا • وحالما انفلقت علي ماجت أمواجها • • بعد ساعات
تراخي ذراعاها عني قليلا • • وكانت كالسفينة المثقلة التائهة لاهركة لها أو

اتجاه غير حركة الريح لاعبة بها في أيما اتجاه تريد .

حين أفقت كانت نائمة . نانسجت في هدوء . وعدت وهي لما تنزل
نائمة . وغموت ساعة . وصحوت لأجدها متمددة عارية دافئة . وكانت
يقظي . ورجت الاظف بيدي ثديها وبطنها الوثير . فتسللت يدها لتمسك بي
بلطف . وكان تموجها ، هذه المرة ، بين ذراعي ناعما كحلهم .

وكنت مع جيلي مرة ، في مقهى الفندق . وكنا ضجرين . فخرجنا بحثا
عن صيد طائرين غابرين . كان الليل بارداً ، والسماء مكفهرة قاتمة . كانت
الجملة باطلة فيما بدا لنا . وأراد جيلي آخر ، الامر ، أن نحاول مع فتاتين
كاتتا في كشك التلفون تحدثان . وقد لاحتا لنا من اللاهيات المرحات .
وخرجتا فأقتربنا منهما ، فأعرضتا عنا ضاحكتين . ورأينا ان تلتفن لغائب .
قال ان لديه زجاجة كونيكا ، وهو في انتظارنا في شقته . وفي عربة المترو ،
في الجهة الثانية كنت أرى سيدة من ألهاث الخطى المتثاقلة . كانت ترتدي
فراء زائعا ، وتلف تسريحتها الشقراء العالية بمنديل مخرم ايض كبير . ولم
تكن ملتفتة لاحد . كانت مسبله أهدابها الطويلة ، غاضة بصرها . ووقفنا
لنهبط في مترو الجامعة . فسبقتنا نازلة . وكنت أتأمل ساقها المائعتين
معجبا . وقلت لجيلي انتي سأحاول معها . فرد علي ناصحا :

— اترى مشيتها الراقصة وفراءها ؟ لاأظنها ستقنع بغرفة طالب .

— مع هذا

— ولماذا تتبعها عشا ؟

— انتظرنى خمس دقائق عند واجهة المحطة . فإذا لم اعد فأعلم انني

عائد بها الى مطعم ما .

ورأيتها تقف عند كشك الجرائد ، تصفح مجلة ما . اترأها أحست
بتسبعي لها ؟ من يدري ؟ وأجتازت شارعاً لتدخل مخزنا . كانت البائعة تعرض

عليها نماذج من معاطف جلدية • وكنت واقفا جوارها صامتا • وخرجت
قتبعتها • ولعلها وجدتني مترددا فأسرعت من خطاها • كان الزقاق رطباً
عائماً • وكان الثلج يتساقط خفيفاً • ولحقت بها أسألها عن الترام ٢٢ وأنا
اعرفه منذ اول يوم لي في موسكو • فأجابتنى ، وفي صوتها رنة رضا
وارتياح :

— هو هناك • ليس بعيداً •

— أذهبة انت اليه ؟

— أجل •

وسألتها عن رقم منزل أدري انه في طريق الترام •

— سأخبرك حين نمر عليه •

— أليديك وقت لاتحدث قليلا معك •• بعد سماحك بالطبع •

— تفضل •

واتجهنا في غير ناحية الترام • كنا نسير في ساحة أو عراء خال شبه
عائم • وكنا ندور بلا اتجاه ما • قالت انها طيبة ، وان اسمها ايما • وادركت
أنها تخترع هذا • كل شيء في حركاتها وهيئتها يذكرني بفنانة من المسرح •
كانت راقصة •• راقصة باليت في البولشوي • وهذا ما علمته منها فيما بعد •
وتحدثنا حوالي نصف ساعة • وكنا نطوف الساحة المقفرة ، والجو بارد ،
والسماء سوداء حالكة • فأقترحت عليها ان نخرج على مقهى • وتلفتنا حولنا ،
فلم نر أية لافتة تنبيء بمقهى أو مطعم • فدخلنا المترو عائدين • وازاء فندق
موسكو أقنعتنا ان تجيء معي الى غرفتي • كنت أقول :

— اني لاود أن أنادمك في مكان هاديء •• مع الموسيقى الحاملة ،

وبعيداً عن ضجيج الآخرين •

ووقفنا ننتظر دورنا في موقف التكبني • وفي التكسي سمعتها تقول :

— انك تسكن بعيداً تقريباً •

كان المخزن يغلّق في التاسعة . وكانت الساعة التاسعة الا ثلثا . فلم
اجد بدا من ان ندخل المخزن معا . فأحبّت ان تنتقي مايلائهما . فأقترحت
زجاجة فودكا ، وسمكا معلبا وخضرا بلغارية . وفي مصعد البيت سألتني .

— هل عرفني أحدهم ؟

— وأي ضرر في هذا ؟

كان الموقف معطلا في الطابق الخامس . فهبطنا في السادس . وفي
نزولنا ، كان اوكاجين ، الطالب السكير من ألتاي ، ممددا فوق السلم في
اغفاءة عميقة . كان بنظونه مبلا ، وبالقرب منه بقعة رطبة . قالت كالساخرة :

— اهكذا يسكرون هنا ؟

— ماحدث هذا الا صدفه .

وحين أعتتها في نزع فرائها رأيت أي قوام تمتلك ! كانت اكتافها
ترتمش في اختلاجة أخاذة . وسألتها ان تفحصني مادامت طيبة . فضحكت
ضحكا صافيا . وسمعتها تقول بين يدي ونحن نرقص :

— لااعرف كيف ارقص بالكعب العالي .

— مع انك راقصة رائعة .

— اعني أنني لم اعتد الرقص في حذاء بكعب مرتفع .

وكانت الثلوج منهمة طوال الليل . وكان قميصها الحريري الابيض
ملقى فوق الكرسي كطائر البحر المنهك فوق موجته .

ثم عادت لنا .. وعدنا فلتقي كل ليلة في العاشرة ، وفي السابعة كل
مساء سبت . وقبيل العطلة الصيفية ، ولينا تتمتع باجازتها في القرم ، كنت
عازما على تهينة اوراقي لارحل جنوبا . وكانت الاستاذة الشابة راغبة ان
نقضي العطلة معا في منتجع تابع لاتحاد الكتاب . واتفقنا ان نحجز غرفة في
قطار واحد . وفي القطار ، طوال الليل ، كانت بين ذراعي ، وكأنا في ليلة
الزفاف . كان السرير ضيقا بنا . وكان جسدها أخذنا سعة السرير كلها .
وكانت حركة القطار هي حركتنا .. تلك الليلة المائجة المختضة الغارية .

حلم يتحطم

في النهار ، فوق رمال البحيرة ، كنا نستلقي بعيدا عن السابحين • كنت امرغ وجهها وعريها بقبلاتي • وسريعا ما انطوى الشهر كحلم • وفي الشتاء كانت لنا متعلقة بلقائنا اليومي تعلقا غريبا • أحيانا تطرق علي بابي في أية ساعة تشاء • كانت تريد ان اقرأ في شقتها حتى العاشرة لنخرج بعدها في جولة • بل كنت أفاجا بها أحيانا صاعدة بالفتاح ، لتتظرنني في الغرفة ، قبل عودتي بمدة • ومرة كنا راجعين من المخزن • ومرت بنا امرأة شابة فحيتنا بلطف باسمه لي • قالت لنا معتمة :

- أهير صديقة قديمة ؟
- هذه طيبة اسنان في المتوصف المجاور •
- آ • • انها جميلة • اتمر عليها لتفحص لك •
- كلا • • رأيته صدفه قبل ان التقي بك •
- أية رقة في ابتسامتها لك •
- قلت لك انني كنت اعرفها قديما •
- فلماذا هذه العصبية في صوتك • • مادام الامر هكذا ؟

- لانك تسأليني متشككة .
- ومن أين لي ان اعلم ؟ انت حر على أية حال .
- اتذكرين انني سألتك يوما عن لحد بادرك بتحية ؟
- أنت فعلا عصبي المزاج .
- وان لك تقطية رائعة !
- لاتنس انك رجلي .. بالرغم من اننا لم نوقع أية ورقة .
- سيأتي يوم .. نندم فيه ندما مريرا لاننا لم نوقع هذه الورقة .
- وانت تعلمين أي شقاء ينتظرني بعيدا عنك . ستجف شفاهي ظمأ الى جلدك ،
- ويتخشب ذراعي بحثا عنك في صحراء حب لن يكف لحظة عن تشوقه اليك .
- أجل . بعنادك هذا ستجعلين من أيامي القادمة نهرا يابسا ، ضائعا في القفار .
- مابك ؟ يمكنك ان تبقى معي هكذا حتى آخر يوم لي .
- وبغير ان نقترن ؟
- الم نقترن في اول لقاء في الحافلة ؟
- واضافت ضاحكة :
- ثم أنني سأجل منك .
- أتمزحين ايضا ؟
- كلا . انا جادة . ولقد وعدت أُمي أيضا . في اخريات الربيع سأكون
- في شهري الاول . هوذا قراري . سترى .
- كانت الثلوج تتكوم في أخايدها . وكنا تتجول بعد العاشرة أو نرجع
- مرحين من السينما . ومرة كانت تقول مازحة ، وثلوج الليل تتساقط حثيا :
- ارأيت في قبو المرمى كيف كانت تتأملك تلك الفتاة الشقراء ؟
- اسمعي .. حلمت البارحة وكأني أراك لأول مرة .
- حقا ؟ اكان هذا في حافلة ؟

— كلا .. في بـارك غوركـي . وكنت تنزلجـين راقصة مع الموسـيقى .
— لن انسى يوما اية نظرة حزينة كانت لك حين رأيتك في الحافلة !
— كنت ، مرة ، واقفا في انتظار الباص قبالة الجامعة . كان الوقت
ليلا .. وكان هذا قبل ان التقى بك . وكانت هناك فتاتان تنتظران . كنت
وحيدا قانطا . وسمعت احدهما تقول رانية الي : اية نظرة حزينة ! فادركت
اية تعاسة اعيش ! واية وحشة !

— واضح انها تريد اجتذابك اليها . ألم تتقدم اليها .
— كلا . ظللت واقفا .
— ألم تكن جميلة ؟
— بل كانت . انما كنت يائسا .

كان آخر شتاء . أكنت أحس بفراغ ذراعي الابدني بعد شهور ؟ أكنت
أعلم اي شقاء سأعيش ؟ كانت الزوبعة الثلجية تلتطم عبر النافذة . وكانت
لينا في ثوبها المنزلي الاحمر القاتم . وكنت اقطع الرنجة ، متمتا بطعمها
المالح بعد جرعة فودكا . وكان وجه لينا الشاحب ضاحكا . وكنت اتلمس
عري ساعديها البديعين متلذذا . وفي الثانية بعد منتصف الليل ، والطرقات
مقفرة وحيدة ، كانت تتقلب بين ذراعي ، والزوبعة الثلجية تن وتقهقه . وحين
نعود مع هذه الزحمة المرححة الخارجة من السينما .. كنت أرى المصاييح
المتوهجة الباردة وكأنما تحاول شيئا في أذابة الثلوج .. وكأنما الاشجار
العارية المتجلدة تحاول ان تنفس . والطرقات تبتل . والثلوج تذوب .
والوحدة كامنة في كل خطوة .

وحدة قاحلة منتظرة .. في مثل قحول العمود المعدني المنفرد في البرية .
وكنت أحس بالبلل في قلبي ، وتحت قدمي . وكان الريح يدب هزيلا
باردا .

فهرست

- ١ - توطئة حلم
- ٢ - خطوات فوق الثلوج
- ٣ - اغنية الفتاة الرصيئة
- ٤ - آلهة الخطى المتناقلة
- ٥ - الوكتات
- ٦ - النار الخضراء
- ٧ - حلم يتحطم

شواهد

مكتبة دار الكندي
بغداد - الحارثية

٥٤٢٣٨٨١

هاتف :

٥٤٢٨٦٩٨

سعر النسخة ٢٧٥٠ دينار

رقم الايداع ٥٢١ في المكتبة الوطنية ببغداد لسنة ١٩٨٦

مطبعة الديوانية - بغداد
الهاتف : ٨٨٧٦١٩٧